بسم الله الرحمن الرحيم

شرح

صحيح مسلم

كتاب البر والصلة

بقلم
سليمان بن محمد اللهيميد – السعودية / رفحاء
الموقع على النت – رياض المتقين
www.almotaqeen.net
القناة العلمية على التلجرام
https://t.me/aloheemeed

كتاب البر والصلة والآدب

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي قَالَ « أُمُّكَ » قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ « ثُمَّ أُمُّكَ » قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ « ثُمَّ أُمُّكَ » قَالَ ثُمَّ مَنْ قَالَ « ثُمَّ أَبُوكَ) .

[خ : ٥٩٧١] .

==========

(**جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ**) يُحْتَمَلُ أَنَّهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ حَيْدَةَ بِفَتْحِ الْمُهْمَلَةِ وَسُكُونِ التَّحْتَانِيَّةِ وَهُوَ جَدُّ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ فَقَدْ أَخْرَجَ الْمُصَنِّفُ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ مِنْ حَدِيثِهِ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبَرُّ قَالَ أُمُّكَ الْحَدِيثَ وَأَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِي. (الفتح)

(**فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي**) وفي الرواية الأخرى (بحسن الصحبة).

(**قَالَ أُمُّكَ**) أي: أحقهم بحسن الصحابة أمك وكذا ما بعده.

(**ثُمَّ أَبُوكَ**) أحقهم بحسن الصحابة.

١ – الحديث دليل على أن الأم أحق بالبر من الأب.

قال النووي: الصَّحَابَة هُنَا بِفَتْحِ الصَّاد بِمَعْنَى الصُّحْبَة.

وَفِيهِ الْحَثّ عَلَى بِرّ الْأَقَارِب، وَأَنَّ الْأُمّ أَحَقّهمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ بَعْدهَا الْأَب، ثُمَّ الْأَقْرَب فَالْأَقْرَب.

٢–الحكمة من تقديم حق الأم على الأب :

لأن الأم عانت في سبيله ما لم يعانه الأب، فحملته تسعة أشهر وهنًا على وهن، وضعفًا إلى ضعف، ووضعته كُرْهًا، يكاد يخطفها الموت من هول ما تقاسي، ولَكَم كان بدء الحياة لوليد نهايتها لِأُمٍّ رؤومٍ؟! وكذلك أرضعته سنتين، ساهرة على راحته، عاملة لمصلحته، وإن برحت بها في سبيل ذلك الآلام، وبذلك نطق الوحي .

قال النووي : قَالَ الْعُلَمَاء: وَسَبَب تَقْدِيم الْأُمّ كَثْرَة تَعَبهَا عَلَيْهِ، وَشَفَقَتهَا، وَخِدْمَتهَا، وَمُعَانَاة الْمَشَاقّ فِي حَمْله، ثُمَّ وَضْعه، ثُمَّ إِرْضَاعه، ثُمَّ تَرْبِيَته وَخِدْمَته وَتَمْرِيضه، وَغَيْر ذَلِكَ. وَنَقَلَ الْحَارِث الْمُحَاسِبِيّ إِجْمَاع الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ الْأُمّ تُفَضَّل فِي الْبِرّ عَلَى الْأَب، وَحَكَى الْقَاضِي عِيَاض خِلَافًا

فِي ذَلِكَ، فَقَالَ الْجُمْهُور بِتَفْضِيلِهَا، وَقَالَ بَعْضهمْ: يَكُون بِرّهمَا سَوَاء. قَالَ: وَنَسَبَ بَعْضهمْ هَذَا إِلَى مَالِك، وَالصَّوَاب الْأَوَّل لِصَرِيحِ هَذِهِ الْأَحَادِيث فِي الْمَعْنَى الْمَذْكُور. وَاَللَّه أَعْلَم.

قَالَ الْقَاضِي: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأُمّ وَالْأَب آكَد حُرْمَة فِي الْبِرّ مِمَّنْ سِوَاهُمَا. قَالَ: وَتَرَدَّدَ بَعْضهمْ بَيْن الْأَجْدَاد وَالْإِخْوَة لِقَوْلِهِ ﷺ ثُمَّ أَدْنَاك أَدْنَاك قَالَ أَصْحَابنَا: يُسْتَحَبّ أَنْ تُقَدَّم فِي الْبِرّ الْأُمّ، ثُمَّ الْأَب، ثُمَّ الْأَوْلَاد، ثُمَّ الْأَجْدَاد وَالْجَدَّات، ثُمَّ الْإِخْوَة وَالْأَخَوَات، ثُمَّ سَائِر الْمَحَارِم مِنْ ذَوِي الْأَرْحَام كَالْأَعْمَامِ وَالْعَمَّات، وَالْأَخْوَال وَالْخَالَات، وَيُقَدَّم الْأَقْرَب فَالْأَقْرَب. (نووي)

وقال الصنعاني: إذا تعارض حق الأب وحق الأم: فحق الأم مقدم.

لحديث: (قال رجل يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي قال أمك ثلاث مرات ثم قال أبوك).

فإنه دل على تقديم رضا الأم على رضا الأب.

قال ابن بطال: مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب ، قال: وكأن ذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع.

قلت: وإليه الإشارة بقوله تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها) ومثلها (حملته أمه وهنا على وهن).

قال القاضي عياض: ذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل على الأب في البر، ونقل الحارث المحاسبي الإجماع على هذا. (سبل السلام)

جاء في (**الموسوعة الفقهية**) أَمَّا إِنْ تَعَارَضَ بِرُّهُمَا فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَحَيْثُ لاَ يُمْكِنُ إِيصَال الْبِرِّ إِلَيْهِمَا دَفْعَةً وَاحِدَةً:

فَقَدْ قَال الْجُمْهُورُ: طَاعَةُ الأُْمِّ مُقَدَّمَةٌ؛ لأِنَّهَا تَفْضُل الأْبَ فِي الْبِرِّ.

وَقِيل: هُمَا فِي الْبِرِّ سَوَاءٌ.

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ رَجُلاً قَال لِمَالِكٍ: وَالِدِي فِي السُّودَانِ، كَتَبَ إِلَيَّ أَنْ أَقْدُمَ عَلَيْهِ، وَأُمِّي تَمْنَعُنِي مِنْ ذَلِكَ، فَقَال لَهُ مَالِكٌ: أَطِعْ أَبَاكَ وَلاَ تَعْصِ أُمَّكَ. يَعْنِي أَنَّهُ يُبَالِغُ فِي رِضَى أُمِّهِ بِسَفَرِهِ لِوَالِدِهِ، وَلَوْ بِأَخْذِهَا مَعَهُ، لِيَتَمَكَّنَ مِنْ طَاعَةِ أَبِيهِ وَعَدَمِ عِصْيَانِ أُمِّهِ.

وَرُوِيَ أَنَّ اللَّيْثَ حِينَ سُئِل عَنِ الْمَسْأَلَةِ بِعَيْنِهَا قَال: أَطِعْ أُمَّكَ، فَإِنَّ لَهَا ثُلُثَيِ الْبِرِّ.
وَنَقَل الْمُحَاسِبِيُّ الإِْجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الأُْمَّ مُقَدَّمَةٌ فِي الْبِرِّ عَلَى الأَْب. (الموسوعة)

وقال القرطبي: فَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَحَبَّةَ الْأُمِّ وَالشَّفَقَةَ عَلَيْهَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ ثَلَاثَةَ أَمْثَالِ مَحَبَّةِ الْأَبِ، لِذِكْرِ النَّبِيِّ ﷺ الْأُمَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَذِكْرِ الْأَبِ فِي الرَّابِعَةِ فَقَطْ. وَإِذَا تَوَصَّلَ هَذَا الْمَعْنَى شَهِدَ لَهُ الْعَيَانُ. وَذَلِكَ أَنَّ صُعُوبَةَ الْحَمْلِ وَصُعُوبَةَ الْوَضْعِ وَصُعُوبَةَ الرَّضَاعِ وَالتَّرْبِيَةِ تَنْفَرِدُ بِهَا الْأُمُّ دُونَ الْأَبِ، فَهَذِهِ ثَلَاثُ مَنَازِلَ يَخْلُو مِنْهَا الْأَبُ.

وقال القاضي عياض -رحمه الله- ... لكنه تأكيد حق الأم وأمانة مبرّتها على مبرّة الأب؛ لكثرة تكلُّفها له من الحمل، ومشقة الوضع، ومعاناة الرضاع والتربية، ثم الأب، ثم تنزيل ذلك في القرابة على الأقرب فالأقرب.

وقال القسطلاني -رحمه الله- وفي تكرير ذكر الأم ثلاثًا إشارة إلى أن الأم تستحق على ولدها النصيب الأوفر من البر .

٣-قوله (**ثم أدناك أدناك**) .

قال القرطبي : يعني أنك إذا قمت ببر الأبوين تعيَّن عليك القيام بصلة رَحِمِكَ، وتبدأ منهم بالأقرب إليك نسبًا فالأقرب، وهذا كله عند تزاحم الحقوق، وأما عند التمكن من القيام بحقوق الجميع، فيتعين القيام بجميع ذلك .

وقال الشوكاني -رحمه الله- قوله (ثم أدناك أدناك) هو مثل قوله (ثم الأقرب فالأقرب) وفي ذلك دليل على أن القريب الأقرب أحق بالبر والإنفاق من القريب الأبعد، وإن كانا جميعًا فقيرين، حيث لم يكن في مال المنفِق إلا مقدار ما يكفي أحدهما فقط بعد كفايته.

٤-**قال القاضي عياض** -رحمه الله- فيه تنزيل الناس منازلهم، وأن يُوفَّ كلُّ أحد حقه على قدر قرباه وحرمته ورَحِمِهِ.

٥-حرص الصحابة على أمور دينهم، وسؤالهم عما يحتاجون إليه مما يجهلون .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ « أَحَيٌّ وَالِدَاكَ » قَالَ نَعَمْ. قَالَ : فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ) .

[خ : ٥٩ ٧٢] .

==========

(**جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ**) **قال ابن حجر**: يحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ هُوَ جَاهِمَةُ بْنُ الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ، فَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ وَأَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ (أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَدْتُ الْغَزْوَ وَجِئْتُ لِأَسْتَشِيرَكَ فَقَالَ هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ قَالَ نَعَمْ قَالَ الْزَمْهَا).

(**فَقَالَ : أَحَيٌّ وَالِدَاكَ . قَالَ نَعَمْ. قَالَ : فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**) أي: ابلُغ جهدك في برّهما، والإحسان إليهما، فإن ذلك يقوم لك مقام قتال العدو. أو خصّصهما بجهاد النفس في رضاهما. قاله في "الفتح". وقال السنديّ: أي جاهد نفسك، أو الشيطان في تحصيل رضاهما، وإيثار هواهما على هواك. وقيل: المعنى: فاجتهد في خدمتهما.

قال القرطبي: أي جاهد نفسك في برهما وطاعتهما فهو الأولى بك، لأن الجهاد فرض كفاية وبر الوالدين فرض عين.

١ – الحديث دليل على عظم حق الوالدين، وأنه لا يجوز للولد أن يجاهد إلا بإذنهما.

٢–الحديث دليل على أنه يشترط للجهاد إذن الوالدين إذا كان الجهاد تطوعاً.

أ–لحديث الباب

وَلِأَحْمَدَ، وَأَبِي دَاوُدَ: مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ نَحْوُهُ، وَزَادَ (اِرْجِعْ فَاسْتَأْذِنْهُمَا، فَإِنْ أَذِنَا لَكَ; وَإِلَّا فَبِرَّهُمَا).

ب–وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ، وَتَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ، فَقَالَ: ارْجِعْ عَلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا) رواه أبو داود.

ج– وعنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ. (أَنَّ رَجُلاً هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ: هَلْ لَكَ أَحَدٌ بِالْيَمَنِ؟ قَالَ: أَبَوَايَ، قَالَ: أَذِنَا لَكَ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَاسْتَأْذِنْهُمَا، فَإِنْ أَذِنَا لَكَ فَجَاهِدْ، وَإِلاَّ فَبِرَّهُمَا) رواه أبو داود .

د- وعنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السُّلَمِيّ. (أَنَّ جَاهِمَةَ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُوَ، وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ ، قَالَ: نَعَمْ، قَال: فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا) رواه النسائي.

هـ- أن الجهاد في هذه الحالة فرض على الكفاية ينوب عنه فيه غيره، وبر الوالدين فرض يتعين عليه لا ينوب عنه فيه غيره، فلا يترك فرض عين للقيام بما فرض على الكفاية.

قال في الفتح: قال جمهور العلماء: يحرم الجهاد إذا منع الأبوان، أو أحدهما، بشرط أن يكونا مسلمين، لأن برّهما فرض عين عليه، والجهاد فرض كفاية.

وقال الصنعاني: ذهب الجماهير من العلماء إلى أنه يحرم الجهاد على الولد إذا منعه الأبوان أو أحدهما بشرط أن يكونا مسلمين، لأن برهما فرض عين والجهاد فرض كفاية، فإذا تعين الجهاد فلا.

٣-حالات رجوع الأبوين عن إذنهما لولدهما بالجهاد؟

الحالة الأولى: أن يرجع الأبوان قبل حضور الولد الصف في القتال.

ففي هذه الصورة اتفقت الشافعية والحنابلة على أنه يجب على الولد أن يرجع.

واستدلوا بأن عدم الإذن عذر يمنع وجوب الجهاد ابتداء فكذلك إذا طرأ في أثنائه كسائر الموانع من العمى أو المرض.

الحالة الثانية: أن يرجع الأبوان عن إذنهما بعد حضوره الصف.

فالأظهر هنا أنه لا عبرة برجوعهما عن الإذن، ويحرم على الولد الانصراف عن القتال.

لأن الجهاد تعيّن عليه بحضوره الصف، فلم يبق لهما إذن.

٤-هل يُلحق الجدّ والجدّة بالأبوين في ذلك؟

الأصحّ عند الشافعيّة نعم.

٥-إذا كان الجهاد فرض عين على الابن: فهنا لا يشترط إذن الوالدين.

قال ابن حجر: فإذا تعيّن الجهاد فلا إذن.

أ- لقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا).

ولقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ).

وجه الدلالة من الآيتين: أن الله سبحانه وتعالى أمر بالثبات عند قتال الكفار وعدم الفرار عنهم، والآية عامة تشمل جميع المؤمنين ومنهم الولد.

ب- قال ﷺ (لا طاعة في معصية الله) متفق عليه.

وجه الدلالة: الرسول ﷺ أخبر بعدم الطاعة في معصية الله، والجهاد هنا فرض عين وتركه معصية، فلا معنى لاستئذان الوالدين في هذه الحالة، إذ لا طاعة لهما إذا لم يأذنا.

ج- قياس الجهاد في هذه الحالة على الصلاة المكتوبة، بجامع أن كلاً منهما عبادة تعيّنت عليه، فكما أن أداء الولد للصلاة المكتوبة لا يتوقف على إذن الوالدين فكذلك الجهاد.

د- ترك الجهاد في هذه الحالة يؤدي إلى الهلاك فقدّم على حق الأبوين. (أحكام إذن الإنسان)

فإن قيل: بر الوالدين فرض عين أيضاً والجهاد عند تعينه فرض عين فهما مستويان فما وجه تقديم الجهاد؟

قلت: لأن مصلحته أعم إذ هي لحفظ الدين والدفاع عن المسلمين فمصلحته عامة مقدمة على غيرها وهو يقدم على مصلحة حفظ البدن. ... (سبل السلام)

٦-**قال في المغني**: وإن أذن له والداه في الغزو وشرطا عليه أن لا يُقاتل، فحضر القتال تعيّن عليه وسقط شرطهما. كذلك قال الأوزاعي وابن المنذر؛ لأنه صار واجباً عليه فلم يبق لهما في تركه طاعة.

٧-**قال ابن قدامة**: فَأَمَّا إنْ كَانَ أَبَوَاهُ غَيْرَ مُسْلِمَيْنِ، فَلَا إذْنَ لَهُمَا.

وَبِذَلِكَ قَالَ الشَّافِعِيّ.

لأن أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا يُجَاهِدُونَ، وَفِيهِمْ مَنْ لَهُ أَبَوَانِ كَافِرَانِ، مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانِهِمَا؛ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَأَبُو حُذَيْفَةَ بْنُ عَتَبَةَ بْنُ رَبِيعَةَ، كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَبُوهُ رَئِيسُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمئِذٍ، قُتِلَ بِبَدْرٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ، قَتَلَ أَبَاهُ فِي الْجِهَادِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (لَا تَجِدُ قَوْمًا). الْآيَةَ.

وَعُمُومُ الْأَخْبَارِ مُخَصَّصٌ بِمَا رَوَيْنَاهُ. (المغني)

٨-إذا كان الأب رقيقاً هل يستأذن أم لا؟

قيل: يجب أن يستأذن.

أ-لِعُمُومِ الْأَخْبَارِ، وَلِأَنَّهُمَا أَبَوَانِ مُسْلِمَانِ، فَأَشْبَهَا الْحُرَّيْنِ.

ب- ولأن المقصود من ذلك مراعاة حق الوالد.

ج- ولئلا يقع في نفسه شيء من الحسرة بفوات نفس ولده أو تعرضه للقتل وهذا ثابت في الرقيق كما هو في الأحرار.

وقيل: لا يجب.

لِأَنَّهُ لَا وِلَايَةَ لَهُمَا.

٩-هل يخرج للجهاد وعليه ديْن؟

هذه المسألة لها أحوال:

أولاً: اتفق الفقهاء على عدم اشتراط إذن الدائن لجهاد المدين إذا كان الجهاد متعيناً عليه، سواء كان المدين معسراً أم موسراً.

لأن الخروج هنا فرض عين على كل قادر، وهو لا يحتمل التأخير، أما قضاء الدَّين فيحتمل التأخير، والضرر في ترك الخروج أعظم من الضرر في الامتناع من قضاء الدين، لأن الضرر في ترك الخروج يرجع إلى كافة المسلمين، فالواجب عليه أن يشتغل بدفع أعظم الضررين.

جاء في (**الموسوعة الفقهية**) وَأَمَّا إذَا تَعَيَّنَ الْجِهَادُ فَلا خِلَافَ بَيْنَ الْفُقَهَاءِ فِي أَنَّهُ لا إذْنَ لِغَرِيمِهِ.

ثانياً: اتفق الفقهاء على أنه ليس للمدين الموسر أن يخرج للجهاد إذا كان الدين حالاً بغير إذن الدائن إلا إذا ترك وفاء، ولم يخالف فيه إلا الأوزاعي.

واستدلوا: بأن فرض الدين متعين عليه، فلا يجوز تركه لفرض على الكفاية يقوم عنه غيره مقامه.

واستدلوا لجواز الجهاد إن ترك وفاءً أو أقام كفيلاً:

بفعل عبد الله بن عمرو بن حرام –والد جابر– حيث خرج إلى أحد وعليه ديْن كثير، فاستشهد وقضاه عنه ابنه بعلم النبي ﷺ ولم يذمه النبي ﷺ على ذلك ولم ينكر فعله بل مدحه، وقال: ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها.

قال ابن قدامة: وَمَنْ عَلَيْهِ دَيْنٌ حَالٌّ أَوْ مُؤَجَّلٌ، لَمْ يَجُزْ لَهُ الْخُرُوجُ إلَى الْغَزْوِ إلا بِإِذْنِ غَرِيمِهِ، إلا أَنْ يَتْرُكَ وَفَاءً، أَوْ يُقِيمَ بِهِ كَفِيلاً ، أَوْ يُوَثِّقَهُ بِرَهْنٍ. وَبِهَذَا قَالَ الشَّافِعِيُّ. . .

ودليل ذلك أَنَّ رَجُلا جَاءَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنْ قُتِلْت فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ قَالَ: نَعَمْ ، إلا الدَّيْنَ ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِي ذَلِكَ. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

ولأَنَّ الْجِهَادَ تُقْصَدُ مِنْهُ الشَّهَادَةُ الَّتِي تَفُوتُ بِهَا النَّفْسُ، فَيَفُوتُ الْحَقُّ بِفَوَاتِهَا.

وَأَمَّا إذَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْجِهَادُ ، فَلا إذْنَ لِغَرِيمِهِ ; لأَنَّهُ تَعَلَّقَ بِعَيْنِهِ ، فَكَانَ مُقَدَّمًا عَلَى مَا فِي ذِمَّتِهِ ، كَسَائِرِ فُرُوضِ الأَعْيَانِ. . .

وَإِنْ تَرَكَ وَفَاءً ، أَوْ أَقَامَ كَفِيلاً ، فَلَهُ الْغَزْوُ بِغَيْرِ إذْنٍ. نَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ فِيمَنْ تَرَكَ وَفَاءً.

لأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَرَامٍ أَبَا جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَرَجَ إلَى أُحُدٍ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ كَثِيرٌ، فَاسْتُشْهِدَ، وَقَضَاهُ عَنْهُ ابْنُهُ بِعِلْمِ النَّبِيِّ، وَلَمْ يَذُمَّهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَمْ يُنْكِرْ فِعْلَهُ، بَلْ مَدَحَهُ، وَقَالَ: (مَا زَالَتْ الْمَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ) وَقَالَ لابْنِهِ جَابِرٌ: أَشَعَرْت أَنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاك، وَكَلَّمَهُ كِفَاحًا. (المغني)

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه يجوز للمدين الموسر أن يخرج إلى الجهاد بغير إذن الدائن، إذا كان الدين لم يحل بعد.

وبه قالت الحنفية، والمالكية.

قالوا: إن الدائن قبل حلول الدين لا حق له على المدين، فليس له مطالبة المدين بالدين، وإذا لم يكن له مطالبته فليس له منعه من الخروج.

لكن يجاب عن هذا: بأن الدائن وإن لم يكن له حق على المدين قبل حلول الدين، إلا أن الجهاد يقصد منه الشهادة التي تفوت بها النفس فيفوت الحق بفواتها، وهذا فيه ضرر على الدائن فلا يجوز بغير إذنه.

الخلاصة: لا يحل لمسلم أن يجاهد جهاداً تطوعياً وعليه دين لا وفاء له مالم يقم كفيلاً، أو يوثّق دينه برهن، أو يكون له وفاء وذلك لئلا يفوت حق الغير.

ثالثاً: إذْن الدائن للمدين بالجهاد إذا لم يكن متعيناً عليه والدين حال والمدين معسر؟

اختلف الفقهاء في هذه المسألة على قولين:

قيل: لا يشترط إذن الدائن لخروج المدين إلى الجهاد إذا كان معسراً ولم يتعين عليه.

وبهذا قال المالكية، والشافعية.

لقوله تعالى (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة).

قالوا: إن الله أمر بإنظار المعسر إلى حين الميسرة، فلا يجوز مطالبته قبل ذلك، وإذا لم تكن هناك مطالبة فللمدين الخروج بغير إذن الدائن.

وقيل: يشترط إذن الدائن.

وبهذا قالت الحنفية، والحنابلة.

أ- لحديث أَبِي قَتَادَةَ. عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ (أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ». فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : كَيْفَ قُلْتَ، قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ إِلاَّ الدَّيْنَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَالَ لِي ذَلِكَ) رواه مسلم.

فقول الرسول ﷺ (إلا الديْن) فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين، وأن الشهادة والجهاد وغيرهما من أعمال البر لا يكفّر حقوق الآدميين، فإذا كانت حقوقهم بهذه الأهمية فلا يجوز تعريضها للخطر بغير إذن أصحاب تلك الحقوق.

ب- لأن الجهاد تقصد منه الشهادة التي تفوت بها النفس، وبفواتها يفوت الحق، فلا يجوز بغير إذن صاحب الحق.

وهذا الراجح.

١٠- فضل برّ الوالدين، وتعظيم حقّهما، وكثرة الثواب على برّهما.

١١- تحريم السفر بغير إذن الوالدين؛ لأن الجهاد إذا منع مع فضيلته، فالسفر المباح أولى، نعم إن كان سفره لتعلم فرض عين حيث يتعيّن السفر طريقًا إليه، فلا منع، وإن كان فرض كفاية ففيه خلاف.

١٢- أن برّ الوالدين قد يكون أفضل من الجهاد.

١٣- أن المستشار يشير بالنصيحة المحضة.

١٤-أنه يؤخذ منه أن كلّ شيء يتعب النفس يسمّى جهادًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ فَقَالَ يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَتْ يَا جُرَيْجُ. فَقَالَ أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي. فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَقَالَتِ اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ. فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا فَقَالَتْ إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ – قَالَ – فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ فَلَمَّا وَلَدَتْ قَالَتْ هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ. فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ فَقَالَ مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ. فَقَالَ أَيْنَ الصَّبِيُّ فَجَاءُوا بِهِ فَقَالَ دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّىَ فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وَقَالَ يَا غُلاَمُ مَنْ أَبُوكَ قَالَ فُلاَنٌ الرَّاعِي – قَالَ – فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا نَبْنِى لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ لاَ أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ. فَفَعَلُوا.

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا. فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ. قَالَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ فَجَعَلَ يَمُصُّهَا. قَالَ وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ. وَهِىَ تَقُولُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَقَالَتْ أُمُّهُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا. فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا. فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ فَقَالَتْ حَلْقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ. فَقُلْتَ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ. فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا. فَقُلْتَ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا قَالَ إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ. وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ. وَلَمْ تَزْنِ وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا).

==========

(**لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ**) المهد فراش الرضيع .

(**إِلاَّ ثَلاَثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**) عليه السلام.

(**وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ**) ستأتي شرح قصة جريج.

(**فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً**) معبد النصارى.

(**فَأَتَتْهُ أُمُّهُ**) قال الحافظ: ولم أقف في شيء من الطرق على اسمها، وفي حديث عمران بن حصين وكانت أمه تأتيه فتناديه فيشرف عليها فيكلمها فأتته يوما وهو في صلاته، وفي رواية أبي رافع عند أحمد: فأتته أمه ذات يوم فنادته قالت أي جريج أشرف علي أكلمك أنا أمك.

(**فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاتِي**) أي: اجتمع عليّ إجابة أمي وإتمام صلاتي، فوفقني لأفضلهما.

قال القرطبي: قوله يدلّ على: أن جريجاً كان عابداً، ولم يكن عالما؟ إذ بأدنى فكرة يدرك أن صلاته كانت ندباً، وإجابة أمه كانت عليه واجبة، فلا تعارض يوجب إشكالاً، فكان يجب عليه تخفيف صلاته، أو قطعها، وإجابة أمه، لا سيما وقد تكرر مجيئها إليه، وتشوقها واحتياجها لمكالمته. وهذا كله يدلّ على تعين إجابته إياها، ألا ترى أنه أغضبها بإعراضه عنها، وإقباله على صلاته؟

(**فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ**) وفي رواية البخاري (فَدَعَتْهُ فَقَالَ أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي) وفي رواية له (فأبى أن يجيبها) وَفِي حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّهَا جَاءَتْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تُنَادِيهِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَجِ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ فَقَالَ أُمِّي وَصَلَاتِي لِرَبِّي أُوثِرُ صَلَاتِي عَلَى أُمِّي ذَكَرَهُ ثَلَاثًا.

قال الحافظ: وَكُلُّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ قَالَهُ فِي نَفْسِهِ لَا أَنَّهُ نَطَقَ بِهِ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَطَقَ بِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ لِأَنَّ الْكَلَامَ كَانَ مُبَاحًا عِنْدَهُمْ وَكَذَلِكَ كَانَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ وَقَدْ قَدَّمْتُ فِي أَوَاخِرِ الصَّلَاةِ ذِكْرَ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِيهِ رَفَعَهُ لَوْ كَانَ جُرَيْجٌ عَالِمًا لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَةَ أُمِّهِ أَوْلَى مِنْ صَلَاتِهِ.

(**فَانْصَرَفَتْ**) أي: رجعت إلى بيتها بعد أن أيست من إجابة ولدها نداءها.

(**فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتْهُ ... فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ المُومِسَاتِ**) وفي رواية البخاري (فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوه المومسات) وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَجِ (حَتَّى يَنْظُرَ فِي وُجُوهِ الْمَيَامِيسِ) وَمِثْلُهُ فِي رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ وَفِي رِوَايَةِ أَبِي رَافِعٍ (حَتَّى تُرِيَهُ الْمُومِسَةَ) بِالْإِفْرَادِ وَفِي حَدِيثِ

عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ (فَغَضِبَتْ فَقَالَتْ اللَّهُمَّ لَا يَمُوتَنَّ جُرَيْجٌ حَتَّى يَنْظُرَ فِي وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ) وَالْمُومِسَاتُ جَمْعُ مُومِسَةٍ بِضَمِّ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْوَاوِ وَكَسْرِ الْمِيمِ بَعْدَهَا مُهْمَلَةٌ وَهِيَ الزَّانِيَةُ.

(**فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيل جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ**) أي: زانية.

(**يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا**) أي: يضرب بجمالها المثَل، لانفرادها به عن نساء قومها.

(**فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ**) زاد في رواية أحمد (قالوا: قد شئنا).

(**فَتَعَرَّضَتْ لَهُ**) أي: طلبت منه أن يواقعها.

(**فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ، قَالَتْ**) أي: فلما سألها: ممن هذا الولد؟ قالت:

(**هُوَ مِنْ جُرَيج**) وفي رواية (فَقَالَتْ هُوَ مِنْ صَاحِبِ الدَّيْرِ) وَزَادَ فِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ (فَأُخِذَتْ وَكَانَ مَنْ زَنَى مِنْهُمْ قُتِلَ فَقِيلَ لَهَا مِمَّنْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ صَاحِبِ الصَّوْمَعَةِ) زَادَ الْأَعْرَجُ (نَزَلَ إِلَيَّ مِنْ صَوْمَعَتِهِ) وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَجِ (فَقِيلَ لَهَا مَنْ صَاحِبُكِ قَالَتْ جُرَيْجٌ الرَّاهِبُ نَزَلَ إِلَيَّ فَأَصَابَنِي) زَادَ أَبُو سَلَمَةَ فِي رِوَايَتِهِ (فَذَهَبُوا إِلَى الْمَلِكِ فَأَخْبَرُوهُ قَالَ أَدْرِكُوهُ فَأْتُونِي بِهِ).

(**فَأَتَوْهُ**) أي: أتاه أهل القرية.

(**فَاسْتَنْزَلُوهُ**) أي: طلبوا نزوله إليهم.

(**وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ**) وَفِي حَدِيثِ عِمْرَانَ (فَمَا شَعَرَ حَتَّى سَمِعَ بِالْفُئُوسِ فِي أَصْلِ صَوْمَعَتِهِ فَجَعَلَ يَسْأَلُهُمْ وَيْلَكُمْ مالكم فَلَمْ يُجِيبُوهُ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَخَذَ الْحَبْلَ فَتَدَلَّى).

(**فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ البَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ. قَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاؤُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّي فصلى**) أي: بعد أن توضأ، ففي رواية البخاري (فتوضأ وصلى) وفِي رِوَايَةِ وَهْبِ بْنِ جَرِيرٍ (فَقَامَ وَصَلَّى وَدَعَا) وَفِي حَدِيثِ عِمْرَانَ (قَالَ فَتَوَلَّوْا عَنِّي فَتَوَلَّوْا عَنْهُ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ).

(**فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلانٌ الرَّاعِي**) وَفِي رِوَايَةِ أَبِي رَافِعٍ (ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ قَالَ رَاعِي الضَّأْنِ) وَفِي رِوَايَتِهِ عِنْدَ أَحْمَدَ (فَوَضَعَ أُصْبَعَهُ عَلَى بَطْنِهَا) وَفِي رِوَايَةِ أَبِي سَلَمَةَ (فَأُتِيَ بِالْمَرْأَةِ وَالصَّبِيِّ وَفَمُهُ فِي ثَدْيِهَا

فَقَالَ لَهُ جُرَيْجٌ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ فَنَزَعَ الْغُلَامُ فَاهُ مِنَ الثَّدْيِ وَقَالَ: أَبِي رَاعِي الضَّأْنِ) وَفِي رِوَايَةِ الْأَعْرَجِ (فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَى مَلِكِهِمْ قَالَ جُرَيْجٌ أَيْنَ الصَّبِيُّ الَّذِي وَلَدَتْهُ فَأُتِيَ بِهِ فَقَالَ مَنْ أَبُوكَ قَالَ فُلَانٌ سَمَّى أَبَاهُ).

قال الحافظ: وَلَمْ أَقِفْ عَلَى اسْمِ الرَّاعِي.

(**فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ**) تبركاً به.

(**وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَب. قَالَ: لاَ، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعلُوا**) فِي رِوَايَةِ وَهْبِ بْنِ جَرِيرٍ (ابْنُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ) وَفِي رِوَايَةِ أَبِي رَافِعٍ (فَقَالُوا نَبْنِي مَا هَدَمْنَا مِنْ دَيْرِكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ قَالَ لَا وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ كَمَا كَانَ فَفَعَلُوا) .

(**وبَينَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ منْ أُمِّهِ**) قال الحافظ: لم أقف على اسمها، ولا على اسم ابنها.

(**فَمَرَّ رَجُلٌ**) وفي رواية أحمد (فارس متكبر).

(**رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ**) قال القرطبي: الدابة الفارهة الحسنة النجيبة.

(**وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ**) الشارة: الهيئة المزيّنة التي يشار إليها من حسنها.

(**فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَل ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ**) الصبي.

(**الثَّدْيَ**) أي: ارتضاع الثدي.

(**قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُم يَضْرِبُونَهَا**) وفي رواية (تُجَرّر ويُلعب بها).

(**ويَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ**) بكسر التاء.

(**وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ**) وفي رواية أحمد (يقولون: سرقت ولم تسرق، زنيت ولم تزن).

(**فَقَالَتْ أُمُّهُ**) أي: أم الصبي.

(**اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَل ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ ونَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مثْلَهَا، فَهُنَالِكَ**) أي: في ذلك المكان، أو في ذلك الوقت.

(**تَرَاجَعَا الحَديثَ**) قال النووي: مَعْنَى تَرَاجَعَا الْحَدِيث أَقْبَلَتْ عَلَى الرَّضِيع تُحَدِّثهُ، وَكَانَتْ أَوَّلًا لَا تَرَاهُ أَهْلًا لِلْكَلَامِ، فَلَمَّا تَكَرَّرَ مِنْهُ الْكَلَام عَلِمَتْ أَنَّهُ أَهْل لَهُ، فَسَأَلْته، وَرَاجَعْته.

(**فَقَالَتْ: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ سَرَقْتِ، فقلتُ: اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟!**) أَيْ: اللَّهُمَّ اِجْعَلْنِي سَالِمًا مِنْ الْمَعَاصِي كَمَا هِيَ سَالِمَة، وَلَيْسَ الْمُرَاد مِثْلهَا فِي النِّسْبَة إِلَى بَاطِل تَكُون مِنْهُ بَرِيئة.

(**قَالَ**) الصبي.

(**إِنَّ ذلك الرَّجُل كَانَ جَبَّارًا**) وفي رواية أحمد (فقال: يا أمتاه، أما الراكب ذو الشارة فجبار من الجبابرة).

١ – الحديث دليل على عدم الاغترار بالمظاهر.

ففي الحديث قول الطفل الرضيع عن الرجل صاحب الشارة والدابة الفارهة (اللهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ) لأنه كان جباراً ظالماً.

ومما يؤكد هذا:

ما تقدم من قوله ﷺ (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ).

وقوله ﷺ (رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّه).

وقوله ﷺ (إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُم).

٢ – أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد.

قال تعالى (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ).

وقال تعالى (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً).

٣ – قَوْله ﷺ (لَمْ يَتَكَلَّم فِي الْمَهْد إِلَّا ثَلَاثَة) فَذَكَرَهُمْ، وَلَيْسَ فِيهِمْ الصَّبِيّ الَّذِي كَانَ مَعَ الْمَرْأَة فِي حَدِيث السَّاحِر وَالرَّاهِب، وَقِصَّة أَصْحَاب الْأُخْدُود الْمَذْكُور فِي آخِر صَحِيح مُسْلِم، وَجَوَابه أَنَّ ذَلِكَ الصَّبِيّ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَهْد، بَلْ كَانَ أَكْبَر مِنْ صَاحِب الْمَهْد، وَإِنْ كَانَ صَغِيرًا. (نووي)

وقال العيني: فَإِن قلت: ظَاهر هَذَا يَقْتَضِي الْحصْر وَمَعَ هَذَا رُوِيَ عَن ابْن عَبَّاس شَاهد يُوسُف كَانَ فِي المهد قَالَه الْقُرْطُبِيّ.

وَعَن الضَّحَّاك تكلم فِي المهد أَيْضاً يحيى بن زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَام وَفِي حَدِيث صُهَيْب أَنه لما خدد الْأُخْدُود تَقَاعَسَتْ امْرَأَة عَن الْأُخْدُود فَقَالَ لَهَا صبيها وَهُوَ يرتضع مِنْهَا يَا أمه اصْبِرِي فَإِنَّك على الْحق.

(قلت): الْجَواب عَن ذَلِك بِوَجْهَيْنِ:

أَحدهمَا: أَن الثَّلَاثَة الْمَذْكُورين فِي الصَّحِيح لَيْسَ فِيهَا خلاف وَالْبَاقُونَ مُخْتَلف فيهم، وَقَالَ ابْن عَبَّاس وَعِكْرِمَة: كَانَ صَاحب يُوسُف ذَا لحية؛ وَقَالَ مُجَاهِد: الشَّاهِد هُوَ الْقَمِيص.

وَالْجَوَاب الآخر: أن النَّبِي ﷺ قَالَ ذَلِك أَولاً ثمَّ أطلعه الله على غَيرهم، وَقد يُقَال التَّنْصِيص على الشَّيْء باسمه الْعلم لَا يَقْتَضِي الْخُصُوص سَوَاء كَانَ الْمَنْصُوص عَلَيْهِ باسمه الْعدَد مَقْرُوناً أَو لم يكن. (قلت): الْخلاف فِيهِ مَشْهُور. (عمدة القارئ)

وقال القرطبي: وظاهر هذا الحصر يقتضي أن لا يوجد صغير تكلم في المهد إلا هؤلاء الثلاثة، وهم: عيسى، وصبي جريج، والصبي المتعوذ من الجبار.

وقد جاء من حديث صهيب المذكور في تفسير سورة البروج في قصة الأخدود: أن امرأة جيء بها لتلقى في النار على إيمانها ومعها صبي لها -في غير كتاب مسلم-: يرضع فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري، فإنك على الحق. وقال ابن عباس: إن شاهد يوسف كان صبياً في المهد، وقال الضحاك: تكلم في المهد ستة: شاهد يوسف، وصبي ماشطة امرأة فرعون وعيسى، ويحيى، وصاحب جريج، وصاحب الأخدود.

قلت: فأسقط الضحاك صبي الجبار، وذكر مكانه يحيى، وعلى هذا فيكون المتكلمون في المهد سبعة، فبطل الحصر بالثلاثة المذكورين في الحديث.

قلت: ويجاب عن ذلك: بأن الثلاثة المذكورين في الحديث هم الذين صح أنهم تكلموا في المهد، ولم يختلف فيهم فيما علمت، واختلف فيمن عداهم، فقيل: إنهم كانوا كبارا بحيث يتكلمون ويعقلون، وليس فيهم أصح من حديث صاحب الأخدود، ولم تسلم صحة الجميع، فيرتفع

الإشكال بأن النبي ﷺأخبر بما كان في علمه مما أوحي عليه في تلك الحال، ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بأشياء من ذلك، فأخبرنا بذلك على ما في علمه. ... (المفهم)

وقال الشيخ الألباني: لا يخالف هذا الحصر كلام صبي الأخدود الآتي في الحديث (٢٠٩٤). لأنه ليس فيه أنه كان في المهد، بل كان أكبر من صاحب المهد، وإن كان صغيراً يرضع، وأما حديث (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى وشاهد يوسف، وصاحب جريج وابن ماشطة بنت فرعون) فحديث باطل كما بينته في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) وأما ما ذكره بعضهم أن يحيى عليه السلام ممن تكلم في المهد، فمما لا أصل له مرفوعاً، وإنما هو من زعم الضحاك في تفسيره كما ذكر الحافظ في "الفتح".

تنبيه:

قصة أصحاب الأخدود فقد وردت في حديث صهيب الرومي رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، في حديث طويل، قال فيه: (فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ، فَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ. فَقَالَ الصَّبِيُّ: يَا أُمَّهْ، اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ) رواه أحمد .

وقد رواه الإمام مسلم في (صحيحه) ولكن قال فيه: (حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها) ولم يقل إنه رضيع، الأمر الذي اقتضى بالإمام النووي رحمه الله أن يقول: " ذلك الصبي لم يكن في المهد، بل كان أكبر من صاحب المهد وإن كان صغيراً.

٤ – عِظَم بِرّ الْوَالِدَيْنِ وتأكد حقها، وَأَنَّ دُعَاءَهَا مُجَاب.

٥ – أَنَّهُ إِذَا تَعَارَضَتْ الْأُمُور بُدِئَ بِأَهَمِّهَا.

قال ابن تيمية: وتمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع واجبات ويفعل محرمات.

٦ – **قال الحافظ:** وَفِي الْحَدِيثِ إِيثَارُ إِجَابَةِ الْأُمِّ عَلَى صَلَاةِ التَّطَوُّعِ لِأَنَّ الِاسْتِمْرَارَ فِيهَا نَافِلَةٌ وَإِجَابَةُ الْأُمِّ وَبِرُّهَا وَاجِبٌ.

قَالَ النَّوَوِيُّ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا دَعَتْ عَلَيْهِ فَأُجِيبَتْ لِأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُخَفِّفَ وَيُجِيبَهَا لَكِنْ لَعَلَّهُ خَشِيَ أَنْ تَدْعُوَهُ إِلَى مُفَارَقَةِ صَوْمَعَتِهِ وَالْعَوْدِ إِلَى الدُّنْيَا وَتَعَلُّقَاتِهَا كَذَا قَالَ النَّوَوِيُّ، وَفِيهِ نَظَرٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ تَأْتِيهِ فَيُكَلِّمُهَا وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ تَشْتَاقُ إِلَيْهِ فَتَزُورُهُ وَتَقْتَنِعُ بِرُؤْيَتِهِ وَتَكْلِيمِهِ وَكَأَنَّهُ إِنَّمَا لَمْ يُخَفِّفْ ثُمَّ يُجِيبُهَا لِأَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَنْقَطِعَ خُشُوعُهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَاخِرِ الصَّلَاةِ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَوْ كَانَ جُرَيْجٌ فَقِيهًا لَعَلِمَ أَنَّ إِجَابَةَ أُمِّهِ أَوْلَى مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ أَخْرَجَهُ الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ. (الفتح)

٧ – عظيم قدرة الله في إحداث الأشياء الخارقة للعادة، تأييداً لعباده الصالحين.

٨ – الظاهر أن المتعة التي كان يجدها جريج في صلاته لا تتصور، وإلا فإنه كان قادراً على أن يخفف في صلاته ويجيبها.

وصدق ربنا إذ يقول (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ) فالخشوع في الصلاة لا يتصوره إلا من عرفه، كأمثال: جريج رضي الله عنه.

٩ – غضبت الأم على ابنها فدعت عليه دعوة غريبة: دعوة فتنة في دينه بأن لا يموت حتى يرى وجوه البغايا.

وقد أخبرنا النبي ﷺ أنها لو دعت عليه بالفتنة لفتن كما جاء في رواية أخرى للحديث عند مسلم.

١٠ – أن دعاء الوالدين لأولادهم أو عليهم مستجاب، فاحرص على أن يدعوا لك بالخير، واحذر دعاءهما عليك بالشر.

وفي هذا يقول المصطفى ﷺ (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم).

١١ – أَنَّ اللَّه تَعَالَى يَجْعَل لِأَوْلِيَائِهِ مَخَارِج عِنْد اِبْتِلَائِهِمْ بِالشَّدَائِدِ غَالِبًا. قَالَ اللَّه تَعَالَى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّه يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا) وَقَدْ يَجْرِي عَلَيْهِمْ الشَّدَائِد بَعْض الْأَوْقَات زِيَادَة فِي أَحْوَالهمْ، وَتَهْذِيبًا لَهُمْ، فَيَكُون لُطْفًا.

١٢ – يبدو أن جريجاً كان معروفاً بعفته، وعدم التفاته للنساء، حتى اختارت الأم هذه الدعوة.

١٣ – قد يكون الحسد في كل شيء حتى في العبادة، فصاحب العبادة يحسده البعض على حسن خلقه، وعظيم تقواه، وكثير مدح الناس له، فيحب الحساد أن يشوهوا سمعته، كما حصل مع العابد جريج.

١٤ – ليس كل الحسن خير، فالحسن فتنة، على صاحبه أن يصونها، خصوصاً إذا كان صاحب الحسن امرأة، يقول ﷺ (مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاء) فهذه المرأة استعملت حسنها في الشر والحرام، وهي أيضا مغرورة متكبرة بجمالها حتى تباهت به للفتنة أمام القوم، بدل أن تشكر الله على هذه النعمة، وتمتع بها زوجها، راحت تبحث عن الحرام بأبشع صوره.

١٥ – اِسْتِحْبَاب الْوُضُوء لِلصَّلَاةِ عِنْد الدُّعَاء بِالْمُهِمَّاتِ.

١٦ – يحاول أهل الرذيلة تشويه صفحة الصالحين، كما حصل مع قوم جريج لأنه وقع في رواية أخرى أنها قالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قالوا: قد شئنا.

١٧ – التقوى تعصم صاحبها من الوقوع في الرذيلة، كما حصل مع جريج، وكما في قصة يوسف عليه السلام.

١٨ – أَنَّ الْوُضُوء كَانَ مَعْرُوفًا فِي شَرْع مَنْ قَبْلنَا، فَقَدْ ثَبَتَ فِي هَذَا الْحَدِيث فِي كِتَاب الْبُخَارِيّ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى، وَإِنَّمَا الَّذِي يَخْتَصُّ بِهَا الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ فِي الْآخِرَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَيْضًا مِثْلُ ذَلِكَ فِي خَبَرِ سَارَةَ مَعَ الْجَبَّارِ.

١٩ – استعملت المرأة حيلة خبيثة، حيث مكنت الراعي من نفسها فحملت، ولما ولدت ادعت أنه من جريج، وكم تقدر النساء على الإغواء لأن كيدهن عظيم، فهن يصرعن ذا اللب الحكيم، وقد كان الزنا وانتشار البغايا معروفا في بني إسرائيل، فأول ما فتنوا به النساء كما أخبرنا الصادق المصدوق عليه السلام.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ".

٢٠ – إِثْبَات كَرَامَات الْأَوْلِيَاء، وَهُوَ مَذْهَب أَهْل السُّنَّة خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ.

٢١ – أَنَّ صَاحِبَ الصِّدْقِ مَعَ اللَّهِ لَا تَضُرُّهُ الْفِتَنُ.

٢٢ – قُوَّةُ يَقِينِ جُرَيْجٍ الْمَذْكُورِ وَصِحَّةُ رَجَائِهِ لِأَنَّهُ اسْتَنْطَقَ الْمَوْلُودَ مَعَ كَوْنِ الْعَادَةِ أَنَّهُ لَا يَنْطِقُ وَلَوْلَا صِحَّةُ رَجَائِهِ بِنُطْقِهِ مَا اسْتَنْطَقَهُ.

٢٣ – بيان فضل العلم، فما وقع جريج رحمه الله فيما وقع فيه إلا بسبب تقديم النافلة على الفريضة والواجب؛ وتقديم الأهم وفقه الأولويات باب عظيم من أبواب العلم؛ وقد وجه النبي ﷺ معاذا إلى اليمن لدعوتهم وعلمه أن يبدأ بالأولى والأهم ففي الصحيحين عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى اليَمَنِ، قَالَ: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ.

٢٤ – وجوب العزلة والهجر لأهل المعاصي والذنوب إلا إذا كانت المجالسة لدعوتهم وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وإلا فمجالستهم بل رؤيتهم عقوبة، فإن أم جريج دعت عليه بأن يعاقب برؤية وجوه المياميس وهن الزواني الفاجرات المجاهرات بذلك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ » قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ « مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ) .

==========

(رغِم أنفُ) أي: لصق بالرغام وهو تراب مختلط برمل.

والمعنى: لَصِقَ أنفُ مَن أدرك أبويه بالرَّغَام وهو تراب مختلِط بالرمل، والمراد منه الذلُّ .

(**مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ**) أي : لحق حياتهما .

(**عِنْدَ الْكِبَرِ**) أي : كِبَر سنهما .

(**أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا**) أي: أدرك حياة أحدهما أو حياة كلٍّ منهما .

(**فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ**) أي: لم يخدمهما ويحسن إليهما حتى يدخل بسببهما الجنة.

والمعنى : ذلَّ وخَسِرَ مَن أدرك أبويه أو أحدهما في كِبَرِ السِّن ولم يسعَ في تحصيل مآربه والقيام بخدمته فيستوجب الجنة .

١ – الحديث دليل على فضل بر الوالدين، وعظم ثوابه، وأنه سبب في دخول الجنة.

فضائل بر الوالدين :

برهما من أسباب دخول الجنة .

لحديث الباب (رغم أنف ... مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ).

وعن مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ السَّلَمِيِّ (أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ الْغَزْوَ، وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ؟ فَقَالَ: "فَهَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ " قَالَ نَعَمْ. فَقَالَ: الْزَمْهَا. فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلَيْهَا). رواه أحمد

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (رَغِمَ أَنْفُ رِجْلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ! وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ شَهْرُ رَمَضَانَ، فَانْسَلَخَ قبل يُغْفَرَ لَهُ! وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عِنْدَهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ) رواه أحمد.

وجعل الله برهما في المرتبة التي تلي حقَّه سبحانه في التوحيد، في ثلاثة مواضع من كتابه العزيز.

فمن ذلك قوله تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وقال تعالى (وَاعْبُدُوا اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً).

وأوصى تعالى بالوالدين إحساناً.

قال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً).

قال ابن كثير: أمر الله تعالى عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسُّك بتوحيده؛ فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان. فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق.

وقال تعالى (وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ).

ولعظَمِ حقِّ الوالدين، فإن الله جلَّ شأنه قَرَنَ شكرَهُ بشكرهما .

فقال تعالى (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) .

وبرَّ الوالدين من أحب الأعمال إلى الله ، وهو مقدَّم حتى على الجهاد في سبيل الله .

عن ابن مسعود قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ قَالَ : (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا). قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ (ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ). قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ : (ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) .

وتقدم في الحديث (أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ استأذنه في الجهاد فقال: أحيٌّ والداك؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهِدْ).

وقال رجل لابن عباس : إني نذرْتُ أن أغزوَ الرُّوم، وإن أبويَّ منعاني . فقال: "أطِعْ أبويك؛ فإن الروم ستجد من يغزوها غيرك .

وبر الوالدين من صفات الأنبياء:

فجميع الرسل والأنبياء بَرَرَة بوالديهم .

وممن ذُكِر بِرُّهم في القرآن الكريم نوح، حيث قال :

(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) .

وقال إبراهيم (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) .

قال تعالى عن يحيى بن زكريا (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) .

وقال سبحانه عن عيسى ابن مريم (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) .

ومن أروع أمثلة البِرّ في تاريخ البشرية:

استجابة إسماعيل لأبيه إبراهيم –عليهما السلام، فلمَّا قال له أبوه (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى) .

فماذا كان رد ذلك الولد الصالح (قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ).

ولعظم حقهما أكرم الله مَنْ بَرَّهما بإجابة دعواته وتفريج كرباته:

ومن ذلك: حديث الثلاثة الذين انحدرت عليهم صخرة عظيمة،

فأغلقت عليهم باب الغار؛ فإن منهم رجلاً كان بَرًّا بوالديه، فتوسل بذلك العمل الصالح فاستجاب اللهُ دعاءه.

وفي بر الوالدين سعة للرزق، وطول للعمر .

قال رسول الله ﷺ (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، أَوْ يُنْسَأَ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) .

وبر الوالدين أعظم صور صلة الرحم.

٣-ولقد ضرب لنا سلف الأمة أروع الأمثلة في البر بالوالدين :

أبو هريرة :

كان إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه فقال: السلام عليكم يا أماه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام يا ولدي ورحمة الله وبركاته . فيقول: رحمك الله كما ربيتني صغيرًا، فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيرًا.

عبد الله بن مسعود :

طلبت أمه في إحدى الليالي ماء، فذهب ليجيء بالماء فلما جاء وجدها نائمة . فوقف بالماء عند رأسها حتى الصباح، فلم يوقظها خشية إزعاجها . ولم يذهب خشية أن تستيقظ فتطلب الماء فلا تجده.

ابن الحسن التميمي:

يهم بقتل عقرب، فلم يدركها حتى دخلت في جحر في المنزل، فأدخل يده خلفها وسد الحجر بأصابعه، فلدغته، فقيل له: لم فعلت ذلك؟ قال: خفت أن تخرج فتجيء إلى أمي فتلدغها.

ابن عون المزني:

نادته أمه يومًا فأجابها وقد علا صوته صوتها ليسمعها، فندم على ذلك وأعتق رقبتين.

محمد بن المنكدر :

أنه كان يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه: قومي ضعي قدمك على خدي.

قال ابن الجوزي: بلغنا عن عمر بن ذر، أنه لما مات ابنه قيل له: كيف كان بره بك؟

قال: ما مشى معي نهاراً إلا كان خلفي، ولا ليلاً إلا كان أمامي، ولا رقد على سطح أنا تحته.

الحسن بن علي :

كان الحسن بن علي لا يأكل مع أمه، وكان أبرَّ الناس بها، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف أن آكل معها، فتسبق عينها إلى شيء من الطعام وأنا لا أدري فآكله، فأكون قد عققتها.

كان طلْق بن حبيب مِن العلماء العُبَّاد، وكان يُقبِّل رأسَ أمِّه، وكان لا يمشي فوقَ ظهْر بيت وهي تحته؛ إجلالاً لها.

وقال عامرُ بن عبد الله بن الزُّبير: مات أبي، فما سألتُ الله حولاً كاملاً إلاَّ العفوَ عنه.

ورأى ابن عمر –رضي الله عنهما– رجلاً قد حمَل أمَّه على رقبته وهو يطوف

بها حولَ الكعبة، فقال: يا ابن عمر، أتراني جازيتها؟ قال، ولا بطلقةٍ واحدة مِن طلقاتِها . ولكن قد أحسنت، والله يُثيبك على القليل كثيرًا.

وقال بِشر: ما مِن رجل يقرب مِن أمه حيث يسمع كلامَها إلا كان أفضلَ من الذي يضرب بسيفه في سبيلِ الله، والنظر إليها أفضلُ مِن كلِّ شيء.

كان حيوة بن شُرَيْح يقعد في حلقته يُعلِّم الناس، فتقول له أمه:

قم يا حيوة، فألق الشعير للدجاج، فيترك حلقته، ويذهب لفعل ما أمرته أمه به.

قال لقمان الحكيم لابنه: يا بني، مَن أرضى والديه فقد أرضى الرحمنَ، ومن أسخَطهما فقد أسخَط الرحمنَ .

٤ – بر الوالدين واجب ولو في حال شبابهما، وإنما خص كبرهما بالذكر لمزيد التأكيد عليه؛ لأن حاجتهما إلى البر وقت كبرهما تكون أشد.

٥ – عقوق الوالدين من الكبائر التي يستحق بها الإنسان الطرد من رحمة الله والعذاب في النار.

٦ – ينبغي على المسلم أن يراعي الضعفاء وكبار السن ويرفق بهم ويرحمهم.

٧ – البشارة لمن بر بوالديه بدخول الجنة، خصوصًا عند كبرهما وضعفهما.

٨–**قال المناوي** –رحمه الله–كرره ثلاثًا؛ لزيادة التنفير والتحذير.

وقال الشيخ محمد الأمين الهرري –رحمه الله– (ثم رَغِمَ أَنْفُ ثم رَغِمَ أَنْفُ)كرّره تأكيدًا للأول .

٩–قوله (**عِنْدَ الْكِبَرِ**) .

قال المناوي –رحمه الله– قُيِّد به مع أن خدمة الأبوين ينبغي المحافظة عليها في كل زمن؛ لشدة احتياجهما إلى البِرِّ والخدمة في تلك الحالة.

١٠-**قال الشيخ ابن عثيمين** -رحمه الله- فالوالدان بابان من أبواب الجنة، فإذا أحسن الإنسان إلى الوالدين دعَوَا له وكان ذلك سببًا في دخوله الجنة.

١١-**قال القاضي عياض** -رحمه الله- فيه: فضل البِرّ وعظيم أجره، وأن بِرَّهما يدخله الجنة، فمَن فاته ذلك وقصَّر فيه فقد فاته خير كثير .

وقال النووي -رحمه الله- وفيه الحث على بِرّ الوالدين، وعظم ثوابه، ومعناه: أن برهما عند كِبَرِهِمَا وضعْفِهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنة، فمَن قصَّر في ذلك فاته دخول الجنة، وأَرْغَمَ الله أَنْفَهُ.

١٢-فيه البشارة لمن بَرَّ بوالديه بدخول الجنة، خصوصًا عند كِبَرِهما وضَعْفِهما .

عنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ (أَبَرُّ الْبِرّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبِيهِ) .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ (أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ فَقُلْنَا لَهُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ إِنَّهُمُ الأَعْرَابُ وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ إِنَّ أَبَا هَذَا كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ « إِنَّ أَبَرَّ الْبِرّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ) .

==========

(**لَقِيَهُ**) أي : لقي ابن عمر .

(**فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ**) ابن عمر .

(**فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ**) أي : عبد الله بن دينار .

(**فَقُلْنَا لَهُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ**) وفي الرواية الأخرى (فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك) .

(**إِنَّهُمُ الأَعْرَابُ وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ**) وفي الرواية الأخرى (أعطيت هذا الأعرابيّ حمارًا كنت تروّح عليه، وعمامة تشُدّ بها رأسك).

قوله (كنت تَرَوَّحُ عليه) **قال النووي** -رحمه الله- معناه: كان يستصحب حمارًا؛ ليستريح عليه إذا ضَجِرَ من ركوب البعير .

(**إِنَّ أَبَا هَذَا**) أي: إنما فعلت هذا؛ لأنَّ أبا هذا الأعرابيّ.

(**كَانَ وُدًّا**) قال القاضي عياض: رويناه بضّم الواو، وكسرها: أي: صديقًا من أهل مودّته، وهي محبّته. لِعُمَرَ بْنِ الْخَطاب.

(**إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ**) أي : من أبَرِ البِرِّ ، أي : أفضله وأكثره أجراً .

(**صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ**) أي: أهل محبة أبيه وصداقته، و(**وُدِّ أَبِيهِ**) بضم الواو وتشديد الدال : أي صديقه.

١ – الحديث دليل على فضل صلة أصدقاء الأب، والإحسان إليهم، وإكرامهم، وهو متضمّن لبرّ الأب، وإكرامه؛ لكونه بسببه.

وعن أبي بردة قال (أتيتُ المدينة، فأتاني عبدُ الله بن عمر فقال: هل تدري لم أتيتُك؟ قال: قلتُ: لا، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مَن أحبَّ أن يَصل أباه في قبره، فليَصِلْ إخوان أبيه بعده، وإنه كان بين أبي عمرَ وبين أبيك إخاءٌ وودٌّ، فأحببتُ أنْ أَصِلَ ذلك). رواه أبو يعلى وابن حبان

قال النوويّ رحمه الله: ويلتحق به أصدقاء الأم، والأجداد، والمشايخ، والزوج، والزوجة، وقد سبقت الأحاديث في إكرامه خلائل خديجة رضي الله عنها.

وقال ابن هبيرة –رحمه الله– فيه: إحسان الرجل إلى من بينه وبين أبيه معرفة ومَوَدَّة، وإن بَعُدَ ذلك؛ فإن ابن عمر أكرم هذا الأعرابي؛ لأن أباه كان صديقًا لعمر.

٢ – كثرة فضائل عبد الله بن عمر، فمنها شدة وفائه وحبه لأبيه، ووَصْلِ أحبائه بعد موته، واستجابته لسنة رسول الله ﷺ ، وإنفاقه من طِيب ماله، وإيثاره غيره على نفسه.

٣ – امتثال الصحابة رضي الله عنهم، ورغبتهم في الخير ومسارعتهم إليه.

٤ – من تمام بر الوالدين صِلة أصدقائهما بعد موتهما، وصورة ذلك: أنَّه إذا كان لأبيك أو أمك أحد بينهم وبينه وُدٌّ فأكرمه، كذلك إذا كان هناك نسوة صديقات لأمك؛ فأكرم هؤلاء النسوة، وإذا كان رجال أصدقاء لأبيك؛ فأكرم هؤلاء الرجال، فإن هذا من البر بهما، ويحصل بالقليل، فمن لم يجد فبالزيارة أو الكلمة الطيبة.

٥ – سعة رحمة الله –عز وجل–، حيث إنَّ البِرَّ بابه واسع لا يختص بالوالد والأم فقط؛ بل حتى أصدقاء الوالد وأصدقاء الأم، إذا أحسنت إليهم فإنَّما بررت والديك فتثاب ثواب البار بوالديه.

٦-**قال الحافظ العراقي** -رحمه الله- جعله أَبَرَّ الْبِرِّ أو من أَبَرِّهِ؛ لأن الوفاء بحقوق الوالدين والأصحاب بعد موتهم أبلغ؛ لأن الحي يجامل، والميت لا يُستحيا منه، ولا يجامل إلا بحسن العهد، ويحتمل: أن أصدقاء الأب كانوا مُكَيَّفِيْنَ في حياته بإحسانه وانقطع بموته، فأمر بنيه أن يقوموا مقامه فيه.

وإنما كان هذا أَبَرَّ الْبِرِّ لاقتضائه التَّرَحُّم والثناء على أبيه؛ فَيَصِلُ لروحه راحة بعد زوال المشاهدة المستوجبة للحياة، وذلك أشد من بِرِّهِ له في حياته، وكذا بعد غيبته؛ فإنه إذا لم يظهر له شيء يوجب ترك المودة، فكأنه حاضر، فيبقى وُدُّهُ كما كان، وكذا بعد المعاداة رجاء عود المودة، وزوال الوحشة.

ونَبَّهَ: بالأب على بقية الأصول، وقياس تقديم الشارع الأم في البِرِّ كون وصل أهل وُدَّها أقدم وأهم.

٧-فيه قُوَّة ودقة عمل ابن عمر بالسنة.

٨-وفيه أن بَرَّ أقارب الميت ينفع الميت، وقد روى أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه (أن رجلًا من بني سلمة جاء النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هل بقي عليّ من بِرِّ أَبَوَيَّ شيء أُبِرُّهُما بعد وفاتهما؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما (أي: الدعاء لهما) والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا تُوْصَل إلا بهما) .

٩-بر الوالدين بعد وفاتهما :

الاستغفار لهما .

وممن ذُكِر بِرُّهم في القرآن الكريم، نوح عليه السلام، حيث قال (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ).

وقال إبراهيم عليه السلام (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ).

وقال النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ). رواه أحمد

الدعاء لهما .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) . رواه مسلم.

فبيَّن الحديث أنَّ عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع عنه تجدد الثواب إلاَّ في هذه الأشياء الثلاثة، ومنها: دعاء الولد الصالح؛ لأنه كان سبباً في وجوده وصلاحه، وإرشاده إلى الهدى.

قضاء الدين عنهما .

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (نَفْسُ الْمُؤْمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْه) رواه الترمذي وابن ماجه.

إكرام صديقهما من بعدهما .

كما في حديث الباب .

الصدقة عنهما .

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها (أنَّ رجلًا قال للنبيِّ ﷺ : إنَّ أمِّي افتُلتَتْ نفسُها، وأظنُّها لو تكلَّمَتْ تصدَّقَتْ؛ فهل لها أجرٌ إن تصدَّقتُ عنها؟ قال: نعمْ) متفق عليه .

قال النووي : في هذا الحديث أنَّ الصَّدَقةَ عَنِ الميِّتِ تَنفَعُ الميِّتَ ويَصِلُه ثوابُها، وهو كذلك بإجماعِ العُلَماءِ .

وعن سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ﷺ (أن أُمَّه تُوُفِّيَتْ وَهْوَ غَائِبٌ عَنْهَا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ أُمِّي تُوُفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا، أَيَنْفَعُهَا شَيْءٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَنْهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: فَإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطِي الْمِخْرَافَ صَدَقَةٌ عَلَيْهَا. [الحائط المِخراف: أي: البستان المثمر، سمَّاها مِخرافاً؛ لما يُخترف منها]) رواه البخاري.

قال ابنُ تيميَّة: أمَّا الصَّدقةُ عَنِ الميِّتِ، فإنَّه يُنتَفَعُ بها باتِّفاقِ المسلمين .

وقال أيضًا: الأئمَّة اتَّفقوا على أنَّ الصَّدَقةَ تَصِلُ إلى الميِّتِ، وكذلك العباداتُ الماليَّةُ: كالعتق .

الاعتراف بفضلهما، والثناء عليهما .

عن أبي مُرَّة؛ مولى أمِّ هانئ بنت أبي طالبٍ: (أنه ركب مع أبي هريرة ﷺ إلى أرضه بـ"العقيق" فإذا دخل أرضَه صاح بأعلى صوته: السلام عليكِ ورحمة الله وبركاته يا أُمَّتاه! تقول: وعليكَ السلام ورحمة الله وبركاته. يقول: رحمكِ اللهُ؛ كما ربَّيتيني صغيراً. فتقول: يا بُنَيَّ! وأنت، فجزاك الله خيراً، ورضي عنك؛ كما بَرَرْتَني كبيراً) رواه البخاري في "الأدب المفرد".

فالاعتراف بفضل الوالدين – بعد وفاتهما – والثناء عليهما من أعظم البر.

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ : الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ) .

==========

(**عن النواس بن سمعان**) هو نواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبدالله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الكلابي ﷺ، معدود في الشاميين، كان من أصحاب الصُّفَّةِ، وسكن الشام، وأقام مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة؛ لأجل أن يتفقه في الدين، ورُوي له (١٧) حديثًا.

(**البر**) اسم جامع للخير .

(**حسن الخلق**) التحلي بالفضائل وترك الرذائل .

(**ما حاك في نفسك**) أي لم يسكن إليه القلب .

١–منزلة الحديث :

قال ابن علان –رحمه الله– والحديث من جوامع كَلِمِه، بل مِن أوجزها؛ إذ البرّ كلمة جامعة لجميع أفعال الخير، وخصال المعروف، والإثم كلمة جامعة لجميع أفعال الشرّ والقبائح كبيرها وصغيرها؛ ولذا قابَلَ بينهما.

٢–الحديث دليل على فضل حسن الخلق .

حيث جعل حسن الخلق من أعظم خصال البر.

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– فأجابه النبي ﷺ بجواب جمليٍّ أغناه به عن التفصيل، فقال له (البر: حسن الخلق) يعني: أن حسن الخلق أعظم خصال البر، كما قال (الحجُّ عرفة) ويعني بحسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرفق في المجادلة، والعدل في الأحكام، والبذل والإحسان.

وقال الصنعاني –رحمه الله– قوله (البر ...) فسّره ﷺ بحُسن الخُلق؛ لأنه جامِعٌ لكل إحسان؛ ولهذا كان يدعو به في صلواته: اللهم اهدني لأَحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت.

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– فقال (البر) أي: أعظم خصاله، أو البر كله مجملًا (حُسن الخلق) أي: مع الخَلْق، بأمر الحق، أو مُداراة الخَلْق، ومراعاة الحق.

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– (البر حسن الخلق) الجملة هذه يقولون: إنَّ التركيب يقتضي الحصر: البر حُسن الخلق، وهذا قد يُشكل في ظاهره على بعض الناس، حيث يقول: إنَّ البر حُسن الخلق، وهناك أشياء كثيرة من البر، وليست حُسن الخلق، كالصلاة والصدقة والصيام والحج، وغير ذلك.

فيقال: إنك لم تفهم مراد الرسول ﷺ به، حسن الخلق مع الله، ومع عباد الله؛ لأن الرسول لم يقيَّد، لم يَقُل: حسن الخلق مع الناس، ولكن أطلق.

حُسن الخلق مع الله: أن تتقبل أوامره بالسرور والانشراح، سواء كانت من المنهيات أو من المأمورات، لا يضيق صدرك به، هذا لا شك أنه بِرٌّ؛ لأن مَن تلقى أوامر الله بانشراح وقبول فسوف يفعله؛ لأنه مسرور بها، وفي المحارم سوف يتجنبها، فهذا صار في معاملة الله.

وفي معاملة الخلق: حُسن الخلق، بعضهم قال: هُو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه، وبعضهم قال: حُسن الخلق: أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، وهذا أجمع وأبين وأوضح .

٣– فضل حسن الخلق .

الفضل الأول : أن من خيار الناس أحسنهم خلقاً .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قَالَ (لَمْ يكن رسولُ الله ﷺ فَاحِشًا وَلاَ مُتَفَحِّشًا، وكان يَقُولُ: إنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا) متفقٌ عَلَيْهِ.

أي : الذين يحسنون معاملتهم مع الله تعالى؛ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومعاملتهم مع الناس؛ بالنصيحة في أمورهم الدينية والدنيوية، والإحسان إليهم بقدر طاقتهم، فيكون هؤلاء المذكورون أفضل الناس عنده تعالى، وأكثرهم أجرًا.

الفضل الثاني : أثقل شيء في الميزان يوم القيامة حسن الخلق .

عن أَبي الدرداءِ ﷺ: أن النبي ﷺ قَالَ (مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ العبدِ المؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ الله يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ) رواه الترمذي .

الفضيلة الثالثة : حسن الخلق من أكثر ما يدخل الناس الجنة .

عن أَبي هريرة ﷺ قَالَ (سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنْ أكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «تَقْوَى اللهِ وَحُسنُ الخُلُقِ»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: الفَمُ وَالفَرْجُ) رواه الترمذي .

لقوله ﷺ لما سئل قال : (تَقْوَى اللهِ وَحُسنُ الخُلُقِ) .

الفضيلة الرابعة : أن حسن الخلق من علامات كمال الإيمان .

عن أبي هريرة قال: قَالَ رسول الله ﷺ (أَكْمَلُ المؤمنينَ إِيمَانًا أحسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ) رواه الترمذي .

الفضيلة الخامسة : بحسن خلقه يصل المسلم درجة الصائم القائم .

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول (إِنَّ المؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ). رواه أَبُو داود

الفضيلة السادسة : أن النبي ﷺ حصر دعوته بحسن الخلق .

قال ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) رواه أحمد.

الفضيلة السابعة : وكان النبي ﷺ يدعو به.

كان ﷺ يقول في استفتاحه لصلاة الليل (واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ...).

وكان يقول (اللَّهم كما أحسنت خلْقي فحسّن خُلُقي).

الفضيلة الثامنة : الخلق الحسن من أسباب النجاة من النار.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ على كُلِّ قريب هيّن سهل) رواه الترمذي .

الفضيلة التاسعة : تكَفَّل النبي ﷺ ببيت في أعْلى الجنة لمن حسَّن خلقه.

عن أَبي أُمَامَة الباهِليّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسول الله (أَنَا زَعِيمٌ ببَيتٍ في ربَض الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ، وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَببَيْتٍ في وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَببَيْتٍ في أَعلَى الجَنَّةِ لِمَنْ حَسُنَ خُلُقُهُ) حديث صحيح، رواه أَبُو داود بإسناد صحيح.

الفضيلة العاشرة : والخلق الحسن ذو أهمية بالغة.

لأن اللَّه –عز وجل– أمر به نبيه الكريم، وأثنى عليه به، وعظّم شأنه الرسول الأمين ﷺ .

قال اللَّه تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ).

وقال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم).

الفضيلة الحادية عشرة : وأقرب الناس إلى رسول الله ﷺ صاحب الخلق الحسن.

عن جابر رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (إنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إليَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ، أَحَاسِنَكُم أَخْلاَقًا) رواه الترمذي .

الفضيلة الثانية عشرة : ويحصل بالخلق الحسن: جوامع الخيرات والبركات.

كما في حديث الباب (البر حسن الخلق) .

الفضيلة الثالثة عشرة : أمر النبي ﷺ بحسن الخلق .

عن أبي ذر جُنْدُب بنِ جُنادَةَ وأبي عبدِ الرحمانِ معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ قَالَ (اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ). رواه الترمذي

تنبيه :

قوله ﷺ (**اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ ... وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**) .

قال ابن رجب رحمه الله: قوله (وخالق الناس ...) هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرد بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله

دون حقوق عباده ... إلى أن قال: والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جداً، ولا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين.

وقال ابن القيم رحمه الله : جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله تصلح ما بين العبد وبين ربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو الناس إلى محبته .

٤-من أقوال السلف :

قال الحسن: حسن الخلق: الكرم، والبذلة، والاحتمال.

وقال ابن المبارك: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وسئل سلام بن أبي مطيع عن حسن الخلق فأنشد شعراً فقال:

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غيرُ روحهِ ... لجاد بها فليتق اللهَ سائلُه

هو البحرُ من أي النواحي أتيتَه ... فلجته المعروفُ والجودُ ساحلُه

وقال الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قال ابن القيم: حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصوّر قيام ساقِه إلا عليها: الصبر، والعفّة، والشجاعة، والعدل، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

قال الماوردي -رحمه الله-: إذا حَسُنت أخلاق الإنسان كثُر مصافوه، وقلَّ أعداؤه، فتسهَّلت عليه الأمور الصِّعاب، ولانت له القلوب الغِضاب .

٥-في الحديث بعض علامات الإثم :

أولاً : قلق القلب واضطرابه ، لقوله (والإثم ما حاك في صدرك) .

ثانياً : كراهة اطلاع الناس عليه ، لقوله (وكرهت أن يطلع عليه الناس) .

قال ابن رجب : في قوله (الإثم ما حاك في ...) إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضطراباً فلم ينشرح له الصدر ، ومع هذا فهو عند الناس مستنكر بحيث ينكرونه

عند اطلاعهم عليه ، وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه ، وهو ما استنكر الناس فاعله وغير فاعله .

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- قوله (والإثم: ما حاك في نفسك...) أي: الشيء الذي يؤثر نُفرة وحزازة في القلب، يقال: حاك الشيء في قلبي: إذا رسخ فيه وثبت، ولا يحيك هذا في قلبي، أي: لا يثبت فيه، ولا يستقر...، وإنما أحاله النبي ﷺ على هذا الإدراك القلبي؛ لِمَا عَلِمَ من جودة فهمه، وحسن قريحته، وتنوير قلبه، وأنه يدرك ذلك من نفسه..

وقال النووي -رحمه الله- ومعنى (حاكَ في صدرك) أي: تحرَّك فيه وتردَّد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشكُّ؛ خوف كونه ذنبًا. .

وقال البيضاوي -رحمه الله- (الإثم: ما حاك في صدرك) أي: أثَّر فيه، بأن أَقْلَقَهُ، ولم يطمئن له، وهذا باعتبار المؤمن المعتقد الملهِم بالحق، فلعله عليه السلام عَلِم ذلك منه (أي: من النواس رضي الله عنه).

وقال عبد الحق الدهلوي -رحمه الله- قوله (والإثم: ما حاكَ في صدرك) أي: أثَّر فيه، وأوقعك في التردد، ولم يطمئن قلبك، فإن ذلك أمارة أن في ذلك شيئًا من الإثم والكراهة .

وقال الصنعاني -رحمه الله- فيه: دليل أنَّ الله جعل في القلوب إدراكًا للذنوب، وأن الشيء الذي يَكره اطلاع الناس عليه دليل على أنه من الإثم، وهذا هو الذي يعبَّر عنه بالزَّاجر، وإليه أشار الشاعر بقوله:

لا تنته الأنفس عن غيّها ** ما لم يكن منها لها زاجرُ

وهو معنى الحديث الآخر (استَفْتِ قلبك وإنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُون) وفي معناه أحاديث .

٦-أن صاحب القلب السليم، يضطرب قلبه ويخاف عند فعل الحرام أو الشك به .

قال ابن رجب : فدل حديث وابصة (استفت قلبك ...) وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه مما سكن إليه القلب، وانشرح إليه الصدر، فهو البر والحلال، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام .

٧-قوله في حديث وابصة (واستفت قلبك) .

قال عبد الحق الدهلوي -رحمه الله- قوله ﷺ (اسْتَفْتِ قلبَك) وهذا في حق من شرح الله صدره، ونوَّر قلبه، وفيما لم يكن فيه نصٌّ من الشارع، وإجماع من العلماء، فكانت النصوص متعارضة والأقوال مختلفة، فيختار أحدها بفتوى القلب.

وقال ابن عثيمين -رحمه الله- : وهذا فيمن نفسه مطمئنة راضية بشرع الله، وأما أهل الفسوق والفجور فإنهم لا يترددون في الآثام، تجد الإنسان منهم يفعل المعصية منشرحًا بها صدره، والعياذ بالله، لا يبالي بذلك، لكن صاحبَ الخير الذي وُفق للبر هو الذي يتردد الشيء في نفسه، ولا تطمئن إليه، ويحيك في صدره، فهذا هو الإثم .

٨-أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه .

٩-أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم .

قال ابن رجب رحمه الله : وهذه مرتبة ثانية ، وهو أن يكون الشيء مستنكراً عند فاعله دون غيره وقد جعله أيضاً إثماً ، وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح صدره للإيمان ، وكان المفتي يفتي له بمجرد ظن أو ميل إلى هوى من غير دليل شرعي ، أما إذا كان فتوى المفتي تستند إلى دليل شرعي فيجب على المرء أن يتقيد بها وإن لم يطمئن قلبه ، قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

١٠-معجزة الرسول ﷺ ، حيث أخبر وابصة بما في نفسه قبل أن يتكلم به .

١١-أن الدين وازع ومراقب داخلي .

١٢-أن الدين يمنع من اقتراف الإثم .

١٣-طمأنينة القلب السليم للخير .

١٤-نفور القلب السليم من الشر .

١٥-الحياء علامة خير ، فكون الإنسان يكره اطلاع الناس على فعلٍ ما يدل غالبًا على أنه يعلم أنه خطأ.

١٦-خطر المعاصي والآثام وأنها سبب للقلق .

١٥-بلاغة النبي ﷺ .

عنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ).

[خ : ٥٩٨٩] .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَقَالَتْ هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ نَعَمْ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ بَلَى. قَالَ فَذَاكَ لَكِ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)) .

[خ : ٤٨٣٠] .

عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِم عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِع رحم) .

[خ : ٥٩٨٤] .

==========

(**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ**) أي: متمسِّكَةٌ بالعرش تتعوذُ بالله مِن قَطْعِ الرَّحِم.

(**تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي**) بالإحسان إليّ .

(**وَصَلَهُ اللَّهُ**) بصلته العظيمة التي لا يُقدَّر قدرُها، ولا مُنتهى لغايتها .

(**وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ**) الجزاء من جنس العمل .

(**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ**) أي: قضَى خلقه.

(**قَالَتِ الرَّحِمُ**) أي: القرابة، مشتقة من الرحمة، وهي عَرَض جعلها الله تعالى تقوم وتتكلم.

قال في الفتح: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَالْأَعْرَاضُ يَجُوزُ أَنْ تَتَجَسَّدَ وَتَتَكَلَّمُ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَذْفٍ أَيْ قَامَ مَلَكٌ فَتَكَلَّمَ عَلَى لِسَانِهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ ضَرْبِ الْمَثَلِ وَالِاسْتِعَارَةِ وَالْمُرَادُ تَعْظِيمُ شَأْنِهَا وَفَضْلُ وَاصِلِهَا وَإِثْمُ قَاطِعِهَا. (الفتح)

(**هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ**) أي: فقالت الرحم هذا مكان المستجير والمعتصم بك.

(**قَالَ نَعَمْ**) أي: قال الله نعم.

(**أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ**) بأن أعطف عليه، وأحسن إليه.

(**وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ**) فلا أعطف عليه.

(**قَالَتْ بَلَى يَا رَبِّ**) أي: قالت الرحم رضيت به.

(**قَالَ فَهْوَ لَكِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ**) أي: مصداق ذلك.

(**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِع رحم**) **قال النووي**: هذا الْحَدِيث يُتَأَوَّل تَأْوِيلَيْنِ سَبَقَا فِي نَظَائِره فِي كِتَاب الْإِيمَان:

أَحَدهمَا: حَمْله عَلَى مَنْ يَسْتَحِلّ الْقَطِيعَة بِلَا سَبَب وَلَا شُبْهَة مَعَ عِلْمه بِتَحْرِيمِهَا، فَهَذَا كَافِر يُخَلَّد فِي النَّار، وَلَا يَدْخُل الْجَنَّة أَبَدًا.

وَالثَّانِي: مَعْنَاهُ وَلَا يَدْخُلهَا فِي أَوَّل الْأَمْر مَعَ السَّابِقِينَ، بَلْ يُعَاقَب بِتَأَخُّرِهِ الْقَدْر الَّذِي يُرِيدهُ اللَّه تَعَالَى.

٢-هذه الأحاديث تحريم قطيعة الرحم، وأن ذلك من الكبائر، ووَعْدُ مَنْ وصلها بوصل الله، ووعيد من قطعها بقطعه .

قال النووي -رحمه الله- قال القاضي عياض: ولا خلاف أنّ صِلة الرّحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة. قال: والأحاديث في الباب تشهد لهذا.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- فصلة الأرحام واجبة، وقطعها سبب للعنة والحِرمان من دخول الجنة.

ومن الأحاديث :

عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الرحمَ شجنةٌ من الرحمنِ تقولُ: يا ربِّ إني قُطِعت، يا ربِّ إني أُسِيءَ إليَّ، يا ربِّ إني ظُلِمت يا ربِّ، يا ربِّ ، فيجيبُها ألا ترضينَ أن أصِلَ مَن وصلك وأقطعَ مَن قطعَك) رواه أحمد .

وعن عائشة . قالت : قال رسول الله ﷺ (الرَّحِمُ شِجْنَةٌ، فمن وصَلَهَا وصَلْتُه، ومن قطَعَهَا قطعْتُه) رواه البخاري .

(**شِجنة من الرحمن**) يعني: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق، شَبَّه بذلك مجازًا واتساعًا، وأصل الشجنة شُعبة من أغصان الشجرة.

قال ابن حجر -رحمه الله- قال الإسماعيلي: معنى الحديث أنَّ الرحم اشتُق اسمها من اسم الرحمن فلها به عُلْقة، وليس معناه أنها من ذات الله تعالى. انتهى .

ويدلك عليه حديثه الآخر (أنا الله وأنا الرحمن، خَلَقْتُ الرحم وشققت لها من اسمي) المعنى: الرحم أثر من آثار رحمته مشتبكة بها.

قوله (تقول : من وصلني وصله الله ...) .

قال القرطبي : ... فمقصود هذا الكلام: الإخبار بتأكد أمر صلة الرَّحِم، وأنه تعالى قد نزَّلها منزلة من قد استجار به فأجاره، وأدخله في ذمَّته وخفارته، وإذا كان كذلك فجار الله تعالى غير مخذول، وعهده غير منقوض؛ ولذلك قال مخاطبًا للرَّحِم: «أمَا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟!» وهذا كما قال ﷺ : مَن صلَّى الصبح فهو في ذِمَّة الله، فلا يطلبنَّكم الله من ذمَّتِه بشيء، فإنَّه مَنْ يطلبه من ذِمَّته بشيء يدركْه، ثم يكُبَّه على وجهه في النار .

٢-لقطيعة الرحم عقوبات:

أولاً: عدم دخول الجنة.

كما في حديث الباب (لا يدخل الجنة قاطع) .

ثانياً: حصول اللعنة.

قال تعالى (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ).

قال علي بن الحسين لولده: يا بني لا تصحبن قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواطن.

ثالثاً: عدم قبول عمل قاطع رحم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلاَ يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ). رواه أحمد

رابعاً: عقوبة قاطع الرحم تعجل في الدنيا قبل الآخرة.

عنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ) رواه الترمذي.

خامساً: قطع الرحم قطع للوصل مع الله.

كما في حديث الباب (الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله) .

وحديث (أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ قَالَتْ بَلَى. قَالَ فَذَاكَ لَكِ) .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا الرَّحْمَنُ وَأَنَا خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَاشْتَقَقْتُ لَهَا مِنَ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ) رواه أحمد.

سادساً: أن عدم صلة الرحم من الكبائر.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ (الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس). رواه البخاري

قال الصنعاني –رحمه الله– قاطع الرحم يُعجل له العقوبة بقلة المال، وعدم البركة في النّسل.

٣ – اختلف العلماء في حدّ الرحم التي يجب وصلها ويحرم قطعها إلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن حد الرحم هو: الرحِم المحرَم.

والقول الثاني: أنهم الرحم من ذوي الميراث.

والقول الثالث: أنهم الأقارب من النسب سواء كانوا يرثون أم لا.

والصحيح من أقوال أهل العلم هو القول الثالث، وهو: أن الرحم هم الأقارب من النسب – لا من الرضاع – من جهة الأب والأم.

أما أقارب الزوجة فليسوا أرحاماً للزوج ، وأقارب الزوج ليسوا أرحاماً للزوجة.

سئل الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله:

من هم الأرحام وذوو القربى حيث يقول البعض إن أقارب الزوجة ليسوا من الأرحام؟

فأجاب : الأرحام هم الأقارب من النسب من جهة أمك وأبيك، وهم المعنيون بقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال والأحزاب: (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله).

وأقربهم: الآباء والأمهات والأجداد والأولاد وأولادهم ما تناسلوا، ثم الأقرب فالأقرب من الإخوة وأولادهم، والأعمام والعمات وأولادهم، والأخوال والخالات وأولادهم، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال لما سأله سائل قائلاً: من أبر يا رسول الله؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أباك، ثم الأقرب فالأقرب) خرجه الإمام مسلم في صحيحه، والأحاديث في ذلك كثيرة.

أما أقارب الزوجة: فليسوا أرحاماً لزوجها إذا لم يكونوا من قرابته، ولكنهم أرحام لأولاده منها، وبالله التوفيق.

قال الصنعاني: وَاعْلَمْ أَنَّهُ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي حَدِّ الرَّحِمِ الَّتِي تَجِبُ صِلَتُهَا:

فَقِيلَ: هِيَ الرَّحِمُ الَّتِي يَحْرُمُ النِّكَاحُ بَيْنَهُمَا بِحَيْثُ لَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا ذَكَرًا حَرُمَ عَلَى الْآخَرِ. فَعَلَى هَذَا لَا يَدْخُلُ أَوْلَادُ الْأَعْمَامِ وَلَا أَوْلَادُ الْأَخْوَالِ. وَاحْتَجَّ هَذَا الْقَائِلُ بِتَحْرِيمِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَخَالَتِهَا فِي النِّكَاحِ لِمَا يُؤَدِّي إلَيْهِ مِنْ التَّقَاطُعِ.

وَقِيلَ هُوَ مَنْ كَانَ مُتَّصِلًا بِمِيرَاثٍ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ " ثُمَّ أَدْنَاك أَدْنَاك ".

وَقِيلَ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْآخَرِ قَرَابَةٌ سَوَاءٌ كَانَ يَرِثُهُ أَوْ لا. (سبل السلام)

قال ابن حجر –رحمه الله– الرَّحم: بفتح الراء وكسر الحاء المهملة، يطلق على الأقارب، وهم مَن بينه وبين الآخر نسب، سواء كان يرثه أَم لا، سواء كان ذا محرمٍ أم لا، وقيل: هم المحارم فقط، والأول هو المرجح؛ لأن الثاني يستلزم خروج أولاد الأعمام وأولاد الأخوال مِن ذوي الأرحام، وليس كذلك.

٥–قوله (... **أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِـــلَ مَنْ وَصَلَكِ**) .

الحديث دليل على فضل صلة الرحم، وأن من وصل رحمه وصله الله ورحمه ووسع عليه ويسر أمره، وأن من قطع رحمه قطعه الله من كل خير.

قال القرطبي: ... فمقصود هذا الكلام: الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم؟ وأنه تعالى قد نزلها منزلة من قد استجار به فأجاره، وأدخله في ذمته وخفارته، وإذا كان كذلك فجار الله تعالى غير

مخذول، وعهده غير منقوض؛ ولذلك قال مخاطبا للرحم: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟! وهذا كما قال ﷺ : من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنَّه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه، ثم يكبه على وجهه في النار.

٧-قوله (**الرحم معلقة بالعرش** ...) .

قال القاضي عياض -رحمه الله- وذِكر مَقامها وتعلُّقها هنا ضرب مثل، وحسن استعارة على مجاراة كلام العرب؛ لتعظيم شأن حقِّها، وصلة المتَّصفين بها المتواصلين بسببها، وعظم إثم مقاطعتهم وعقوقهم؛ ولذلك سَمَّى عقوقها قطعًا، وهو معنى العقوق .

وقال ابن الملك -رحمه الله : أي متمسِّكةٌ به، تتعوَّذ بالله مِن قَطْع الرحم، وهذا من باب التَّمثيل أيضًا، وفيه تنبيهٌ على منزلتها عند الله؛ حيث جعل الرَّحم متشبِّثةً بالعرش الذي هو أعظم خلق الله تعالى .

وقال الصنعاني -رحمه الله- والمراد من تعلُّقِها بالعرش قربها منه في قبول دعائها وسرعة إجابته .

٨-قال ابن الجوزي -رحمه الله- المراد من هذا الحديث: أنَّ الرَّحم كالقريب المسموع منه، المستجاب دعاؤه.

٩-الحديث دليل على أن الجزاء من جنس العمل.

وهذه قاعدة جليلة عظيمة، أدلتها من الكتاب والسنة كثيرة:

قال تعالى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ).

وقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ).

وقال تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ).

وقال ﷺ (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) رواه مسلم.

وقال ﷺ (من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) رواه مسلم.

وقال ﷺ (احفظ الله يحفظك).

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد.

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه.

وقال ﷺ (من وصل صفاً وصله الله) رواه أبو داود.

وقال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود.

وقال ﷺ (من كان له وجهان في الدنيا، كان له لسانان من نار يوم القيامة) رواه أبو داود.

عن أَنَس بْن مَالِك أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ) .

[خ : ٦٥٢٣] .

==========

(مَنْ أَحَبَّ) وفي رواية (من سره).

(أَنْ يُبْسَطَ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ) أي: يوسع.

(وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ) أن يؤخر.

(فِي أَثَرِهِ) في أجله.

١ – الحديث دليل على فضل صلة الرحم، وأنها من أسباب الرزق وطول العمر والبركة فيه.

فضائل صلة الرحم :

أولاً: سبب في زيادة العمر.

كما في حديث الباب (من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه).

وقال ﷺ (صلة الرحم، وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار) رواه أحمد.

وعند الترمذي قال ﷺ (تعلَّموا من أنسابِكم ما تصِلُون به أرحامَكم؛ فإن صِلَة الرَّحِم محبَّةٌ في الأهل، مثْرَاةٌ في المال، منسَأةٌ في الأثَر).

ثانياً: من وصلها وصله الله.

كما تقدم في الأحاديث السابقة (من وصلني وصله الله).

ثالثاً: من أسباب دخول الجنة.

عنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ ﷺ (أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ فَقَالَ الْقَوْمُ مَالَهُ مَالَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَرَبٌ مَالَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ ذَرْهَا قَالَ كَأَنَّهُ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ) متفق عليه .

وقال ﷺ (يا أيها الناس أفشوا السلام أطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) رواه الترمذي.

رابعاً: أن مما جاء به النبي ﷺ هو الدعوة إلى صلة الرحم.

كما جاء في قصة هرقل، أن هرقل قال لأبي سفيان: فماذا يأمركم به؟ قال: يقول (اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة). متفق عليه

خامساً: صلة الرحم من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر.

لقوله ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه).

سادساً: صلة الرحم فيها الاقتداء بالنبي ﷺ .

وفي قصة بدايةِ الوحي لما رجع الرسول ﷺ خائفاً قالت له زوجته خديجة (كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم).

سابعاً: أفضل الصدقة الصدقة على الأرحام.

قال ﷺ (أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح) رواه ابن خزيمة.

ثامناً: صلة الرحم من أفضل الطاعات.

عن عُقْبَة بن عامر قال: قلت يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الأَعْمَالِ. فَقَالَ (يَا عُقْبَةُ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَك) رواه حمد.

تاسعاً: صلة الرحم طاعة لله.

قال تعالى (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ).

عاشراً: شيوع المحبة والألفة بين الأقارب.

فبسببها تشيع المحبة، وبهذا يصغو عيشهم وتكثر مسراتهم.

٢- بما تكون الصلة:

صلة الرحم تكون بأمور متعددة، منها: الزيارة، والصدقة، والإحسان إليهم، وعيادة المرضى، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وغير ذلك.

قال النووي: صلة الرحم هي الإحسان إلى الأقارب على حسب الواصل والموصول؛ فتارة تكون بالمال، وتارة تكون بالخدمة، وتارة تكون بالزيارة، والسلام، وغير ذلك " انتهى.

وقال الشيخ محمد الصالح العثيمين: وصلة الأقارب بما جرى به العرف واتّبعه الناس؛ لأنه لم يبيّن في الكتاب ولا السنة نوعها ولا جنسها ولا مقدارها؛ لأن ﷺ لم يقيده بشيء معين ... بل أطلق؛ ولذلك يرجع فيها للعرف، فما جرى به العرف أنه صلة فهو الصلة، وما تعارف عليه الناس أنه قطيعة فهو قطيعة " انتهى.

وقال ابن أبي جمرة: صلة الرحم بالمال وبالعون على الحوائج ودفع الضرر وطلاقة الوجه والدعاء والمعنى الجامع إيصاله ما أمكن من خير ودفع ما أمكن من شر بقدر الطاقة.

٤-صلة الرحم من أسباب الرزق، وأسباب الرزق كثيرة :

أولاً : صلة الرحم.

لحديث الباب.

ثانياً: التوكل.

عن عُمَر ﷺ، قَالَ: سمعتُ رَسُول الله ﷺ يقول (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً) رواه الترمذي.

ثالثاً: الاستغفار والتوبة.

قال تعالى (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً).

وقال تعالى (ويَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ).

قال القرطبي: في هذه الآية والتي في هود دليل على أن الاستغفار يُستنزل به الرزق والأمطار.

رابعاً: التقوى.

قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ).

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

خامساً: التفرغ للعبادة.

عن أبي هريرة. عن النبي ﷺ قال (إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم! تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأت يدك شغلاً ولم أسد فقرك) رواه الترمذي.

سادساً: المتابعة بين الحج والعمرة.

عن عبد الله بن مسعود. قال: قال ﷺ (تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة) رواه الترمذي.

سابعاً: الإنفاق في سبيل الله تعالى.

قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ).

قال ابن كثير: أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت في الحديث.

وقال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً).

قال ابن عباس في تفسير الآية: اثنان من الله، واثنان من الشيطان (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) يقول: لا تنفق مالك وأمسكه لك فإنك تحتاج إليه (وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) (وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ) على هذه المعاصي (وَفَضْلاً) في الرزق.

ثامناً: المهاجرة في سبيل الله.

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً).

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين: أولهما: مراغماً كثيراً، وثانيهما: سعة.

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي: (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية.

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق.

٥-اختلف العلماء في المراد بزيادة العمر في قوله (وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ) مع أن الأرزاق والأعمار مكتوبة، قال تعالى (فَإِذَا جَاءَ أَجَلهمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) على أقوال :

القول الأول: أن الزيادة كناية عن البركة في العمر، بسبب توفيق صاحبه إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة.

ورجح هذا النووي، والطيبي.

قال النووي: وَأَمَّا التَّأْخِير فِي الْأَجَل فَفِيهِ سُؤَال مَشْهُور، وَهُوَ أَنَّ الْآجَال وَالْأَرْزَاق مُقَدَّرَة لَا تَزِيد وَلَا تَنْقُص (فَإِذَا جَاءَ أَجَلهمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَة وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) وَأَجَابَ الْعُلَمَاء بِأَجْوِبَةٍ الصَّحِيح مِنْهَا أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَة بِالْبَرَكَةِ فِي عُمْره، وَالتَّوْفِيق لِلطَّاعَاتِ، وَعِمَارَة أَوْقَاته بِمَا يَنْفَعهُ فِي الْآخِرَة، وَصِيَانَتهَا عَنْ الضَّيَاع فِي غَيْر ذَلِكَ.

القول الثاني: أن الزيادة الواردة في الأحاديث هي بالنسبة لعلم الملَك الموكل بالعمر، وأما ما ورد في الآيات فهو بالنسبة لعلم الله، فيكون معنى الحديث: أن التأخير يكون في أثره المكتوب في صحف الملائكة، وأما أثره المعلوم عند الله فلا تقديم ولا تأخير.

وهذا قول البيهقي، وابن تيمية، وابن حجر، والسعدي.

قال ابن تيمية: وَالْجَوَابُ الْمُحَقَّقُ: أَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ لِلْعَبْدِ أَجَلًا فِي صُحُفِ الْمَلَائِكَةِ، فَإِذَا وَصَلَ رَحِمَهُ زَادَ فِي ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ. وَإِنْ عَمِلَ مَا يُوجِبُ النَّقْصَ نَقَصَ مِنْ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ ... وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؛ فَهُوَ يَعْلَمُ مَا كَتَبَهُ لَهُ وَمَا يَزِيدُهُ إيَّاهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَالْمَلَائِكَةُ لَا عِلْمَ لَهُمْ إلَّا مَا عَلَّمَهُمْ اللَّهُ وَاَللَّهُ يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَبَعْدَ كَوْنِهَا، فَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: إنَّ الْمَحْوَ وَالْإِثْبَاتَ فِي صُحُفِ الْمَلَائِكَةِ وَأَمَّا عِلْمُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَلَا

يَخْتَلِفُ وَلَا يَبْدُو لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهِ فَلَا مَحْوَ فِيهِ وَلَا إثْبَاتَ. وَأَمَّا اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ فَهَلْ فِيهِ مَحْوٌ وَإِثْبَاتٌ عَلَى قَوْلَيْنِ. وَاَللَّهُ سُبْحَانَه.

أ- قال تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت).

قال السعدي عند تفسير الآية:

(يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ) من الأقدار (وَيُثْبِتُ) ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه وكتبه قلمه فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل ولهذا قال (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

ب- ما روي عن عدد من الصحابة أنهم كانوا يقولون في أدعيتهم: اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني من أهل السعادة.

القول الثالث: أَنَّ الْمُرَاد بَقَاء ذِكْره الْجَمِيل بَعْده، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ.

قال النووي: حَكَاهُ الْقَاضِي، وَهُوَ ضَعِيف أَوْ بَاطِل.

القول الرابع: أن المراد بالزيادة ما يكون للواصل من ذرية صالحة يدعون له بعد موته.

واختاره حافظ حكمي.

٦-أسباب البركة :

تحقيق تقوى الله تعالى، ومراقبته في السرّ والعلانية.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْض).

لن تضيقَ أرضٌ على عبدٍ اتَّقى الله، ولن يضيقَ عيشٌ على عبْدٍ عرفَ مَوْلاه (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا).

ومنها: صلةُ الأرحام.

كما في حديث الباب .

ومنها: قراءة القرآن.

قال تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ).

قال بعض السلف: لو تفرغت قلوبكم ما شبعتم من قراءة القرآن.

قال بعض العلماء: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات.

ومنها: الدعاء:

قال تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ).

طيبة: أي طائعة لله تعالى منيبة اليه.

وقال الله عنه (... فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا).

كان ﷺ يدعو للمتزوجين بالبركة. (بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير).

وكان ﷺ يؤتى بالصبيان فيدعو لهم ويبرك عليهم.

وعلمنا ﷺ أن ندعو لمن أطعمنا فنقول: "اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم".

وعلمنا أن ندعو بالبركة في طعامنا فنقول: "اللهم بارك لنا فيه".

وكان ﷺ يؤتى بِالأَطْفالِ فيَدْعُو لهم بالبركة.

وإذا أتوه بالباكورة من الثمرة دعا فيها بالبركة، فقال (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا وَفِي ثِمَارِنَا وَفِي مُدِّنَا وَفِي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنَ الْوِلْدَان).

ومنها: أخذ المال وطلبه بطيب نفس من غير شره ولا إلحاح.

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ (سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى).

فليحذر الإنسان من أن يطلب المال بطمع أو شره أو قلة توكل.

قال سعد لابنه: إياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك بالقناعة فإنها مال لا ينفد.

وقال ﷺ (وأعوذ بك من نفس لا تشبع).

وكان عمر يقول في خطبته على المنبر: إنَّ الطمع فقر، وإنَّ اليأس غنى، وإنَّ الإنسانَ إذا أَيِسَ من الشيء استغنى عنه.

ومنها: الصدق في المعاملة من بيع او شراء او غيرها.

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا).

عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى).

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ) ق.

ومنها: قضاء الأعمال والتجارات في أول النهار.

فعن صخر الغامدي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال (اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا).

قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية بعثها أول النهار، وكان صخر رجلاً تاجرًا، وكان لا يبعث غلمانه إلا من أول النهار، فكثر ماله حتى كان لا يدري أين يضع ماله.

ومنها: اتباع السنة في الطعام والشراب.

فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ (الْبَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ، فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِه).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال (أمر رسول الله ﷺ بلعق الأصابع والصحفة، وقال: إِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ البَرَكَة)

وعن وحشي رضي الله عنه: "أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع" قال: فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ؟ قالوا: نعم، قال: فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيه).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ. فَقَالَ : لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ) .

==========

(**إِنَّ لِي قَرَابَةً**) أي: ذوي قرابة.

(**أَصِلُهُمْ**) أي: أُحسن إليهم.

(**وَيَقْطَعُونِي**) أي: يقطعوا قرابتي.

(**وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ، وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ**) بإلحاق الضرر.

(**وَأَحْلُمُ عَنْهُم وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ**) أي: يعاملونني بالجهل، والجهل هنا: القبيح من القول؛ أي: يقولون قول الجهّال، من السبّ، والتقبيح.

(**تُسِفُّهُمْ**) بضم التاء وكسرِ السين المهملة وتشديد الفاءِ ، تطعمهم .

(**المَلُّ**) بفتح الميم، وتشديد اللام وَهُوَ الرَّمادُ الحَارُّ .

والمعنى : أيْ كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الحَارَّ، وَهُوَ تَشبِيهٌ لِمَا يَلْحَقَهُمْ من الإثم بما يلحَقُ آكِلَ الرَّمَادِ الحَارِّ مِنَ الأَلَمِ، وَلاَ شَيءَ عَلَى هَذَا المحْسِنِ إلَيهِمْ، لكِنْ يَنَالُهُمْ إثْمٌ عَظيمٌ بتَقْصيرِهم في حَقِّهِ، وَإِدْخَالِهِمُ الأَذَى عَلَيهِ، وَاللهُ أعلم.

١ – الحديث دليل فضل الإحسان إلى الأقارب ولو أساءوا، وأنه يصير كأنه يسفهم الملّ.

قال النووي: أيْ كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الحَارَّ، وَهُوَ تَشبِيهٌ لِمَا يَلْحَقَهُمْ من الإثم بما يلحَقُ آكِلَ الرَّمَادِ الحَارِّ مِنَ الأَلَمِ، وَلاَ شَيءَ عَلَى هَذَا المحْسِنِ إلَيهِمْ، لكِنْ يَنَالُهُمْ إثْمٌ عَظيمٌ بتَقْصيرِهم في حَقِّهِ، وَإِدْخَالِهِمُ الأَذَى عَلَيهِ، وَاللهُ أعلم .

وقال القرطبي: ومعنى ذلك: أن إحسانك إليهم مع إساءتهم لك، يتنزل في قلوبهم منزلة النار المحرقة؛ لِمَا يجدون من ألم الخزي، والفضيحة، والعار الناشئ في قلب من قابل الإحسان بالإساءة.

وقال القاضي عياض : يريد: أنك بإحسانك إليهم تُخْزِيهم وتحقرهم في أنفسهم، وتُنْكِي قلوبهم برؤيتهم حُسن فعلك معهم، وقُبح مكافأتهم، فهم من الخزي عند أنفسهم عند ذلك كمن يُرمى

في وجهه التراب والرماد المحمى، ونكاية القلوب كمن سُقي الجمر أو الرماد المحمى، أو أن ذلك الذي يأكلونه مِن رِفْدِك وإحسانك كمن يأكل ذلك، ويحرق به أحشاءه.

وقال ابن هبيرة : ... فيعني ﷺ أنك لو كنت وَصَلْتَ الواصلين منهم لكنتَ أحسنتَ، فكيف إذا وَصَلْتَ القاطعين؟! فإنك سبقت السبق البعيد، حتى أَسْفَفْتَهُم الْمَلَّ، يعني: أنك على فضلك، فإنَّ سُوء قطيعتهم يكون ما تُسِفُّهم إياه، تنزل عن درجة التراب إلى الملِّ، وهو الرماد الذي لم يبق فيه منفعة إلَّا أنه حار يُنال بجزء من العذاب.

وقال المحب الطبري -رحمه الله- ... وإنَّما معناه -والله أعلم-: أنَّ عطاءك لهم بعد قطيعتهم، وإحسانك بعد إساءتهم، وحِلْمك بعد جهلهم، يعقُب حرارة الأسف في قلوبهم على ما سلف منهم، وإنْ غلبهم سوء طَبْعِهم إلى العود إلى سوء فعلهم.

٢ - الحديث دليل على فضل من يصل أرحامه، ويُحسن إليهم، وهم يقطعونه، ويجهلون عليه؛ فإن له بذلك الأجر العظيم، والعون والنصر من الرؤوف الرحيم.

قال الله رحمه الله (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ).

وقال (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

٣ - الحث على صلة الأرحام.

٤ - معونة الله لمن يصبر ويعفو ويصفح.

٥ - ذم من يقابل الإساءة بالإحسان.

٦ - مقابلة الإساءة بالإحسان مظنة رجوع المسيء إلى الحق، كما قال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم).

٧ - ما عاقبت من عصا الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

٨ - امتثال أمر الله سبب عون الله للعبد المؤمن.

٩ - قطيعة الرحم ألم وعذاب في الدنيا، وإثم وشدة حساب في الآخرة.

١٠ - ينبغي على المسلم أن يحتسب في عمله الصالح، ولا يقطعه أذى الناس وقطيعتهم عن عادته الطيبة.

١١-**قال ابن علان** -رحمه الله-في الحديث: أن ما ذُكر من الخصال سبب لإعانة صاحبها وتأييده وتوفيقه وتسديده، فإن المعنى فيه هو التأييد الإلهي، واللطف الرباني. .

١٢-**وقال ابن علان** -رحمه الله- أيضًا : فيه تحريض على الصبر على الإيذاء، وأن الانتصار في ذلك يكون مِن الحق -سبحانه وتعالى- لمن كان كذلك.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثٍ) .

[خ : ٦٠٧٦] .

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِى يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ) .

[خ : ٦٠٧٧] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَنَافَسُوا وَلاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) .

[خ : ٦٠٦٦] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ تَهَجَّرُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا) .

==========

في هذه الأحاديث بعض الأمور التي نهى عنها النبي ﷺ :

قوله (**لا تحاسدوا**) دليل على تحريم الحسد.

قال ابن رجب: قوله ﷺ (لا تحاسدوا) يعني: لا يحسُدْ بعضُكم بعضاً، والحسدُ مركوزٌ في طباع البشر، وهو أنَّ الإنسان يكرهُ أن يفوقَهُ أحدٌ منْ جنسهِ في شيءٍ من الفضائل.

وهو كان ذنبَ إبليس حيث حسدَ آدم عليه السلام لما رآه قد فاق على الملائكة بأنْ خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكتَه، وعلَّمه أسماء كلِّ شيءٍ، وأسكنه في جواره، فما زال يسعى في إخراجه من الجنَّة حتَّى أخرج منها، ويروى عن ابن عمرَ أنَّ إبليسَ قال لنوح: اثنتان بهما أُهلك بني آدم: الحسد، وبالحسد لُعِنتُ وجُعلتُ شيطاناً رجيماً، والحرص وبالحرص أُبيح آدمُ الجنةَ كلَّها، فأصبتُ حاجتي منه بالحرص. خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا.

وقد وصف الله اليهودَ بالحسد في مواضع من كتابه القرآن، كقوله تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ).

وقوله (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ). (جامع العلوم)

-والحسد: تمني زوال نعمة الله عن الغير، سواء تمنى كونها له أو لغيره، أو مجرد زوالها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحسد كراهة نعمة الله على الغير.

والحسد له مخاطر:

فهو من صفات اليهود.

كما قال تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ).

وقال تعالى (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ).

قال الرازي: ... ووصفهم (أي: اليهود) في هذه الآية بالبخل والحسد، فالبخل هو أن لا يدفع لأحد شيئاً مما آتاه الله من النعمة، والحسد هو أن يتمنى أن لا يعطي الله غيره شيئاً من النعم، فالبخل والحسد يشتركان في أن صاحبه يريد منع النعمة من الغير، فأما البخيل فيمنع نعمة نفسه عن الغير، وأما الحاسد فيريد أن يمنع نعمة الله من عبادة.

وهو من الإيذاء والتعدي على المسلم.

قال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً).

ونهى النبي ﷺ نهى عنه.

كما في حديث الباب (ولا تحاسدوا، ولا تدابروا).

أنه اعتراض على قضاء الله وقدره.

كما قال تعالى (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ).

وأهل الجنة لا يدخلون الجنة حتى تطهر قلوبهم من الغل والحسد .

قال تعالى (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا).

هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة، أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغلّ على بعضهم بعضاً، حتى تصفو قلوبهم ويودّ بعضهم بعضاً، فإن الغلّ لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر.

قيل: حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

وقيل: قال ابن عطية: هذا إخبار من الله عز وجل أنه ينقي قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد، وذلك أن صاحب الغل متعذب به ولا عذاب في الجنة.

وهو أول ذنب عصي به الله.

وقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ، يَعْنِي حَسَدَ إِبْلِيسَ لِآدَمَ عليه السلام وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، يَعْنِي حَسَدَ ابْنِ آدَمَ لِأَخِيهِ حَتَّى قَتَلَهُ.

وطهارة القلب منه من علامة كمال الإيمان.

فقد سئل رسول الله ﷺ أي المؤمنين أفضل؟ قال (المؤمن النقي القلب، ليس فيه غل ولا حسد).

رواه ابن ماجه

وأثنى الله على الأنصار بذلك.

قال تعالى (وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أوتوا).

قال ابن القيم: الحسد ثلاث مراتب:

أحدها: أن يحسد ويقوم بمقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم.

والثاني: تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس، ولا يسود أبداً، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً إلا قهراً.

والثالث: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون).

وفي الصحيح قال ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلمها الناس) فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما.

وقال ابن رجب: ثم ينقسم الناس [أي في الحسد] بعدَ هذا إلى أقسام، فمنهم من يسعى في زوال نعمةِ المحسودِ بالبغي عليه بالقول والفعل، ثمَّ منهم من يسعى في نقلِ ذلك إلى نفسه، ومنهم من يَسعى في إزالته عن المحسودِ فقط من غيرِ نقل إلى نفسه، وهو شرُّهما وأخبثهما، وهذا هو الحسدُ المذمومُ المنهيُّ عنه.

وقسم آخر من الناسِ إذا حسدَ غيره، لم يعمل بمقتضى حسده، ولم يبغِ على المحسود بقولٍ ولا فعلٍ. وقد رُوي عن الحسن أنَّه لا يأثمُ بذلك، وروي مرفوعاً من وجوه ضعيفة، وهذا على نوعين:

أحدهما: أنْ لا يمكنه إزالةُ الحسدِ من نفسِه، فيكون مغلوباً على ذَلِكَ، فلا يأثمُ به.

والثاني: من يُحدِّثُ نفسَه بذلك اختياراً، ويُعيده ويُبديه في نفسه مُستروِحاً إلى تمنِّي زوالِ نعمة أخيه، فهذا شبيهٌ بالعزم المصمِّم على المعصية، وفي العقاب على ذلك اختلافٌ بين العلماء، وربما يُذكر في موضعٍ آخر إنْ شاء الله تعالى، لكن هذا يَبعُدُ أن يَسلَمَ من البغي على المحسود، ولو بالقول، فيأثم بذلك.

وقسم آخر إذا حسد لم يتمنَّ زوال نعمة المحسود، بل يسعى في اكتساب مثل فضائله، ويتمنَّى أنْ يكونَ مثله، فإن كانتِ الفضائلُ دنيويَّةً، فلا خيرَ في ذلك، كما قال الَّذينَ يُريدُونَ الحياةَ الدُّنيا (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) وإنْ كانت فضائلَ دينيَّةً، فهو حسن، وقد تمنَّى النَّبيُّ ﷺ الشَّهادة في سبيل الله –عز وجل– وفي الصحيحين عنه ﷺ قال (لا حسدَ إلاَّ في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالاً، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النَّهار، ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآن، فهو يقومُ به آناء اللَّيل وآناءَ النَّهار) وهذا هو الغبطة، وسماه حسداً من باب الاستعارة.

وقسم آخر إذا وجدَ من نفسه الحسدَ سعى في إزالته، وفي الإحسان إلى المحسود بإسداءِ الإحسان إليه، والدُّعاء له، ونشر فضائله، وفي إزالة ما وَجَدَ له في نفسه مِنَ الحسدِ حتّى يبدلَه بمحبَّة أنْ يكونَ أخوه المسلمُ خيراً منه وأفضلَ، وهذا مِنْ أعلى درجات الإيمان، وصاحبه هو المؤمنُ الكاملُ الذي يُحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، وقد سبق الكلام على هذا في تفسير حديث (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). (ابن رجب)

–من أقوال السلف في الحسد:

قال علي: الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له.

وقيل: الحسود غضبان على القدر.

ويقال: ثلاثة لا يهنأ لصاحبها عيش: الحقد، والحسد، وسوء الخلق.

وقال أعرابي: الحسد داء منصف، يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، قاتل الله الحسد ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله.

وقيل لبعضهم: ما بال فلان يبغضك؟ قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد.

قال الأصمعي: رأيت أعرابياً أتى عليه مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك. فقال: تركتُ الحسد فبقيت.

وقال معاوية: كل إنسان أقدر على أن أرضيه، إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: غم دائم ونفس متتابع.

وقيل رأى موسى عليه السلام، رجلاً عند العرش فغبطه، فقال: ما صفته؟ فقيل: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ، يَعْنِي حَسَدَ إِبْلِيسَ لِآدَمَ عليه السلام وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، يَعْنِي حَسَدَ ابْنِ آدَمَ لِأَخِيهِ حَتَّى قَتَلَهُ.

وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ: لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِنْ الْحَسَدِ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَحْسُودِ.

وقال لابنه: يا بني! إياك والحسد، فإنه يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك.

وعن سفيان بن دينار قال: قلت لأبي بشر: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيراً، قال: قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم.

وقيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: لا أم لك، أنسيت إخوة يوسف، لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه.

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار.

قال الشاعر:

كل العداواة قد تُرجَى إماتتها ... إلا عداوةَ من عاداك من حسدِ.

وقال الخليل بن أحمد: لا شيء أشبه بالمظلوم من الحاسد.

وقال بعض الحكماء: كل أحد يمكن أن ترضيه إلا الحاسد، فانه لا يرضيه إلا زوال نعمتك.

وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً، يقول: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد، حزن لازم، ونفس دائم، وعقل هائم، وحسرة لا تنقضي.

وقال عون بن عبد الله: إياك والكبْر، فإن أول ذنب عصيَ الله به ثم قرأ (وإذ قلنا للملائكة ...) وإياك والحرص، فإنه أخرج آدم من الجنة ثم قرأ (اهبطوا منها) وإياك والحسد، فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق).

قال عبد الله بن مسعود: لا تُعادُوا نِعم الله، قيل له: ومَن يعادي نِعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

يقول الله تعالى في بعض الكتب: الحسود عدوّ نعمتي، متسخط لقضائي، غيرُ راضٍ بقسمتي.

ولمنصور الفقيه: ألاَ قُلْ لمن ظَلّ لي حاسداً ... أتدرِي على مَن أسأتَ الأدَبْ.

أسأتَ على اللَّه في حكمه ... إذا أنتَ لم ترض لي ما وَهَبْ.

ولقد أحسن من قال:

اصبر على حسدِ الحسود ... فإن صـبرك قـاتلُه

فالنـار تــأكل بعضــها ... إن لم تجد ما تأكُله

-قال بعض العلماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه:

أولها: قد أبغض كل نعمة قد ظهرت على غيره، والثاني: سخط لقسمته كأنه يقول لربه: لم قسمت هكذا؟، والثالث: أنه ضن بفضله، يعني أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله، والرابع: خذل ولي الله، لأنه يريد خذلانه وزوال النعمة عنه، والخامس: أعان عدوه يعني إبليس لعنه الله.

وقال بعض الحكماء: الحاسدُ يضرُّ نفسه ثلاث مضرات:

إحداها: اكتساب الذنوب؛ لأن الحسد حرام. الثانية: سوء الأدب مع الله تعالى فإنَّ حقيقة الحسد: كراهية إنعام الله على غيره، واعتراض على الله في فعله. الثالثة: تألم قلبه وكثرة همه وغمه.

قوله (لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ ...) وقوله (وَلاَ تَدَابَرُوا)

والتدابر : أنْ يُعْرِضَ عَنِ الإنْسَان ويَهْجُرَهُ وَيَجْعَلهُ كَالشَيءِ الَّذِي وَرَاء الظَّهْر وَالدُّبُر.

دليل على تحريم الهجر .

خطورة الهجر :

فهو حرام.

لحديث الباب (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث).

خطر من هجر أخاه سنة.

قال ﷺ (من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه) رواه أبو داود.

وأن التهاجر والتقاطع يفرح الشيطان.

قال ﷺ (إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت).

وقال ﷺ (إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم) رواه مسلم.

ولا ترفع أعمال المتهاجرين.

قال ﷺ (تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا) رواه مسلم.

ومعرفة فضل من بدأ منهما بالسلام.

قال ﷺ (وخيرهما الذي يبدأ بالسلام).

فائدة:

والهجر لا يجوز مطلقاً في الأمور الدنيوية، أما لأجل الدين فيجوز إذا كان لمصلحة وفيه منفعة، وقد هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا، وأمر بهجرهم.

قوله (ولاَ تَبَاغَضُوا) .

فيه تحريم التباغض.

قال ابن رجب: نهى المسلمين عَنِ التَّباغض بينهم في غير الله، بل على أهواءِ النُّفوسِ، فإنَّ المسلمينَ جعلهمُ الله إخوةً، والإخوةُ يتحابُّونَ بينهم، ولا يتباغضون، وقال النَّبيُّ ﷺ (والذي نفسي بيده، لا تدخُلُوا الجنَّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، ألا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلام بينكم) خرَّجه مسلم.

وقد حرَّم الله على المؤمنين ما يُوقع بينهم العداوة والبغضاء .

كما قال (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون).

وامتنَّ على عباده بالتَّأليف بين قلوبهم، كما قال تعالى (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً).

وقال (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ).

ولهذا المعنى حرم المشي بالنَّميمة، لما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء، ورُخِّصَ في الكذب في الإصلاح بين النَّاس، ورغَّب الله في الإصلاح بينهم، كما قال تعالى (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً).

وخرَّج الإمام أحمد وأبو داود والترمذيُّ من حديث أبي الدرداء، عن النَّبيِّ ﷺ قال (ألا أخبركم بأفضلَ مِنْ درجة الصلاة والصيام والصَّدقة؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال (صلاحُ ذاتِ البينِ؛ فإنَّ فسادَ ذات البين هي الحالِقةُ).

وأمَّا البغض في الله، فهو من أوثق عرى الإيمان، وليس داخلاً في النَّهي.

قوله (وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ..) .

فيه تحريم بيع المسلم على أخيه المسلم.

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (لا يبيع الرجل على بيع أخيه ..) متفق عليه.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ (لا يبع بعضكم على بيع بعض) رواه مسلم.

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال (المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه) رواه مسلم.

مثاله:

أن يشتري شخص من إنسان سلعة بـ (١٠) ثم يأتيه آخر ويقول: أعطيك مثلها بـ (٩) أو يقول أعطيك أحسن منها بـ (١٠).

ومثل البيع الشراء:

مثال: علمتُ أن زيداً باع على عمرو بيته بـ (١٠٠) فذهبت إلى زيد وقلت له: أنت بعت بيتك على عمرو بـ (١٠٠) أنا سأعطيك (١٢٠).

الحكمة من النهي:

حصول التحاسد والتباغض.

هل يجوز البيع على بيع الكافر؟

فيه قولان للعلماء، أرجحها أنه لا يجوز، وأما قول الرسول ﷺ (لا يبع المسلم على بيع المسلم) إنما هو بناء على الأغلب.

مثال: اشترى مسلم من كافر سلعة، فلا يجوز أن يذهب البائع المسلم ويقول له: أنا أعطيك السلعة بأقل.

قوله (ولا تناجشوا) .

فيه تحريم النجش .

وهو أن يزيد في السلعة وهو لا يريد شراءها.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لا تَلَقَّوْا الرُّكْبَانَ، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ. وَلا تَنَاجَشُوا. وَلا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ...) متفق عليه

وعن ابن عمر. قال (نهى رسول الله ﷺ عن النجش). متفق عليه

ما هدف الناجش؟

١ – أن ينفع البائع.

٢ – أن يضر المشتري.

٣ – أو الأمرين جميعاً.

٤ – أو مجرد العبث.

لو وقع البيع فإن البيع صحيح عند أكثر العلماء.

لأن المنهي عنه هو الفعل لا العقد.

من وقع عليه النجش فإن له الخيار إذا زاد الثمن عن العادة.

الخيار بين: أن يرد السلعة ويأخذ الثمن (الفسخ) أو يبقيها بثمنها الذي استقر عليه العقد.

مسألة: قال العلماء: يستثنى من ذلك مسألتان:

المسألة الأولى: مسألة المزايدة: وهي أن يعرض البائع سلعته في السوق، ويتزايد المشترون فيها، فتباع لمن يدفع الأكثر، وهو المعروف بـ (بيع المزاد العلني) (الحراج).

لأن السلعة معروضة للزيادة، ولأن البائع لم يركن لمشترٍ معين.

بيع المناقصة: كأن تقول مؤسسة نريد عشر سيارات، ولا يذكرون السعر، تأتي شركة تقول عندي سيارات بـ (١٠٠) وتقول شركة ثانية نفس السيارات ٩٠.

لأن أصل الشركة لما نزلت المناقصة تريد أقل ما يكون من الأسعار

قوله (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ) .

فيه تحريم ظن السوء.

أي: باعدوا أنفسكم عن ظنّ السوء.

قال الصنعاني : وإنما كان الظنُّ أكذب الحديث، لأنَّ الكذب مخالفة الواقع من غير استناد إلى أمارة، وقبحه ظاهر لا يحتاج إلى إظهاره، وأما الظن فيزعم صاحبه أنه استند إلى شيء، فيخفى على السامع كونه كاذبًا بحسب الغالب، فكان أكذب الحديث، والحديث وارد في حقِّ من لم يظهر منه شتم ولا فحش ولا فجور. انتهى

والظن الذي أمرنا باجتنابه هو بمعنى التهمة التي لا يعرف لها إمارات صحيحة ولا أسباب ظاهرة لا سيما إن كان المظنون به من أهل الأمانة ظاهراً والستر والصلاح، وهو – أي الظن – بهذا الاعتبار حرام لهذه الآية.

قال النووي: المراد النهي عن ظن السوء.

فسوء الظن هو: هو عدم الثقة بمن هو لها أهل.

قال ابن القيم: سوء الظن: هو امتلاء القلب بالظنون السيئة بالناس حتى يطفح على اللسان والجوارح.

وقال ابن كثير: سوء الظن هو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله.

وقال القرطبيّ رحمه الله: الظن هنا هو التهمة، ومحلّ التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها، كمن يتّهم شخصًا بالفاحشة، أو بشرب الخمر، ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك.

ودليل كون الظنّ هنا بمعنى التهمة قوله بعد هذا: "ولا تجسّسوا، ولا تحسّسوا"، وذلك أنَّه قد يقع له خاطر التهمة ابتداءً، فيريد أن يتجسّس خبر ذلك، ويبحث عنه، ويتبصّر، ويتسمّع؛ ليحقق ما وقع له من تلك التهمة، فنهى النبيّ ﷺ عن ذلك، وقد جاء في بعض الأحاديث: "إذا ظننت فلا تُحقّق"، وقال الله تعالى (وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) وذلك أن المنافقين تطيّروا برسول الله ﷺ وبأصحابه حين انصرفوا إلى الحديبية، فقالوا: إن محمّدًا وأصحابه أكلة رأس، ولن يرجعوا إليكم أبدًا، فذلك ظنّهم السيّئ الذي وبّخهم الله تعالى عليه، وهو من نوع ما نَهَى الشرع عنه، إلا أنَّه أقبح النوع. (المفهم)

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا).

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب من الناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً فليجتنب كثيراً منه احتياطاً.

وقوله (إن بعض الظن إثم) وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي ويفعل ما لا ينبغي.

ومن الأدلة على تحريمه:

قوله ﷺ (يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته).

وسوء الظن سبب في وجود الأحقاد والعداوة:

فإن الظن السيئ: يزرع الشقاق بين المسلمين، ويقطع حبال الأخوة، ويمزق وشائج المحبة، ويزرع العداء والبغضاء والشحناء.

قال ابن القيم: أما سوء الظن فهو امتلاء قلبه بالظنون السيئة بالناس، حتى يطفح على لسانه وجوارحه فهم معه أبدًا في الهمز واللمز والطعن والعيب والبغض، يبغضهم ويبغضونه ويلعنهم ويلعنونه ويحذرهم ويحذرون منه ... ويلحقه أذاهم .. خارج منهم مع الغش والدغل والبغض.

قال الغزالي: من ثمرات سوء الظن التجسس، فإنَّ القلب لا يقنع بالظنِّ، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضًا منهي عنه، قال الله تعالى (وَلا تَجَسَّسُوا) فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهي عنه في آية واحدة، ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر؛ حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه كان أسلم لقلبه ودينه.

وهو سبب للمشكلات العائلية.

فمن أسباب المشاكل العائلية سوء الظن من أحدهما وغضبه قبل التذكر والتثبت؛ فيقع النزاع وربما حصل فراق، ثم تبين الأمر خلاف الظن.

قال ابن القيم: الغيرة مذمومة منها غيرة يحمل عليها سوء الظن، فيؤذى بها المحب محبوبه، ويغري عليه قلبه بالغضب، وهذه الغيرة يكرهها الله إذا كانت في غير ريبة، ومنها غيرة تحمله على عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقه.

وهو سبب في إضعاف الثقة بين المؤمنين.

فتنزع الثقة بين أفراد المجتمع المسلم.

وهو سبب في مرض القلب، وعلامة على خبث الباطن.

قال الغزالي: مهما رأيت إنسانًا يسيء الظن بالناس طالبًا للعيوب، فاعلم أنه خبيث الباطن وأنَّ ذلك خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق.

ويسبب عدم الثقة بالآخرين:

قال الزمخشري: قيل لعالم: من أسوأ الناس حالًا؟ قال: من لا يثق بأحد لسوء ظنَّه، ولا يثق به أحد لسوء فعله.

- من أقوال السلف في سوء الظن:

قال الغزالي: سوء الظن غيبة بالقلب.

وقال الخطابي: الظن منشأ أكثر الكذب.

وقال إسماعيل بن أمية: ثلاث لا يعجزن ابن آدم الطيرة وسوء الظن والحسد قال فينجيك من الطيرة ألا تعمل بها وينجيك من سوء الظن ألا تتكلم به وينجيك من الحسد ألا تبغي أخاك سوءاً.

وقال الحارث المحاسبي: احم القلب عن سوء الظن بحسن التأويل.

وقال المهلب: التباغض والتحاسد أصلهما سوء الظن، وذلك أن المباغض والمحاسد يتأول أفعال من يبغضه ويحسده على أسوأ التأويل.

وقوله (اجتنبوا كثيراً من الظن) ولم يقل كل الظن، لأن ظن السوء ممن قامت القرينة على أنه أهل لذلك فهذا لا حرج على الإنسان أن يظن السوء به.

ومن أسباب سوء الظن:

أولاً: سوء النية وخبث الطوية.

كأن ينشأ تنشئة غير صالحة.

ثانياً: اتباع الهوى.

ذلك أن الإنسان إذا اتبع هواه حتى صار الهوى إلهه الذي يعبده من دون الله، فإنه يقع لا محالة في الظنون الكاذبة التي لا دليل عليها ولا حجة.

كما قال تعالى: (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ).

ومن أعظم آثار وعواقب سوء الظن:

الفرقة وتمزيق الصف.

ذلك أن شيوع سوء الظن يؤدي إلى أن يتراشق الناس بالتهم ثم يسحبون الثقة من بعض.

فيتباغضون ويتدابرون ويتقاطعون، وهذا سبب للفشل والتخلف.

• أمر الله تعالى باجتناب كثير من الظن، لأن بعض الظن إثم، وأتبع ذلك بالنهي عن التجسس، إشارة إلى أن التجسس لا يقع في الغالب إلا بسبب سوء الظن.

• أمر المسلم – في الأصل – قائم على الستر وحسن الظن به، ولذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بحسن الظن عند سماعهم القدح في إخوانهم المسلمين، بل وشدد النكير على من تكلم بما سمع من قدح في إخوانه.

ففي حادثة الإفك، عند ما قيل ما قيل، بين الله عز وجل الموقف الصحيح الذي ينبغي لكل مسلم أن يقفه فقال: (لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) ثم بين تعالى أن التفلظ بهذا الكلام ونقله أمر عظيم، فقال سبحانه: (إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ. وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)، ثم وعظنا الله عز وجل أن نعود إلى الوقوع في مثل هذا الذنب العظيم فقال: (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ).

• الظن الذي أمرنا باجتنابه هو بمعنى التهمة التي لا يعرف لها إمارات صحيحة ولا أسباب ظاهرة لا سيما إن كان المظنون به من أهل الأمانة ظاهراً والستر والصلاح، وهو – أي الظن – بهذا الاعتبار حرام لهذه الآية.

قوله (**وَلاَ تَحَسَّسُوا وَلاَ تَجَسَّسُوا**) فيه النهي عن التجسس والتحسس .

قال ابن كثير: (ولا تجسسوا) أي على بعضكم بعضاً، والتجسس غالباً يطلق على الشر، ومنه الجاسوس

ومما يدل على تحريمه:

قوله (ولا تجسسوا ولا تحسسوا).

والفرق بين الكلمتين (وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا).

قال النووي: الأول بالحاء، والثاني بالجيم، قال بعض العلماء: التحسس بالحاء: الاستماع لحديث القوم، وبالجيم: البحث عن العورات، وقيل: بالجيم التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشرّ، والجاسوس صاحب سرّ الشرّ، والناموس صاحب سرّ الخير، وقيل: بالجيم أن تَطلبه لغيرك، وبالحاء أن تطلبه لنفسك، قاله ثعلب، وقيل: هما بمعنًى، وهو طلب معرفة الأخبار الغائبة، والأحوال.

ويُستثنى من النهي عن التجسس : ما لو تعيَّن طريقًا إلى إنقاذ نفس من الهلاك مثلًا، كأن يخبر ثقةٌ بأن فلانًا خلا بشخص ليقتله ظلمًا، أو بامرأة ليزني بها، فيشرع في هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك؛ حَذَرًا من فوات استدراكه، نَقَله النوويّ عن "الأحكام السلطانية" للماورديّ، واستجاده، وأن كلامه ليس للمحتسِب أن يبحث عما لم يظهر من المحرّمات، ولو غلب على الظنّ استسرار أهلَها بها، إلا هذه الصورة. (الفتح)

قوله (وَلاَ تَنَافَسُوا) .

فيه النهي عن المنافسة في الدنيا .

قال ابن عبد البر رحمه الله : قوله (ولا تَنَافَسُوا) الْمُرَادُ بِهِ التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا، وَمَعْنَاهُ طَلَبُ الظُّهُورِ فِيهَا عَلَى أَصْحَابِهَا ، وَالتَّكَبُّرُ عَلَيْهِمْ ، وَمُنَافَسَتُهُمْ فِي رِيَاسَتِهِمْ ، وَالْبَغْيُ عَلَيْهِمْ ، وَحَسَدُهُمْ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْهَا.

وَأَمَّا التَّنَافُسُ وَالْحَسَدُ عَلَى الْخَيْرِ ، وَطُرُقِ الْبِرِّ : فَلَيْسَ مِنْ هَذَا فِي شَيْء .

فإذا أدت المنافسة إلى محرم ، أو شغلت عن واجب : فهي حرام منهي عنها.

وقد روى البخاري ومسلم عن عَمْرَو بْن عَوْفٍ الأَنْصَارِيّ ﷺ عن النَّبِيّ ﷺ أنه قال : (وَاللَّهِ لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ) .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : التَّنَافُسُ مِنَ الْمُنَافَسَةِ ، وَهِيَ الرَّغْبَةُ فِي الشَّيْءِ وَمَحَبَّةُ الِانْفِرَادِ بِهِ وَالْمُغَالَبَةُ عَلَيْهِ ، وَأَصْلُهَا مِنَ الشَّيْءِ النَّفِيسِ فِي نَوْعِهِ .

قَوْلُهُ (فَتُهْلِكَكُمْ) أَيْ لِأَنَّ الْمَالَ مَرْغُوبٌ فِيهِ، فَتَرْتَاحُ النَّفْسُ لِطَلَبِهِ فَتُمْنَعُ مِنْهُ، فَتَقَعُ الْعَدَاوَةُ الْمُقْتَضِيَة للمقاتلة، المفضية إِلَى الْهَلَاك، قَالَ ابن بَطَّالٍ: فِيهِ أَنَّ زَهْرَةَ الدُّنْيَا يَنْبَغِي لِمَنْ فُتِحَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ سُوءِ عَاقِبَتِهَا، وَشَرِّ فِتْنَتِهَا، فَلَا يَطْمَئِنُّ إِلَى زُخْرُفِهَا وَلَا يُنَافِسُ غَيْرَهُ فِيهَا. (الفتح)

ولذلك قالوا: من ينافسك في الدنيا فادفعها في نحره.

وإنما التنافس الذي ينبغي أن يكون في ابتغاء رضوان الله تبارك وتعالى، وهو الذي قيل فيه (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ) وقيل فيه (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ) وقيل فيه (أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ).

فالمسابقة والمنافسة إنما تكون في أعمال الآخرة؛ لأن نعيمها عظيم كبير دائم، أما نعيم في الدنيا فهو نعيم مكدر سريع الفناء، إن بقيت أنت له لم يبق لك، وإن بقي لك لم تبق، وكل ما له نهاية فهو قليل.

-الفرق بين التنافس المذموم والتنافس المحمود :

- التنافس المذموم (الدنيوي) :

هو المغالبة والتسابق على حطام الدنيا الزائل، والمفاخرة بجمع المال والجاه والشهرة؛ لأن الدنيا ضيقة، فإذا تسابق الناس عليها وقع بينهم الشح والخصام والتحاسد، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك في موضع آخر فقال: فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ .

والتنافس المحمود (الأخروي):

هو المسابقة في طاعة الله، وفعل الخيرات، والتقرب بالأعمال الصالحة، ونيل درجات الجنة؛ فهذا مأمور به وممدوح شرعاً ، لقوله تعالى: وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ، وقوله سبحانه: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .

وجاء النهي عن التنافس الدنيوي سداً لأبواب الشرور بين المسلمين؛ فالتنافس في الدنيا غالباً ما يورث الحسد والضغينة، ويؤدي إلى قطيعة الأرحام وتفكك الروابط الأخوية، ويشغل القلب عن الاستعداد للآخرة .

قوله (وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً) .

قال الحافظ: هذه الجملة تشبه التعليل لما تقدم، كأنه قال: إذا تركتم هذه المنهيات كنتم إخواناً، ومفهومه: إذا لم تتركوها تصيروا أعداء.

فقوله (وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً) يحتمل معنيين:

أحدهما: إنه إنشاء يراد به الخبر، أي: إذا تركتم الحسد والتدابر ... فستكونون يا عباد الله إخواناً.

الثاني: أن المراد به حقيقة الأمر، أي: كونوا عباد الله إخواناً فيه، فيكون .

٢ – قوله (**فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ** ...) أبيح الهجر دون ثلاث.

قال النووي: فِي هَذَا الْحَدِيث تَحْرِيم الْهَجْر بَيْن الْمُسْلِمِينَ أَكْثَر مِنْ ثَلَاث لَيَالٍ، وَإِبَاحَتهَا فِي الثَّلَاث الْأُوَل بِنَصِّ الْحَدِيث، وَالثَّانِي بِمَفْهُومِهِ. قَالُوا: وَإِنَّمَا عُفِيَ عَنْهَا فِي الثَّلَاث لِأَنَّ الْآدَمِيّ مَجْبُول عَلَى الْغَضَب وَسُوء الْخُلُق وَنَحْو ذَلِكَ؛ فَعُفِيَ عَنْ الْهِجْرَة فِي الثَّلَاثَة لِيَذْهَب ذَلِكَ الْعَارِض.

٣ – يجوز الهجر في حالات:

قد اعتبر السلف وجمهور الأئمة الابتداع في العقائد من الأسباب المشروعة للهجر، وأوجبوا هجران أهل الأهواء من المبتدعة، الذين يجاهرون ببدعهم أو يدعون إليها.

قال ابن عبد البر: أجمعوا على أنه يجوز الهجر فوق ثلاث، لمن كانت مكالمته تجلب نقصاً على المخاطب في دينه، أو مضرة تحصل عليه في نفسه، أو دنياه. فرب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية.

ومن أسباب الهجر الشرعي فوق ثلاث هجران أصحاب المعاصي المجاهرين بها.

كما هجر النبي ﷺ المتخلفين عن غزوة تبوك من غير عذر، كما في قصة كعب بن مالك، وصاحبيه رضي الله عنهم.

ويجوز الهجر فوق ثلاث للزوجة الناشز إلا أن هجرها لا يكون إلا في المضجع، وليس في كل الأحول. كما قال تعالى (واهجروهن في المضاجع) بعد العظة والنصيحة.

وبالجملة فإن الهجر علاج، ولا يصار إليه إلا إذا تحقق أو غلب على الظن أن هجر المهجور أنفع –في الجملة– من وصله، فإن كان العكس لم يشرع الهجر، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً. والهجران كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله: إنما هو دواء يجب أن يستخدم في وقته وبمقداره، فلا يجوز أن يستخدم في غير وقته وبغير مقداره.

٤ – قوله (**وَخَيْرُهُمَا اَلَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ**).

قال النووي: ... وَفِيهِ دَلِيل لِمَذْهَبِ الشَّافِعِيّ وَمَالِك وَمَنْ وَافَقَهُمَا أَنَّ السَّلَام يَقْطَع الْهِجْرَة، وَيَرْفَع الْإِثْم فِيهَا، وَيُزِيلهُ، وَقَالَ أَحْمَد وَابْن الْقَاسِم الْمَالِكِيّ: إِنْ كَانَ يُؤْذِيه لَمْ يَقْطَع السَّلَام هِجْرَته.

قَالَ أَصْحَابنَا: وَلَوْ كَاتَبَهُ أَوْ رَاسَلَهُ عِنْد غَيْبَته عَنْهُ هَلْ يَزُول إِثْم الْهِجْرَة؟ وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدهمَا لَا يَزُول لِأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّمهُ، وَأَصَحّهمَا يَزُول لِزَوَالِ الْوَحْشَة. وَاَللَّه أَعْلَم.

وقال ابن حجر: قال أكثر العلماء تزول الهجرة بمجرد السلام ورده.

وقال أحمد: لا يبرأ من الهجرة إلا بعوده إلى الحال التي كان عليها أولاً.

واستدل الجمهور: بما رواه الطبراني من طريق زيد بن وهب عن بن مسعود في أثناء حديث موقوف وفيه (ورجوعه أن يأتي فيسلم عليه). (الفتح)

٥ – التعبير في الحديث بالإخوة إشارة واضحة إلى الحث على التواصل والتحذير من الهجران والتقاطع.

٦ – أذن النبي ﷺ في الهجر دون ثلاثة أيام، لأن الإنسان ربما يكون بينه وبين أخيه شيء فيكون في القلب شيء، فبعد الثلاثة أيام يذهب ما في القلب من الأحقاد وغيرها.

٧ – الهجر حرام، لكن إذا كان الهجر لمصلحة دينية، فإنه لا بأس به، بل ربما يكون مستحباً، وقد أمر النبي ﷺ بهجر كعب بن مالك وصاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

٨ – أن إنهاء التهاجر يكون بالسلام.

٩ – فضيلة ظاهرة لمن يبدأ بالسلام من المتهاجريْن.

١٠ – أن السلام من أسباب المحبة وتأليف القلوب، وقد قال ﷺ (لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم).

١١ – ينبغي على المسلم أن يتناسى الأحقاد ويسرع إلى الصلح ليفوز بالفضل.

١٢ – حرص الشريعة في النهي عن كل ما يؤدي إلى التهاجر والتقاطع.

١٣ – ينبغي على المسلمين أن يكون إخوة متحابين، كما قال تعالى [إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم].

١٤ – أن الشيطان يحرص كل الحرص على إيجاد العداوات والبغضاء والتهاجر بين المسلمين.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَا هُنَا » وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ) .

==========

(**وَلاَ يُسْلمُهُ**) أي: لا يتركه مع من يؤذيه، وعند الطبراني (ولا يسلمه في مصيبة نزلت به).

(**وَلاَ يَخْذُلُهُ**) الخذلان: ترك النصرة والإعانة، قال القرطبي: أي لا يتركه لمن يظلمه ولا ينصره.

(**وَلا يَحْقِرُهُ**) أي: لا يستصغره ولا يذله، ويتكبر عليه.

(**لا تَحَاسَدُوا**) أي: لا يحسد بعضكم بعضاً، والحسد تمني زوال النعمة عن الغير.

(**وَلاَ تَبَاغَضُوا**) أي: لا يُبغض بعضكم بعضاً، فلا تتخذوا أسباب البغض.

(**وَلاَ تَدَابَرُوا**) أنْ يُعْرضَ عَنِ الإنْسَان ويَهْجُرَهُ وَيَجْعَلهُ كَالشَيءِ الَّذِي وَرَاء الظَّهْر وَالدُّبُر.

١ – الحديث دليل على أن المسلم أخو المسلم، كما قال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ومن مقتضيات ذلك ألا يظلمه ولا يكذبه، ولا يغشه، ولا يخونه، ولا يخذله، ولا يحقره.

٢– تحريم الظلم .

٣–قوله (**وَلاَ يَخْذُلُهُ**) فيه تحريم خذلان المسلم، فإنَّ المؤمن مأمورٌ أنْ يَنصُرَ أخاه.

والخذلان: ترك النصرة والإعانة .

قال القرطبي: أي لا يتركه لمن يظلمه ولا ينصره.

ولذلك جاء في الحديث: عن أنس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (انْصُرْ أخَاكَ ظَالماً أَوْ مَظْلُوماً) فَقَالَ رجل: يَا رَسُول اللهِ، أنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُوماً، أرَأيْتَ إنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أنْصُرُهُ؟ قَالَ (تَحْجُزُهُ –أَوْ تمْنَعُهُ – مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلِكَ نَصرُه) رواه البخاري.

وجاء في رواية للبخاري (فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه) وللإسماعيليّ من رواية معاذ، عن حميد (فقال: يَكُفّه عن الظلم، فذاك نصره إياه) ولمسلم من حديث جابر رضي الله عنه نحوه، وفيه (إن كان ظالما، فليَنْهَه، فإنه له نصرةٌ).

فالحديث دليل على وجوب نصرة المسلم لأخيه المسلم، فإن كان مظلوماً أعانه ووقف معه، وإن كان ظالماً منعه وحجزه عن الظلم.

وفي حديث البراءِ قَالَ (أمرنا رَسُول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أمَرَنَا بعيَادَة المرِيض، وَاتِّبَاعِ الجَنَازَةِ، وتَشْمِيتِ العَاطسِ، وَإبْرار المقْسِم، ونَصْرِ المظْلُوم ...).

كما قال ﷺ (انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قال: يا رسولَ الله، أنصُرُهُ مَظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال: تمنعه عنِ الظُّلم، فذلك نصرُك إيَّاه).

٤- قوله (**ولا يَحقِرُهُ ... بِحَسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخَاهُ المُسلِمَ**) .

فيه تحريم احتقار المسلم.

قال تعالى (يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ...).

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، ثم بين الحكمة: فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه والمحتقر له (ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء، ففي الآية تحريم السخرية والاستهزاء بالناس واحتقارهم.

قال ابن رجب: قوله (بحسب امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يحقِرَ أخاه المسلم) يعني: يكفيه مِنَ الشرِّ احتقارُ أخيه المسلم، فإنَّه إنَّما يحتقرُ أخاه المسلم لتكبُّره عليه، والكِبْرُ من أعظمِ خِصالِ الشَّرِّ، وفي صحيح مسلم عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال (لا يدخلُ الجنَّة من في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ).

وفيه أيضاً عنه أنَّه قال (العزُّ إزاره والكبر ردائه، فمن نازعني عذَّبتُه) فمنازعته الله تعالى صفاته التي لا تليقُ بالمخلوق، كفى بها شراً.

وفي صحيح ابن حبان عن فَضالة بنِ عُبيدٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال (ثلاثة لا يُسأل عنهم: رجلٌ يُنازعُ الله إزاره، ورجلٌ يُنازع الله رداءه، فإنَّ رداءه الكبرياء، وإزاره العزُّ، ورجلٌ في شكٍّ من أمر الله تعالى والقُنوطِ من رحمة الله).

والسخرية تستلزم أمور:

أولاً: أنها من أعظم الشرور.

قال ﷺ (... بحسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم).

ثانياً: ربما يكون المسخور منه أفضل وأعظم عند الله من الساخر.

كما جاء في هذه الآية: (عسى أن يكونوا خيراً منهم).

وقال ﷺ (ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره).

ثالثاً: أن السخرية من صفات الكفار بالمؤمنين.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ).

وقال تعالى: (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ).

رابعاً: دليل على الكبر والتعاظم.

وقد قال ﷺ (الكبر بطر الحق وغمط الناس) أي احتقارهم.

خامساً: دليل على سوء الخلق.

ولهذا قال ﷺ (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المؤمن ...).

سادساً: أنه مناف لقضاء الله.

لأن هذا إذا كان فقيراً أو ضعيفاً فهذا من قدر الله وقضائه.

سابعاً: دليل على ضعف الإيمان.

لأن المؤمن الكامل دائماً يتهم نفسه ويخاف أن لا يتقبل منه.

ثامناً: أن السخرية من تقديم أمر الدنيا على الآخرة.

لأن الساخر نظر إلى وضعه الدنيوي ولم ينظر أنه ربما يكون عند الله أعظم وأفضل.

قال ابن مسعود: لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلباً.

٥-قوله (**التَّقْوَى هَا هُنَا) وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ** .

قال ابن رجب: قوله (لتَّقوى هاهنا) يشير إلى صدره ثلاثَ مرَّاتٍ) فيه إشارةٌ إلى أنَّ كرم الخَلْق عند الله بالتَّقوى، فربَّ من يحقِرُه الناس لضعفه، وقلَّةِ حظِّه من الدُّنيا، وهو أعظمُ قدراً عند الله تعالى ممَّن له قدرٌ في الدُّنيا، فإنَّ الناسَ إنّما يتفاوتُون بحسب التَّقوى.

كما قال الله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم).

وسئل النَّبيُّ ﷺ مَنْ أكرمُ الناسِ؟ قال (أتقاهُم لله).

وفي حديث آخر (الكرمُ التَّقوى).

وإذا كان أصلُ التَّقوى في القُلوب، فلا يطَّلعُ أحدٌ على حقيقتها إلا الله -عز وجل-، كما قال ﷺ (إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُورِكُم وأموالِكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم) وحينئذ، فقد يكونُ كثيرٌ ممَّن له صورةٌ حسنةٌ، أو مالٌ، أو جاهٌ، أو رياسةٌ في الدنيا، قلبه خراباً من التقوى، ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبُه مملوءاً مِنَ التَّقوى، فيكون أكرمَ عند الله تعالى، بل ذلك هو الأكثر وقوعاً، كما في الصحيحين عن حارثةَ بن وهبٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال (ألا أُخبِرُكم بأهل الجنَّةِ: كلُّ ضعيف متضعَّفٍ، لو أقسم على الله لأبرَّهُ، ألا أخبركم بأهل النَّارِ: كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبِرٍ).

وفي المسند عن أنس عن النَّبيِّ ﷺ قال (أمَّا أهلُ الجنَّة، فكلُّ ضعيفٍ متضعَّفٍ، أشعث، ذي طِمرين، لو أقسمَ على الله لأبرَّه؛ وأمَّا أهلُ النَّارِ، فكلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظ جمَّاعٍ، منَّاعٍ، ذي تَبَع).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال (تحاجَّت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرين، وقالتِ الجنَّةُ: لا يدخُلُني إلا ضعفاءُ النَّاس وسَقَطُهم، فقال الله للجنَّةِ: أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي، أعذِّبُ بكِ من أشاء من عبادي).

وخرَّجه الإمام أحمد من حديث أبي سعيدٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال (افتخرت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالت النار: يا ربِّ، يدخُلُني الجبابرة والمتكبِّرون والملوكُ والأشرافُ، وقالت الجنَّةُ: يا ربِّ يدخُلُني الضُّعفاء والفقراءُ والمساكين) وذكر الحديث .

٦-قوله (**كُلُّ المُسلمِ على المُسلِمِ حرامٌ: دَمُهُ ومَالُهُ وعِرضُهُ**) .

فيه دليل على تحريم دم المسلم بغير حق.

كما قال تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيما).

وقد تقدمت الأدلة.

وفيه تحريم مال المسلم بغير حق.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُم).

وقال تعالى (وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون).

وعن أَبِي بَكْرَةَ قال: قال ﷺ (... فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ). متفق عليه

وقال ﷺ (لاَ يَحِل مَال امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسِهِ).

وقال ﷺ (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقيامَةِ حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الْجَلْحَاء مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاء). رواه مسلم

وعن أُمِّ سَلَمةَ أَن رسول اللَّه ﷺ قال (إِنَّمَا أَنَا بشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض، فأَقْضِي لَهُ بِنحْو ما أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ) متفق عليه. «أَلْحَنَ» أَيْ: أَعْلَم.

وعن أَبِي قَتَادَةَ الْحارثِ بنِ ربعي ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ (أَنَّهُ قَام فِيهِمْ، فذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهادَ فِي سبِيلِ اللَّه، وَالإِيمانَ بِاللَّه أَفْضلُ الأَعْمالِ، فَقَامَ رَجلٌ فقال: يا رسول اللَّه أَرَأَيْت إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّه، تُكَفِّرُ عنِي خَطَايَايَ؟ فقال لَهُ رسولُ اللَّه ﷺ نعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّه وأَنْتَ صَابر مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غيْرَ مُدْبِرٍ، ثُمَّ قال رسول اللَّه ﷺ : كيْف قُلْتَ؟ قال: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيل اللَّه، أَتُكَفرُ عني خَطَايايَ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : نَعمْ وأَنْت صابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلاَّ الدَّيْن فَإِنَّ جِبْرِيلَ قال لِي ذلِكَ) رواه مسلم.

وفيه تحريم عرض المسلم من غيبة أو سب أو شتم.

عن أَبِي هُرِيْرَةَ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال (مَنْ كَانتْ عِنْدَه مَظْلمَةٌ لأَخِيهِ، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيتَحَلَّلْه منْه الْيوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَملٌ صَالحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقدْرِ مظْلمتِهِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سيِّئَاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ). رواه البخاري

وعنه قال: قال ﷺ (أتدْرُون من الْمُفْلِسُ؟ قالُوا: الْمُفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقيامةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وزَكَاةٍ، ويأْتِي وقَدْ شَتَمَ هذا، وقذَف هذَا وَأَكَلَ مالَ هَذَا، وسفَكَ دَم هذَا، وَضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذَا مِنْ حسَنَاتِهِ، وهَذا مِن حسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حسناته قَبْلَ أَنْ يقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ علَيْه، ثُمَّ طُرِح فِي النَّارِ). رواه مسلم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ) .

==========

١-لحديث دليل على أهمية عمل القلب، وأن العبرة بما في القلب وليس بالصور والأجسام.

كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

وقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

قال ابن كثير: أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب، وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ .

وقال السعدي: يخبر تعالى أنه خلق بني آدم، من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالاً كثيراً ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك، التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله، أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافًا عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله، ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك، ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلا بما يستحق.

فالقلوب هي محل النظر والعمل، وأما الصور والأموال فلا قيمة لها إن لم يستعن بها على طاعة الله، ولكن محل النظر القلوب إذا استقامت على محبة الله والإخلاص له وخوفه ورجاءه وصلحت الأعمال، وصارت خالصة لله موافقة للسنة هذا هو الذي ينفع صاحبه، صلاح القلب وصلاح الأعمال.

ولهذا قال ﷺ (التقوى ههنا) وأشار إلى صدره.

قال ابن رجب: وإذا كان أصلُ التَّقوى في القُلوب، فلا يطَّلعُ أحدٌ على حقيقتها إلا الله – عز وجل، كما قال ﷺ (إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُورِكُم وأموالِكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم) وحينئذ، فقد يكونُ كثيرٌ ممَّن له صورةٌ حسنةٌ، أو مالٌ، أو جاهٌ، أو رياسةٌ في الدنيا، قلبه خراباً من التقوى، ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبُه مملوءاً مِنَ التَّقوى، فيكون أكرمَ عند الله تعالى، بل ذلك هو الأكثر وقوعاً، كما في الصحيحين عن حارثةَ بن وهبٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال (ألا أُخبِرُكم بأهل الجنَّةِ: كلُّ ضعيف متضعَّفٍ، لو أقسم على الله لأبرَّهُ، ألا أخبركم بأهل النَّارِ: كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبِرٍ).

وفي المسند عن أنس عن النَّبيِّ ﷺ قال (أمَّا أهلُ الجنَّة، فكلُّ ضعيفٍ متضعَّفٍ، أشعث، ذي طِمرين، لو أقسمَ على الله لأبرَّه؛ وأمَّا أهلُ النَّارِ، فكلُّ جَعْظَريٍّ جَوَّاظ جمَّاعٍ، منَّاعٍ، ذي تَبَع).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ قال (تحاجَّت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرين، وقالتِ الجنَّةُ: لا يدخُلُني إلا ضعفاءُ النَّاس وسَقَطُهم، فقال الله للجنَّةِ: أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي، أعذِّبُ بكِ من أشاء من عبادي).

وخرَّجه الإمام أحمد من حديث أبي سعيدٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال (افتخرت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالت النار: يا ربِّ، يدخُلُني الجبابرة والمتكبِّرون والملوكُ. والأشرافُ، وقالت الجنَّةُ: يا ربِّ يدخُلُني الضُّعفاء والفقراءُ والمساكين) وذكر الحديث.

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد، قال: مرَّ رجلٌ على سولِ الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس (ما رأيك في هذا؟) فقالَ رجلٌ منْ أشراف الناس: هذا والله حريٌّ إنْ خطَب أنْ يُنكح،

وإنْ شفع أنْ يشفَّعَ، وإن قالَ أن يُسمَعَ لقوله، قالَ: فسكت النَّبيُّ ﷺ ، ثُمَّ مرَّ رجلٌ آخر، فقالَ لهُ رسول الله ﷺ ما رأيك في هذا؟، قال: يا رسول الله، هذا رجلٌ مِن فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إنْ خطب أنْ لا يُنكحَ، وإن شفع أن لا يشفَّع، وإنْ قال أنْ لا يُسمع لقوله، فقال رسول ﷺ (هذا خيرٌ من ملءِ الأرض مثل هذا).

وقال محمد بنُ كعب القُرَظيُّ في قوله تعالى (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)، قال: تَخفِضُ رجالاً كانوا في الدُّنيا مرتفعين، وترْفَعُ رجالاً كانوا في الدُّنيا مخفوضين.

قال ابن تيمية: فالجزاء يوم القيامة على ما في القلوب لا على مجرد الظواهر.

وقال رحمه الله: فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وقال أيضاً: والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً.

ولهذا لم يُثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلاً: لا على ولد نبيّ، ولا على أبي نبيّ، وإنما أثنى على الناس بإيمانهم وأعمالهم. وإذا ذكر صنفاً وأثنى عليهم ، فلما فيهم من الإيمان والعمل، لا لمجرد النسب، ولما ذكر الأنبياء –ذكرهم في الأنعام– وهم ثمانية عشر، قال (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فبهذا حصلت الفضيلة باجتبائه سبحانه وتعالى وهدايته إياهم إلى صراط مستقيم، لا بنفس القرابة.

وقال ابن القيم: تتفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها.

وقال ابن رجب: لم يكن أكثر تطوع النبي ﷺ وخواص أصحابه بكثرة الصوم والصلاة، بل ببر القلوب وطهارتها وسلامتها وقوة تعلقها بالله، خشية له ومحبة، وإجلالاً وتعظيماً، ورغبة فيما عنده، وزهداً فيما يفنى.

وقد قال تعالى (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

قال ابن القيم: القلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرئاسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله.

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص، وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحدة منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تنحصر.

ولذلك اشتدت حاجة العبد، بل ضرورته، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها.

قال بعض العلماء: إن القرآن الكريم وضع (القلب السليم) مقابل المال والبنين، ولهذا دلالته؛ وذلك أن كثيراً ما يكون المال وكذلك البنون حاجزاً بين الإنسان وبين سلوك سبيل الرشاد، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى محذراً ومنبهاً (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً).

وقال تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ).

وقد قال ﷺ (إلا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله) متفق عليه.

قال ابن رجب: فيه إشارةٌ إلى أنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارحه، واجتنابه للمحرَّمات واتِّقاءه للشُّبهات بحسب صلاحِ حركةِ قلبِه.

فإنْ كان قلبُه سليماً، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يُحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرَّمات كلها، وتوقي للشبهات حذراً مِنَ الوقوعِ في المحرَّمات.

وإنْ كان القلبُ فاسداً، قدِ استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطلب ما يحبُّه، ولو كرهه الله، فسدت حركاتُ الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب.

فعلى المسلم أن يسعى في إصلاح قلبه وذلك:

بقراءة القرآن بتدبر وخشوع.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).

والإكثار من ذكر الله.

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ).

وقال ﷺ (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثل الحي والميت) رواه مسلم.

والاستجابة لأمر الله ورسوله.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ).

وإعمار القلب بمحبة الله والتعلق به.

قال ﷺ (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ...).

قال ابن القيم: إن في القلب وحشة لا يُذهبها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يُذهبه إلا السرور بمعرفته، وفيه فاقة –يعني فقر– لا يُذهبه إلا صدق اللجوء إليه، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تذهب تلك الفاقة أبداً.

وليحذر من مفسدات القلب وهي: الخلطة والتمني والتعلق بغير الله والشبع والمنام فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب.

وقال ابن القيم مبيناً سبب انقطاع القلب قال: الوقوف عند مدح الناس وذمهم: علامة انقطاع القلب وخلوه من الله، وأنه لم تباشره روح محبته ومعرفته ولم يذق حلاوة التعلق به والطمأنينة إليه.

٢ – قوله (قُلُوبِكمْ وأعمالكم) هذا يدل على أن هناك علاقة وثيقة بين القلب والعمل فبصلاح القلب، صلاح العمل ولابد ومنه قوله ﷺ (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) .

وقال الله تعالى في محكم تنزيله (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً).

٣ – الحديث دليل على أنه لا عبرة بحسن الظاهر وزخرف اللسان مع خبث الجنان.

٤ – الحث على مراقبة الله .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا).

==========

(**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ**) أي: فتحاً حقيقياً، لأن الجنة مخلوقة، وفي الرواية الأخرى (تعرض الأعمال ...).

(**يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ**) فيه بيان فضلهما على غيرهما من الأيام.

(**فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ**) مسلم.

(**لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا**) فيه خطر الشرك.

(**إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ**) أي: عداوة.

(**فَيُقَالُ أَنْظِرُوا**) بالفتح، أي: أخروا وأمهلوا.

(**هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحا**) بالتكرار ثلاث مرات للتأكيد.

١ – الحديث دليل على خطر التشاحن والتقاطع ، والتشاحن والتقاطع له أضرار:

أولاً: أن هذا يفرح إبليس.

كما في حديث جابر . قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا فَيَقُولُ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ – قَالَ – فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ نِعْمَ أَنْتَ». قَالَ الأَعْمَشُ أُرَاهُ قَالَ «فَيَلْتَزِمُهُ).

ثانياً: لا ترفع أعمالهما.

كما في حديث الباب .

ثالثاً: أنه حرام.

كما في حديث أَبِي أَيُّوبَ -وقد تقدم- (لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلاَمِ) .

٢- من أسباب التشاحن والتباغض:

أولاً: طاعة الشيطان:

قال تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا).

ولحديث جابر قال : قال ﷺ (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم).

ثانياً: الغضب: فالغضب مفتاح كل شر.

وقد أوصى ﷺ رجلاً بالبعد عن الغضب فقال: «لا تغضب» فرددها مرارًا . رواه البخاري.

فإن الغضب طريق إلى التهكم بالناس والسخرية منهم وبخس حقوقهم وإيذائهم وغير ذلك مما يولد البغضاء والفرقة.

ثالثاً: النميمة.

قال تعالى ذامًا أهل هذه الخصلة الذميمة (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ).

وقال ﷺ (لا يدخل الجنة نمام).

رابعاً: الحسد.

وهو تمني زوال النعمة عن صاحبها وفيه تعد وأذى للمسلمين نهى الله عنه ورسوله.

والحسد يولد الغيبة والنميمة والبهتان على المسلمين والظلم والكبر.

خامساً: التنافس على الدنيا .

خاصة في هذا الزمن حيث كثر هذا الأمر واسودت القلوب، فهذا يحقد على زميله؛ لأنه نال راتبة أعلى، وتلك تغار من أختها لأنها حصلت على ترقية وظيفية، والأمر دون ذلك فكل ذلك إلى زوال.

سادساً: حب الشهرة والرياسة.

قال الفضيل بن عياض: ما من أحد أحب الرياسة إلا حسد وبغي وتتبع عيوب الناس، وكره أن يذكر أحد بخير.

٣ – قال ابن عبد البر: في هذا الحديث دليل على أن الجنة مخلوقة، وأن لها أبوابا، وقد جاء في الآثار الصحاح أن لها ثمانية أبواب.

٤ – وفيه أن المغفرة لا تكون إلا للعبد المسلم الذي لا يشرك بالله شيئاً، قال الله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء).

٥ – وفيه أن المهاجرة والعداوة والشحناء والبغضاء من الذنوب العظام والسيئات الجسام، وإن لم تكن في الكبائر مذكورة، ألا ترى أنه استثنى في هذا الحديث غفرانها وخصها بذلك.

٦ – وفيه أن الذنوب إذا كانت بين العباد فوقعت بينهم فيها المغفرة والتجاوز والعفو، سقطت المطالبة بها من قبل الله عز وجل، ألا ترى إلى قوله: حتى يصطلحا، فإذا اصطلحا غفر لهما ذلك وغيره من صغائر ذنوبهما بأعمال البر من الطهارة والصلاة والصيام والصدقة.

٧ – وفيه دليل على فضل يوم الاثنين والخميس على غيرهما من الأيام، وكان رسول الله ﷺ يصومهما ويندب أمته إلى صيامهما، وكان يتحراهما بالصيام، وأظن هذا الخبر إنما توجه إلى أمة وطائفة كانت تصومهما تأكيدا على لزوم ذلك، والله أعلم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ (أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ لاَ غَيْرَ أَنِّى أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ) .

==========

(**زَارَ أَخًا لَهُ**) أي: أراد أن يزوره، وهو، والمراد أخ في الله، لقوله في آخر الحديث (غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عزوجل) فإنه أَبُو كان أخاه مِن نَسَبه لقال: إنه أخي في النسب، وأحبه، والله تعالى أعلم.

(**فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى**) أي: غير قرية الزائر.

(**فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ**) أي: وَكّل بحفظه.

قال النوويّ رحمه الله: معنى أرصده: أقعده يَرْقُبه، و"المدرجة" بفتح الميم، والراء: هي الطريق، سُمّيت بذلك؛ لأن الناس يَدرُجون عليها؛ أي: يمضون، ويمشون.

(**عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا**) أي: هيأ على طريقه ملَكًا، وأقعده يرقُبه.

قال القرطبيّ رحمه الله: قوله: "فأرصد الله على مدرجته"؛ أي: جعل الله ملَكًا على طريقه يرصُده؛ أي: يرتقبه، وينتظره ليبشّره، والْمَرْصَد: موضع الرّصَد، و"المدرجة" بفتح الميم: موضع الدرْجِ، وهو المشي.

(**قَالَ**) الملَك للرجل:

(**هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ**) أي: هل لك من حقّ واجب عليه من النعم الدنيوية.

(**تَرُبُّهَا**) – بفتح المثناة الفوقية، وضمّ الراء، وتشديد الموحّدة–؛ أي: تملكها، وتستوفيها، أو معناه: تقوم بها، وتسعى في صلاحها، وتَحْفظها، وتراعيها، كما يُرَبِّي الرجل ولده، قاله المناويّ رحمه الله.

وقال القرطبيّ: "تربّها"؛ أي: تقوم بها، وتُصلحها، فتتعاهده بسببها.

(**قَالَ**) الرجل.

(**لَا**) أي: ليست لي عليه نعمة أَرُبّها.

(**غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُه فِي اللهِ عزوجل**) أي: ليس لي داعية إلى زيارته إلا محبتي إياه ابتغاء مرضاة الله تعالى.

قال القرطبيّ رحمه الله: قوله: "فقال: لا، غير أني أحببته في الله"؛ أي: لم أزره لغرض من أغراض الدنيا، ثمَّ أخبر بأنه إنما زاره من أجل أنه أحبه في الله تعالى، فبشّره الملَك بأن الله تعالى قد أحبّه بسبب ذلك.

(**قَالَ**) الملَك.

(**فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ**) أي: مرسلٌ منه تعالى

(**إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**) فضل عظيم للمحبة في الله.

١ – هذه الأحاديث فيها فضل المحبة في الله، والمحبة في الله لها فضائل:

أولاً: أن المحبة لله سبب لمحبة الله للعبد.

قال عليه السلام (قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ) رواه مالك.

ثانياً: أن الله سبحانه وتعالى يظل المتحابين في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

كما في حديث الباب (أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي).

وفي حديث أبي هريرة قال : قال ﷺ (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: ... فذكر منهم: ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه).

ثالثاً: أن الحب في الله والبغض في الله دليل على كمال إيمان العبد.

عن أبي أمامة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ (من أحب في الله وأبغض في الله وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان).

رابعاً: أن الحب في الله سبب لحلاوة الإيمان وطعمه.

كما في حديث أنس . قال : قال ﷺ (ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سَوَاهُمَا، وَأنْ يُحِبَّ المرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وقال أيضاً ﷺ (من أحب أن يجد حلاوة الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلا لله) رواه أحمد.

خامساً: أن المرء بمحبته لأهل الخير لصلاحهم يلتحق بهم ويصل إلى مراتبهم وإن لم يكن عمله بالغاً مبلغهم.

ففي الصحيحين عن ابن مسعود قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ قال: المرء مع من أحب). متفق عليه.

سادساً: أن الله يكرم من أحب عبداً في الله.

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ (ما أحب عبدٌ عبداً لله إلا أكرمه الله). رواه ابن أبي الدنيا.

سابعاً: أن المتحابين في الله لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء.

عن معاذ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (قال الله تعالى: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء). رواه الترمذي وصححه

٢–قال ابن رجب رحمه الله تعالى: ومن تمام محبة الله: محبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه، فمن أحبّ شيئاً مما كرهه الله، أو كره شيئاً مما يحبه الله، لم يكمل توحيده وصدقه في قوله لا إله إلا الله، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما أحبه الله، وما أحبه مما يكرهه الله.

وقال ابن القيم رحمه الله: من أحبّ شيئاً سوى الله، ولم تكن محبته له لله، ولا لكونه معيناً له على طاعة الله، عذب به في الدنيا قبل اللقاء كما قيل:

أنت القتيل بكل من أحببته *** فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي.

وقال ابن تيمية –رحمه الله– فمحبةُ ما يحبه الله لله من الأعيان والأعمال مِن تمام محبة الله، وهو الحب في الله ولله، وإنْ كان كثير من الناس يغلط في معرفة كثير من ذلك، أو وجوده، فيظن في أنواع من المحبة أنها محبة لله، ولا تكون لله، ويظن وجود المحبة لله في أمور، ولا تكون المحبة لله موجودة، بل قد يعتقد وجود المحبة لله، وتكون معدومة، وقد يعتقد في بعض الحب أنه لله، ولا يكون لله.

وقال ابن تيمية –رحمه الله– أيضًا إذا أحب المخلوق لله، لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإنَّ محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب؛ فإذا أحب أنبياء الله، وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق، لا لشيء آخر، فقد أحبهم لله لا لغيره.

٣ – الحديث دليل على فضل الإخلاص في الأعمال، وأن الإخلاص سبب لرفعتها وعلو منزلتها.

٤ – أن يوم القيامة لا ينفع إلا ما كان لله.

٥ – التحذير من المحبة لغير الله.

٦ – إثبات يوم القيامة.

٧–قوله (يغبطهم النبيون والشهداء) .

قال محمد علي بن علان رحمه الله: الغبطة تمنِّي مثل ما للغير منا لخير من غير زواله عن صاحبه، فدلَّ هذا الحديث القدسي على أن لهؤلاء العباد منازلَ شريفةً عظيمةً في الآخرة، ولا يلزم من تمنِّي الأنبياء أن يكون أولئك أفضل من الأنبياء؛ لأنه قد يكون لك مائة فرس من العتاق، ثم ترى لأخيك فرسًا؛ فتشتهي أن تشتريه منه أو تشتري مثله، وهذا من هذا القبيل، ويجوز أنه لم يقصد النظر إلى معنى الغبطة أصلًا، وإنما أُريد بيان فضلهم وشرفهم عند الله فقط. (دليل الفالحين)

٨-قوله (**الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي**) اختلف العلماء في المراد في هذا الظل:

القول الأول: المراد في ظل عرشه.

وإلى هذا ذهب الطحاوي، وابن رجب، والقرطبي، وابن حجر، وهو ظاهر صنيع ابن منده، والسيوطي، وحافظ حكمي.

أ- ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن (سبعة يظلهم الله في ظل عرشه ...) وحسن إسناده ابن حجر، والعيني، والسيوطي.

ب- أن الظل جاء مضافاً إلى العرش في عدة أحاديث غير هذا:

كحديث (من أنظر معسراً أو وضع عنه، أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه ...). رواه الترمذي

وحديث (المتحابون في الله على منابر من نور في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله).

القول الثاني: المراد بالظل المضاف إلى الله في الحديث رحمته.

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر في أحد قوليه، وذكره البغوي، والبيهقي وغيرهما.

وأصحاب هذا القول، منهم من يفسر الرحمة بدخول الجنة كابن عبد البر، ومنهم من يفسرها بالرعاية والكرامة والحماية، كما يقال: أسبل الأمير أو الوزير ظله على فلان، بمعنى الرعاية والحماية.

وممن فسرها بهذا: عيسى بن دينار، والبيهقي، والبغوي، والقاضي عياض.

القول الثالث: أن المراد بالظل في الحديث: ظل يخلقه الله، لأنه في ذلك الوقت لا يوجد شيء يظل الخلائق من الشمس، فلا بناء ولا شجر ولا رمال ولا حجر، إلا ما يخلقه الله تعالى، وهذا اختيار الشيخ ابن عثيمين.

٩ – هناك في موقف الحساب، ومع دُنوِّ الشمسِ من رُؤوس الخلائق، واشتداد الحرِّ، هُناكَ مَن يُظلُّهم الله، جعلني الله وإياكم ووالدينا وأهلينا منهم.

قال ﷺ (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه) متفق عليه.

وفي روايةٍ (يُظلُّهم الله في ظلِّ عرشه) رواه سعيد ابن منصور وحسنه ابن حجر.

قال ابن عبد البر: هذا أحسنُ حديثٍ يُروَى في فَضائل الأعمال وأعمُّها وأصحُّها إن شاء الله، وحَسْبُك به فضلًا؛ لأن العلمَ مُحيطٌ بأن من كان في ظلِّ الله يومَ القيامةِ لم يَنَلْ هَوْلَ الموقف.

من أسباب الظلِّ يوم القيامة: إنظار المعسر:

وعن أبي اليسر. قال: قال ﷺ (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ) رواه مسلم .

من أسباب الظلِّ يوم القيامة: تَعَلُّم سورة البقرة وآل عمران:

قال ﷺ (تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ) رواه أحمد.

ومن أسباب الظلِّ يوم القيامة: المحبة بجلال الله:

كما في حديث الباب (إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»). رواه مسلم

ومن أسباب الظلِّ يوم القيامة: الصدقة.

قال ﷺ (كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ) رواه أحمد.

١٠–عن لمقدام بن معدي كَرِبَ قال : قال رسول الله ﷺ (إذا أحبَّ أحدُكُم أخاهُ فليُعْلِمْهُ أنه يُحبُّه). رواه أبو داود

وعن أنس ﷺ (أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ، ﷺ فَمَرَّ رَجُلٌ بِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُول الله، أَنِّي لأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيّ ﷺ «أأَعْلَمْتَهُ؟» قَالَ: لاَ. قَالَ: «أَعْلِمْهُ» فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي الله، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ) رواه أَبُو داود بإسناد صحيح.

ففي هذا : أنه يستحب لمن أحب شخصاً في الله أن يخبره أنه يحبه في الله.

والسر في أن إعلام المسلم أخاه بأنه يحبه في الله هو أنه سبب في الألفة والمحبة.

لما روى علي بن الحسين مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: (إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليبين له، فإنه خير في الألفة وأبقى في المودة) رواه وكيع في الزهد وحسنه الالباني

وفيه دليل على أن يستحب للمسلم الرد على من أظهر له محبته في الله بقوله: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ.

قال الخطابي رحمه الله: معناه الحث على التودد والتآلف، وذلك أنه إذا أخبره أنه يحبه استمال بذلك قلبه، واجتلب به وُدّه.

وقال الغزالي –رحمه الله–: وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجِب زيادة حب، فإن عَرَف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فإذا عَرَفْتَ أنه أيضًا يحبك زاد حبك لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف، والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين .

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلاَنًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي) .

==========

(**فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ**) (الخُرْفَة) بضم الخاء: ما يُخْتَرَفُ، أي: يُجْتَنَى من الثمار حين يُدْرَك .

(**يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ**) أضاف المرض إليه، والمراد مرض العبد تشريفاً له وتقريباً.

(**فَلَمْ تَعُدْنِي**) أي: لم تزرني، بمعنى: لم تزر عبدي المريض.

(**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ**) أَيْ: وَجَدْت ثَوَابِي وَكَرَامَتِي، وَيَدُلّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى فِي تَمَام الْحَدِيث (لَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي، لَوْ أَسْقَيْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي) أَيْ ثَوَابه. (قاله النووي)

١ – الحديث دليل على فضل عيادة المريض لقوله (لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ) .

قال ابن حجر: وخرفة بضم المعجمة وسكون الراء بعدها فاء ثم هاء هي الثمرة إذا نضجت شبه ما يحوزه عائد المريض من الثواب بما يحوزه الذي يجتني الثمر .

وقال البيضاوي –رحمه الله–: المعنى: إن العائد فيما يحوزه من الثواب كأنه في بستان من الجنة، يجتني ثمار الجنة؛ من حيث إن فِعْلَه يُوجِب ذلك، وروي (كان له خريف في الجنة أي: مَخْرُوفٌ، فعيل بمعنى مفعول.

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله-: ومعنى هذا الحديث: أن عائد المريض بما يناله من أجر العيادة وثوابها الموصل إلى الجنة كأنه يجتني ثمرات الجنة، أو كأنه في مَخْرِفِ الجنة، أي: في طريقها الموصِل إلى الاختراف، وسمِّي الخريف بذلك لأنه فصل تُخْتَرَفُ فيه الثمار.

وقال المناوي: (يمشي في مخرفة الجنة) أي: يمشي في التقاط فواكه الجنة، والخرفة بالضم ما يجتنى من الثمار وقد يتجوز بها للبستان من حيث إنه محلها وهو المراد هنا على تقدير مضاف أي: في محله خرفتها ذكره البيضاوي، وقال الزمخشري: معناه أن العائد فيما يحوزه من الثواب كأنه على نخل الجنة يخترق ثمارها من حيث إن فعله يوجب ذلك .

وقال ابن الملك -رحمه الله-: شبَّه عليه السلام ما يحوزه عائد المريض من الثواب بما يحوزه المخْتَرِفُ من الثمار، والمراد: أنه بِسَعْيِهِ إليه يستوجب الجنة ومَخَارِفَها، بإطلاق اسم المسبب على السبب .

وقال الدهلوي -رحمه الله-: والمراد: أنَّ العائد فيما يحوز من الثواب كأنه على نخيل الجنة يَخْرِفُ ثمارها، أو يكون جزاؤه في الجنة ذلك، والمعنى الأول أظهر من العبارة.

قوله (**حتى يرجع**) .

قال عبيد الله المباركفوري -رحمه الله- (حتى يرجع) أي: الثواب حاصل للعائد من حين يذهب للعيادة حتى يرجع إلى محله، ويُعْلَم منه أن من كان طريقه أطول كان أكثر ثوابًا، وليس المراد المكث الكثير عند المريض؛ لما عُلم أَنه يطلب التَّخفيف في المكث عنده.

٢-هذه الأحاديث دليل على مشروعية عيادة المريض وفضلها .

قال النووي -رحمه الله-: واتفق العلماء على فضل عيادة المريض.

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله-: وعيادة المريض من أعمال الطاعات الكثيرة الثواب، العظيمة الأجر، كما دلت عليه هذه الأحاديث وغيرها.

وقال القاضي عياض -رحمه الله-: عيادة المريض من الطاعات المرغَّب فيها، العظيمة الأجر، وقد جاء فيها هذا الحديث وغيره .

وقد جاءت نصوص كثيرة في فضل ذلك:

أ- عن البَرَاءِ بن عازِبٍ رضي الله عنهما، قَالَ (أَمَرَنَا رسولُ الله ﷺ بعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الجَنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ، وَنَصْرِ المظْلُومِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَإِفْشَاءِ السَّلاَمِ) متفقٌ عَلَيْهِ.

ب- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قَال (حَقُّ المسْلِمِ عَلَى المسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلاَمِ، وَعِيَادَةُ المرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ العَاطِس) متفقٌ عَلَيْهِ.

ولمسلم (خمس تجب للمسلم على المسلم ...).

د-وعن أَبي موسى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ (عُودُوا المريضَ، وَأَطْعِمُوا الجَائِعَ، وَفُكُّوا العَاني) رواه البخاري.

و- وعن عليّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ (مَا مِنْ مُسْلِم يَعُودُ مُسْلِماً غُدْوة إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِي، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ في الْجَنَّة). واه الترمذي، وقال: (حديث حسن).

ز- وعن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (من عاد مريضاً أو زار أخاً له، قيل له: طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً). رواه الترمذي

٣-اختلف العلماء في حكم عيادة المريض:

القول الأول: أنها سنة مؤكدة.

وهذا قول جمهور العلماء.

للأحاديث الكثيرة التي سبقت في فضلها.

القول الثاني: أنها فرض كفاية.

وهذا اختيار ابن القيم رحمه الله، وهذا القول هو الراجح، للأمر بها:

كما في حديث البراء بن عازبٍ السابق قال (أمرنا رسولُ الله ﷺ بِسَبعٍ: ... بِعَيادَةِ المريض).

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (حَقُّ الْمُسلِمِ عَلَى الْمُسلِمِ خَمْسٌ: .. وَعِيادَةُ المريض).

وكما في حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ (عُودُوا المرِيضَ ...).

٤ – وفي عيادة المريض فوائد: منها: يؤدي حق أخيه المسلم – أنه لا يزال في خرفة الجنة – أن في ذلك تذكيراً للعائد بنعمة الله عليه في الصحة – أن فيها جلباً للمحبة والمودة. (قاله الشيخ ابن عثيمين)

٥ – لا حرج في عيادة الرجل المرأة الأجنبية، أو المرأة الرجل الأجنبي عنها، إذا توفرت الشروط الآتية: التستر، وأمن الفتنة، وعدم الخلوة.

قال الإمام البخاري: باب عيادة النساء الرجال، وعادت أم الدرداء رجلاً من أهل المسجد من الأنصار، ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أنها عادت أبا بكر وبلالاً رضي الله عنهما لما مرضا في أول مقدمهم المدينة.

وروى مسلم عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لِعُمَرَ ﷺ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ ﷺ: (انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُهَا، وَذَهَبَا إِلَيْهَا.

قال ابن الجوزي: وَالأَوْلَى حَمْلُ ذَلِكَ عَلَى مَنْ لا يُخَافُ مِنْهَا فِتْنَةٌ كَالْعَجُوز.

٦ – تجوز عيادة الكافر بقصد دعوته وعرض الإسلام عليه.

وهذا توسط في المسألة فلا يصح المنع مطلقاً لأنه لم يرد في ذلك دليل بل هو خلاف الأدلة الصحيحة.

والقول بالجواز مطلقاً فيه شيء من النظر فلم يبق إلا جواز عيادته إذا كان يعرض عليه الإسلام أو يرتجيه.

وقد جاء في صحيح البخاري: عن أنس ﷺ قال (كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمَرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: أسلم. فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول. الحمد لله الذي أنقذه من النار).

وفي الصحيحين أنه ﷺ عاد عمه أبا طالب لما حضرته الوفاة ودعاه إلى الإسلام.

وروى ابن أبي شيبة في مصنفه أن أبا الدرداء عاد جاراً له يهودياً.

قال الفضل بن زياد سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الرجل المسلم يعود أحداً من المشركين، قال: إن كان يرى أنه إذا عاده يعرض عليه الإسلام يقبل منه فليعده كما عاد النبي ﷺ الغلام اليهودي فعرض عليه الإسلام.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن عيادة المريض النصراني واتباع جنازته، فقال: لا يتبع جنازته، وأما عيادته فلا بأس بها، فإنه قد يكون في ذلك مصلحة لتأليفه على الإسلام.

قال ابن بطال: إنما تشرع عيادته إذا رجي أن يجيب إلى الدخول في الإسلام، فإذا لم يطمع في ذلك فلا.

فائدة:

في حديث أنس السابق فوائد.

الأولى: حُسنُ خُلقه ﷺ .

الثانية: حرصه ﷺ على هداية الخلق.

الثالثة: أن اليهود إذا مات على يهوديته كافر مخلد في النار وهذا لا خلاف فيه بين أحد من أهل العلم .

قال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده لاَ يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار. رواه مسلم .

الرابعة: عيادة اليهودي إذا رجيت المصلحة. قال أبو داود رحمه الله سمعت الإمام أحمد سئل عن عيادة اليهودي والنصراني؟ قال إن كان يريد أن يدعوه إلى الإسلام فنعم.

٧ – قد يستشكل بعض الناس –لأول وهلة– حديث (مرضت فلم تعدني ...) لأن فيه إضافة المرض والأسقام إلى الله تعالى مع أنها صفات نقص لا يجوز أن يوصف الله تعالى بها، ولذا يرون أنه يحتاج إلى تأويل، والحق أنه لا يحتاج إلى تأويل ، لأنه قد جاء في آخره ما يفسره ويبينه.

قال ابن تيمية: ... فإنه لا يجوز لعاقل أن يقول إن دلالة هذا الحديث مخالفة لعقل ولا سمع إلا من يظن أنه قد دل على جواز المرض والجوع على الخالق سبحانه وتعالى، ومن قال هذا فقد كذب على الحديث، ومن قال إن هذا ظاهر الحديث أو مدلوله أو مفهومه فقد كذب، فإن الحديث قد فسره المتكلم به وبين مراده بياناً زالت به كل شبهة، وبين فيه أن العبد هو الذي جاع وأكل ومرض وعاده العواد وأن الله سبحانه لم يأكل ولم يعد. (كتاب أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها)

وقال رحمه الله: ... وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْرَضْ وَلَا يَجُعْ وَلَكِنْ مَرِضَ عَبْدُهُ وَجَاعَ عَبْدُهُ فَجَعَلَ جُوعَهُ جُوعَهُ وَمَرَضَهُ مَرَضَهُ مُفَسِّرًا ذَلِكَ بِأَنَّك لَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي وَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ؛ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْحَدِيثِ لَفْظٌ يَحْتَاجُ إلَى تَأْوِيلٍ .

عن عَائِشَة قالت (مَا رَأَيْتُ رَجُلاً أَشَدَّ عَلَيْهِ الْوَجَعُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ (دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ» قَالَ فَقُلْتُ ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَجَلْ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلاَّ حَطَّ اللَّهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا).

[خ : ٥٦٦٠] .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً).

وفي لفظ (مَا مِنْ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا الْمُسْلِمُ إِلاَّ كُفِّرَ بِهَا عَنْهُ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا) .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلاَ نَصَبٍ وَلاَ سَقَمٍ وَلاَ حَزَنٍ حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ إِلاَّ كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ) .

[خ : ٥٦٤١] .

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا) .

==========

(**مِنْ وَصَبٍ**) الوصب : المرض الدائم الملازم .

(**وَلاَ نَصَبٍ**) النصب التعب .

(**وَلاَ حَزَنٍ**) الحَزن : ضد السرور ، وفي الرواية الأخرى (ولا غمّ) الغم : الكرب .

(**حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ**) الهَم : حزن وقلق .

(**إِلاَّ كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ**) الصغائر .

١-هذه الأحاديث دليل على أن المصائب والبلاء تكفر السيئات والخطيئات.

ومن الأحاديث :

عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَاتَ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ).

وفي رواية (يُصِيبُهُ أَذى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كَفّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا).

وعن سعد عن النبي ﷺ قال (لاَ تَزَالُ الْبَلَايَا بِالْعَبْدِ حَتَّى تَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا بِهِ خَطِيئَةٌ).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (ما تزال البلايا بالمؤمن والمؤمنة في جسده وماله وولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُونُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْمَنْزِلَةُ فَمَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ، فَلاَ يَزَالُ اللَّهُ يَبْتَلِيهِ بِمَا يَكْرَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ إِيَّاهَا) رواه ابن حبان.

وعن جابر عن النبي ﷺ قال (لاَ يَمْرَضُ مُؤْمِنٌ وَلاَ مُؤْمِنَةٌ وَلاَ مُسْلِمٌ وَلاَ مُسْلِمَةٌ إِلَّا حَطَّ اللهُ عَنْهُ مِنْ خَطَايَاهُ) كَمَا يَحُطُّ الوَرَقَ عِنِ الشَّجَرَةُ). رواه ابن حيان

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- بشِّروا واستبشروا بأن الله تعالى بلطفه قد جعل المصائب التي لا ينفك عنها أحد في هذه الدار سببًا لكفارة الخطايا والأوزار، حتى يَرِد عليه المؤمن يوم القيامة وقد خلصه من تلك الأكدار، وطهَّره من أذى تلك الأقذار، فضلًا من الله ونعمة، ولطفًا ورحمة.

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- مقصود هذه الأحاديث: أن الأمراض والأحزان -وإن دقّت- والمصائب -وإن قلّت- أُجِرَ المؤمن على جميعها، وكُفِّرت عنه بذلك خطاياه حتى يمشي على الأرض وليست له خطيئة، كما جاء في الحديث الآخر، لكن هذا كله إذا صبر المصاب واحتسب، وقال ما أمر الله تعالى به في قوله (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) فمن كان كذلك وصل إلى ما وعد الله به ورسوله من ذلك. .

وقال الشيخ فيصل ابن المبارك -رحمه الله- في هذا الحديث: أنَّ الأمراض وغيرها من المؤذيات مطهِّرة للمؤمن من الذنوب، فينبغي الصبر على ذلك؛ ليحصل له الأجر، والمصاب من حرم الثواب.

٢-فوائد البلاء :

قال ابن رجب: في فوائد البلاء:

تذكير العبد بذنوبه فربما تاب ورجع.

زوال قسوة القلوب وحدوث رقتها.

انكساره لله وذلهِ، وذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين.

أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة.

أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوق.

أن البلاء يوصل إلى قلبه لذة الصبر عليه أو الرضا به.

قال بعض السلف: إن العبد ليُمرَض فيذكر ذنوبه فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفر له.

وقال بعض العلماء: في بعض الكتب السابقة إن الله ليبتلي العبد وهو يحبه ليسمع تضرعه.

وقال القاسمي: وللإمام عز الدين محمد بن عبد السلام، رحمه الله تعالى، كلام على فوائد المحن والرزايا يحسن إيراده هنا. قال عليه الرحمة: للمصائب والبلايا والمحن والرزايا فوائد تختلف باختلاف رتب الناس:

أحدها: معرفة عز الربوبية وقهرها.

والثاني: معرفة ذلة العبودية وكسرها، وإليه الإشارة بقوله تعالى (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، اعترفوا بأنهم ملكه وعبيده، وأنهم راجعون إلى حكمه وتدبيره وقضائه وتقديره لا مفر لهم منه ولا محيد لهم عنه.

والثالثة: الإخلاص لله تعالى؛ إذ لا مرجع في رفع الشدائد إلا إليه، ولا معتمد في كشفها إلا عليه (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ).

الرابعة: الإنابة إلى الله تعالى والإقبال عليه (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ).

الخامسة: التضرع والدعاء (وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا) (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ).

السادسة: الصبر عليها، وهو موجب لمحبة الله تعالى وكثرة ثوابه.

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) وقال (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ).

السابعة: تمحيصها للذنوب والخطايا.

قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ).

الثامنة: معرفة نعمة العافية والشكر عليها.

فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فقدها.

التاسعة: ما أعده الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها.

العاشرة: ما في طيّها من الفوائد الخفية.

قال تعالى (فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً).

وقال تعالى (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ).

ولما أخذ الجبار سارة من إبراهيم كان في طيّ تلك البلية أن أخدمها هاجر. فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فكان من ذرية إسماعيل خاتم النبيين، فأعظم بذلك من خبر كان في طي تلك البلية.

الحادية عشرة: إن المصائب والشدائد تمنع من الأشر والبطر والفخر والخيلاء والتكبر والتجبر.

فإن نمرود، لو كان فقيراً سقيماً، فاقد السمع والبصر، لما حاجّ إبراهيم في ربه، لكن حمله بطرُ الملك على ذلك، وقد علل الله سبحانه وتعالى مُحاجّته بإتيانه الملك، ولو ابتلى فرعون بمثل ذلك لما قال (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) وقال تعالى (وَمَا نَقَمُوا إِلّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) وقال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَان لَيَطْغَى. أَن رَآهُ اسْتَغْنَى) وقال تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).

الثانية عشرة: الرضا الموجب لرضوان الله تعالى، فإن المصائب تنزل بالبَرِّ والفاجر، فمن سخطها فله السخط وخسران الدنيا والآخرة، ومن رضيها فله الرضا والرضا أفضل من الجنة وما فيها؛ لقوله تعالى (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) أي: من جنات عدن ومساكنها الطيبة.

٣ – الأحاديث دليل على أن المصائب تكفر السيئات، لكن هل ترفع الدرجات؟

والصحيح من أقوال العلماء : أن المصائب على العبد المذنب هي ـ بمجردها ـ عقوبات ، تكفر السيئات ولا ترفع الدرجات ولا يُثاب عليها ؛ لأن الثواب ورفعة الدرجة إنما تكون على الأعمال والطاعات لا على فعل الرب تعالى المجرد، فإن صبر واحتسب: أُجر على فعله، الذي هو الصبر والاحتساب، أو الرضا بقضاء الله وقدره إن ترقى إلى ذلك؛ لا على مجرد مصيبته التي أصابته –إلا أن تكون المصيبة بسبب طاعة كما سيأتي–، وهذا قول أجلة مِن الصحابة كأبي عبيدة وابن مسعود رضي الله عنهما، وأجلة من العلماء المحققين كابن تيمية وابن القيم رحمهما الله.

فالخلاصة: أن المصائب كفارات لأهلها ما لم تصدر منهم محرمات كتسخط أو شق ثوب أو نياحة، وأنها رافعة للدرجات وباب للأجر والثواب إذا صاحبها صبر واحتساب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: والدلائل على أن المصائب كفارات: كثيرة، إذا صبر عليها: أثيب على صبره، فالثواب والجزاء إنما يكون على العمل وهو الصبر، وأما نفس المصيبة : فهي من فعل الله لا من فعل العبد، وهي من جزاء الله للعبد على ذنبه وتكفيره ذنبه بها ، وفي المسند "أنهم دخلوا على أبي عبيدة بن الجراح وهو مريض، فذكروا أنه يؤجر على مرضه، فقال : ما لي من الأجر ولا مثل هذه، ولكن المصائب حِطَّة"؛ فبيَّن لهم أبو عبيدة ﷺ أن نفس المرض لا يؤجر عليه، بل يكفر به عن خطاياه. (مجموع فتاوى ابن تيمية)

وقال ابن القيم –رحمه الله–: وذكر عن أبي معمر الازدي قال: كنَّا إذا سمعنا من ابن مسعود شيئاً نكرهه سكتنا، حتى يفسره لنا، فقال لنا ذات يوم: "ألا إن السقم لا يكتب له أجر، فساءنا ذلك وكبر علينا" فقال: "ولكن يكفر به الخطيئة" فسرَّنا ذلك وأعجَبَنا.

وهذا مِن كمال علمه وفقهه ﷺ؛ فإن الأجر إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما تولَّد منها، كما ذكر الله سبحانه النوعين في آخر سورة "التوبة" في قوله في المباشر من الإنفاق وقطع الوادي

(إِلاَّ كُتِبَ لَهُم) وفي المتولد من إصابة الظمأ والنصب والمخمصة في سبيله وغيظ الكفار (إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ) فالثواب مرتبط بهذين النوعين .

وأما الأسقام والمصائب: فإن ثوابها: تكفير الخطايا ولهذا قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) والنبي ﷺ إنما قال في المصائب (كفَّر الله بها من خطاياه) وكذا قوله (المرض حطة) فالطاعات ترفع الدرجات، والمصائب تحط السيئات، ولهذا قال من يرد الله به خيراً يصب منه) وقال (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: فيه دليل على أن الإنسان يكفَّر عنه بما يصيبه مِن الهَمِّ والنَّصب والغَمِّ وغير ذلك ... والمصائب تكون على وجهين:

تارة إذا أُصيب الإنسان تذكَّر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله، فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب؛ وزيادة الحسنات.

وتارة يغفل عن هذا فيضيق صدره، ويصيبه ضجر، أو ما أشبه ذلك، ويغفل عن نية احتساب الأجر والثواب على الله، فيكون في ذلك تكفير لسيئاته، إذا هو رابح على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه.

فإما أن يربح تكفير السيئات، وحط الذنوب بدون أن يحصل له أجر؛ لأنه لم ينو شيئًا ولم يصبر ولم يحتسب الأجر، وإما أن يربح شيئين: تكفير السيئات، وحصول الثواب من الله -عز وجل-.

ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة، فليتذكر احتساب الأجر من الله على هذه المصيبة، حتى يؤجر عليها، مع تكفيرها للذنوب.

وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى وجوده وكرمه، حيث يبتلي المؤمن ثم يثيبه على هذه البلوى، أو يكفر عنه سيئاته .

تنبيه :

قال النووي: قوْله ﷺ (مَا مِنْ مُسْلِم يُشَاك شَوْكَة فَمَا فَوْقهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَة، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَة)

وَفِي بَعْض النُّسَخ (وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا) وَفِي رِوَايَة (إِلَّا كَتَبَ اللَّه بِهَا حَسَنَة، أَوْ حُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَة) فِي هَذِهِ الْأَحَادِيث بِشَارَة عَظِيمَة لِلْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُ قَلَّمَا يَنْفَكّ الْوَاحِد مِنْهُمْ سَاعَة مِنْ شَيْء مِنْ هَذِهِ الْأُمُور، وَفِيهِ تَكْفِير الْخَطَايَا بِالْأَمْرَاضِ وَالْأَسْقَام وَمَصَائِب الدُّنْيَا وَهُمُومهَا، إِنْ قَلَّتْ مَشَقَّتُهَا. وَفِيهِ رَفْع الدَّرَجَات بِهَذِهِ الْأُمُور، وَزِيَادَة الْحَسَنَات، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيح الَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِير الْعُلَمَاء. وَحَكَى الْقَاضِي عَنْ بَعْضهمْ أَنَّهَا تُكَفِّر الْخَطَايَا فَقَطْ، وَلَا تَرْفَع دَرَجَة، وَلَا تُكْتَب حَسَنَة. قَالَ: وَرُوِيَ نَحْوه عَنْ اِبْن مَسْعُود قَالَ: الْوَجَع لَا يُكْتَب بِهِ أَجْر، لَكِنْ تُكَفَّر بِهِ الْخَطَايَا فَقَطْ، وَاعْتَمَدَ عَلَى الْأَحَادِيث الَّتِي فِيهَا تَكْفِير الْخَطَايَا، وَلَمْ تَبْلُغهُ الْأَحَادِيث الَّتِي ذَكَرَهَا مُسْلِم الْمُصَرِّحَة بِرَفْعِ الدَّرَجَات، وَكَتْب الْحَسَنَات.

٤ – وهذه الذنوب التي تكفرها المصائب والأمراض التي تكون عقوبات: يحتمل أنها تكفِّر جميع الذنوب، والجمهور على أنها تكفر الصغائر فحسب.

قال الحافظ ابن حجر –رحمه الله– بعد شرح طائفة من الأحاديث كحديث (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ) وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن ؛ لأن الآدمي لا ينفك –غالباً– من ألمٍ بسبب مرض أو همٍّ أو نحو ذلك مما ذكر ، وأن الأمراض والأوجاع والآلام ، بدنية كانت أو قلبية ، تكفر ذنوب من تقع له ، وسيأتي في الباب الذي بعده من حديث بن مسعود ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه ؛ وظاهره تعميم جميع الذنوب، لكن الجمهور خصوا ذلك بالصغائر، للحديث الذي تقدم التنبيه عليه في أوائل الصلاة الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر؛ فحملوا المطلقات الواردة في التكفير على هذا المقيد. ويحتمل أن يكون معنى الأحاديث التي ظاهرها التعميم أن المذكورات صالحة لتكفير الذنوب، فيكفر الله بها ما شاء من الذنوب، ويكون كثرة التكفير وقلته باعتبار شدة المرض وخفته. ثم المراد بتكفير الذنب ستره، أو محو أثره المرتب عليه من استحقاق العقوبة. (فتح الباري)

٥–جاء في الحديث: عن سعد قال: سُئل النبي ﷺ أي الناس أشد بلاءً؟ قال (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه

رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة). رواه ابن ماجه والدارمي

قال القاضي عياض -رحمه الله-: قالوا يخص الله أنبياءه وأولياءه بذلك بحسب ما خصهم به من قوة العزم والصبر والاحتساب؛ ليتم لهم الخير، ويعظم لهم به الأجر، ويستخرج منهم حالات الصبر والرضا والشكر والتسليم، والتوكل والتفويض، والتضرع والدعاء؛ إعظامًا لأجرهم، وتوفية لثوابهم، وتأكيدًا لبصائرهم في رحمة الممتحنين، والشفقة على المبتلين، وتذكرة به لمن دونهم، وموعظة لمن ليس في درجتهم؛ ليتأسوا بهم ويقتدوا برضاهم وصبرهم، ومحو السيئات التي سلفت منهم، لا سيما لمن أجاز الصغائر على الأنبياء.

وقال النووي -رحمه الله-: قال العلماء: والحكمة في كون الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل: أنهم مخصوصون بكمال الصبر، وصحة الاحتساب، ومعرفة أنَّ ذلك نعمة من الله تعالى؛ ليتم لهم الخير، ويضاعف لهم الأجر، ويظهر صبرهم ورضاهم.

وقال المظهري -رحمه الله-: مَن هو أقرب إلى الله تعالى يكون بلاؤه أشد؛ ليكون ثوابه أكثر، فأقرب الناس إلى الله الأنبياء، ثم الأولياء، ثم من أصلح واتقى. .

وقال البرماوي -رحمه الله-: فالبلاء في مقابلة النعم، فمن كان نعم الله عليه أكثر كان بلاؤه أشد؛ ولذلك ضعَّف حدود الأحرار على الأرقاء .

وقال ابن الجوزي -رحمه الله-: اعلم أن شدة الابتلاء على مقدار المعرفة، وكلما عَلَتْ منزلة العارف لصق البلاء به واشتدَّ عليه، وكلما اشتدَّتْ رفق به. .

وقال عبد القادر الجيلاني -رحمه الله-: لا يزال الله يبتلي عبده المؤمن على قدر إيمانه، فمن عظم إيمانه وكثر وتزايد عَظُمَ بلاؤه، والرسول بلاؤه أعظم من بلاء النبي.

٦-قال الشيخ الألباني: بعد ذكر أحاديث البلاء: وفي هذه الأحاديث: دلالة صريحة على أن المؤمن كلما كان أقوى إيمانًا ازداد ابتلاء وامتحانًا، والعكس بالعكس، ففيها ردٌّ على ضعفاء العقول والأحلام الذين يظنون أن المؤمن إذا أصيب ببلاء كالحبس أو الطرد أو الإقالة من الوظيفة ونحوها أن ذلك دليل على أن المؤمن غير مرضي عند الله تعالى! وهو ظن باطل، فهذا رسول الله

ﷺ وهو أفضل البشر، كان أشد الناس –حتى الأنبياء– بلاء، فالبلاء غالبًا دليل خير، وليس نذير شَرٍّ، كما يدل على ذلك أيضًا الحديث الآتي: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».

وهذا الحديث يدل على أمر زائد على ما سبق، وهو أن البلاء إنما يكون خيرًا، وأن صاحبه يكون محبوبًا عند الله تعالى، إذا صبر على بلاء الله تعالى، ورضي بقضاء الله –عز وجل–، ويشهد لذلك الحديث الآتي: «عجبت لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير، وإن أصابه ما يكره فصبر كان له خير، وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن» .

٧–كمال بشرية النبي ﷺ: فكان يُصيبه ما يُصيب البشر من الأمراض والأوجاع، مما يدل على أنه بشرٌ مثلنا، لكنه يختلف عنا بوحي الله تعالى له.

٨–رفق الله تعالى بنبيه: فكان يمرض ليرفع الله درجاته ويُكفِّر عنه سيئاته .

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ « مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ » قَالَتِ الْحُمَّى لاَ بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا. فَقَالَ « لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ) .

==========

(**فَقَالَ : مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ**) ما لك تَرتَعدين؟

قال النووي–رحمه الله– (تُزَفزَفين) بزاءين معجمتين وفاءين والتاء مضمومة. قال القاضي: تُضم وتُفتح هذا هو الصحيح المشهور في ضبط هذه اللفظة، وادعى القاضي أنها رواية جميع رواة مسلم، ووقع في بعض نُسخ بلادنا بالراء والفاء، ورواه بعضهم في غير مسلم بالراء، والقاف معناه: تتحركين حركة شديدة أي: تَرْعدين .

(**قَالَتِ الْحُمَّى**) أي : سبب زفزفتي : الحمى .

(**لاَ تَسُبِّي الْحُمَّى**) **قال أبو العباس القرطبي** –رحمه الله– مع أنَّها لم تُصَرِّح بِسَبِّ الحُمَّى، وإنَّما دَعت عليها بألا يُبارَك فيها، غير أنَّ مِثْل هذا الدُعاء تَضمن تَنقِيص المدعو عليه وذَمِّه، فصار ذلك كالتصريح بالذَّم والسَّب .

(**فَإِنَّهَا تُذْهِبُ**) تمحو وتزيل .

(**خَطَايَا بَنِي آدَمَ**) مما يقبل التكفير .

(**كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**) أي : وسخه .

١-الحديث دليل على أن ما يصيب المسلم من الأمـراض وغيرها تكفير لسيئاته كما تقـدم في الأحاديث السابقة .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- (فإنها تُذهِب خطايا بني آدم) هذا تعليلٌ لمنعِ سَبِّ الحُمَّى؛ لما يكون عنها من الثَّواب، فيتعدى ذلك لكل مشقَّة، أو شِدَّة يُرتجى عليها ثواب، فلا ينبغي أن يُذَم شيءٌ من ذلك، ولا يُسَبّ.

وحكمة ذلك: أن سَبَّ ذلك إنما يَصدر في الغالب عَن الضَّجر، وضَعف الصَّبر، أو عدمه، وربما يُفْضِي بصاحبه إلى السَّخط المحرَّم، مع أنه لا يُفيد ذلك فائدةً، ولا يخفف ألماً... وأنَّ الأُجور على الأمراضِ والمصائبِ لا تَحصلُ إلا لمن صبرَ واحتَسب. (المفهم)

وقال ابن رجب -رحمه الله- والمعنى -والله أعلم-: أنَّ حرَارَة الحُمَّى في الدنيا تُكفِّر ذُنوب المؤمن، ويَطْهُر بها، حتى يَلقى الله -عزَّ وجلَّ- بغير ذَنبٍ، فَيَلقاه طاهرًا مطهَّرًا من الخَبَث، فيَصلُح لِمجاورته في دار كرامته دار السَّلام، ولا يَحتاج إلى تَطهير في كِير جهنَّم غدًا؛ حيثُ لم يَكن فيه خَبَث يحتاج إلى تَطهير، وهذا في حق المؤمن الذي حَقَّق الإيمان، ولم يَكُن له ذُنوب، إلا ما تُكفِّره الحُمَّى وتُطهِّره. ... وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بتكفير الذنوب بالأسقام والأوصاب، وهي كثيرةٌ جدًا يَطول ذكرها. (الفتح)

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- وإنَّما فَعَلت الحُمَّى في الخَطايا هذا؛ لأنَّ الالْتذاذ بالمعاصي يكون بالقلب والجوارح، والحُمَّى حرارةٌ تنشأُ من القلب وتَعمُّ الجوارح، فلا يبقى في البدن -الذي الْتَذَّ- شيء إلا تَألم، فلذلك تُصَفِّيه من الخَطايا .

٢-وقد جاء عند أحمد عن أبي أمامة قال: قال ﷺ (الحُمَّى كِيرٌ مِن جهنَّمَ، فما أَصابَ المؤمِنَ منها كان حَظَّهُ مِن جهنَّمَ) .

قال ابن رجب -رحمه الله- : وفي مناسبة تكفيرها الذنوب كلها: أن الحمّى يأخذ منها كُل أعضاء البدن ومفاصله قسطَه من الألم والضعف، فيكفّر ذلك ذنوب البدن كلها.

وإذا كانت الحمّى بهذه المثابة، وأنها كفارة للمؤمن وطهارة له من ذنوبه، فهي حظه من النار؛ باعتبار ما سبق ذكره.

فإنه لا يحتاج إِلَى الطهارة بالنار يوم القيامة، إلا من لقي الله وهو متلطِّخ بخبث الذنوب.

وقال ابن رجب -رحمه الله- أيضًا : المؤمنون الذين كمل إيمانهم لا يحسُّون بحر جهنم، ولا يتأذون به عند الورود عليها، فيكون ما أصابهم في الدُّنيا من فَيْحِ جهنم بالحمّى هو حظهم من النار، فلا يحصل لهم شعور وإحساس بحر النار، سوى إحساسهم بحر الحمّى في الدُّنْيَا.

فهذا هو معنى ما ورد أن الحمّى حظ المؤمن من النار، وأنها حظهم من ورود النار يوم القيامة، والله أعلم .

٣-النهي عن سبِّ الحُمّى؛ لأن المرض وإن كان مؤلما، فقد يكون وراءه خير للعبد.

وقد جاء في رواية عند ابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال (لا تسبي الحمى؛ فإنها تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد) .

والعلة من النهي عن سب الحمى أن هذا فيه من التبرم والتضجر من قدر الله تعالى، مع ما فيها من تكفير السيئات وإثبات الحسنات.

وقد قال الزين العراقي: إنما جعلت الحمى حظ المؤمن من النار؛ لما فيها من الحر والبرد المغير للجسم، وهذه صفة جهنم؛ فهي (أي الحمى) تكفر الذنوب فتمنعه من دخول النار .

٤-المرض سبب لتكفير الذنوب؛ فالحُمّى من أسباب محو الخطايا بإذن الله.

٥-بيان رحمة الله بعباده؛ فقد يجعل الألم والمرض سببًا للأجر والتطهير من الذنوب.

٦-تشبيه بليغ: شبّه النبي ﷺ الحُمّى بالكِير، وهو منفاخ الحداد، الذي يُذهب خبث الحديد وشوائبه؛ فكذلك الحُمّى قد تُذهب ما علق بالإنسان من الخطايا.

٧-تعليم المسلم حسن التعامل مع البلاء؛ فلا يقابل المرض بالسخط والاعتراض، بل بالصبر واحتساب الأجر .

٨-حسن الظن بالله عند نزول البلاء: فالمؤمن لا ينظر إلى الألم من جهة المشقة فقط، بل يستحضر ما قد يترتب عليه من تكفير السيئات والأجر.

٩-أن المكاره قد تحمل في باطنها مصالح عظيمة: فقد يكره الإنسان المرض، بينما يكون فيه تطهير له من الذنوب.

١٠-فضل الصبر على المرض: فالحديث يرشد إلى عدم مقابلة الألم بالجزع والتسخط، بل بالصبر واحتساب الأجر.

١١-أن المؤمن يستطيع تحويل المحنة إلى عبادة: فالمرض نفسه ليس فعلًا اختياريًا، لكن الصبر والاحتساب وحسن الظن بالله أعمال قلبية يؤجر عليها.

١٢-التذكير بأن الدنيا دار ابتلاء، وأن المؤمن يتعامل مع ما ينزل به من سراء وضراء بما يرضي الله.

عن عَطَاء بْن أَبِي رَبَاحٍ قَالَ (قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى. قَالَ هَذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَتْ إِنِّي أُصْرَعُ وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ لِي. قَالَ « إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. قَالَتْ أَصْبِرُ. قَالَتْ فَإِنِّي أَتَكَشَّفُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا) .

[خ : ٥٦٥٢] .

==========

(**عطَاء بن أبي رَباحٍ**) القرشي مولاهم المكي، ثقة فقيه فاضل، مات سنة ١١٤ هـ.

(**أتَكَشَّفُ**) من التكشف، والمراد أنها خشيت أن تظهر عورتها وهي لا تشعر.

١ - الحديث دليل على أن الصبر على بلايا الدنيا يورث الجنة.

فهذا الحديث علق البشرى بالجنة على الصبر؛ وهذا يشير إلى عدم خصوصية هذا الفضل بهذه الصحابية رضوان الله عليها دون غيرها من المسلمين الصابرين .

ولذا تتابع أهل العلم على الإشارة إلى عموم هذا الفضل لكل صابر على المصائب المؤلمة.

فبّوب عليه البخاري رحمه الله تعالى بقوله: "بَابُ فَضْلِ مَنْ يُصْرَعُ مِنَ الرِّيحِ".

قال ابن هبيرة رحمه الله تعالى: في هذا الحديث ما يدل على من ابتلي بمثل ما ابتليت به هذه المرأة ، فصبر كما صبرت، كان له مثل ما وعدها رسول الله ﷺ؛ لأنه علل دخول الجنة بصبرها، فاختارت الصبر.

فاقتضى مفهومُ الخطاب أن كل من كانت حالُه مثل حالها ، وصبر ، مختارا للصبر على العافية: رجي له من فضل الله عز وجل ما رجي لها .

وقال ابن بطال رحمه الله تعالى: فيه فضل الصرع، وفيه أن اختيار البلاء، والصبر عليه: يورث الجنة.

وقال ابن حجر رحمه الله تعالى: وفي الحديث فضل من يصرع، وأن الصبر على بلايا الدنيا: يورث الجنة .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى: ففي هذا دليل على فضيلة الصبر، وأنه سبب لدخول الجنة.

٢ – الحديث دليل أن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة.

٣–قال ابن حجر: فيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء والالتجاء إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير، وأن تأثير ذلك وانفعال البدن عنه أعظم من تأثير الأدوية البدنية، لكن مع صدق القصد.

٤ – أن هذه المرأة من المبشرات بالجنة.

٥ – الحديث دليل على فضل الصبر على البلاء.

٦ – إيثار الصحابيات للآخرة على الدنيا.

٧ – أن الآخرة خير وأبقى.

٨ – الزهد في الدنيا، وأنه ينبغي أن تكون مزرعة للآخرة.

٩ – قرب النبي ﷺ من الناس واهتمامه بشؤونهم، وحرصه على ما فيه المنفعة لهم.

١٠ – استدل بحديث الباب من قال أن ترك التداوي أفضل، وقد اختلف العلماء في ذلك على أقوال:

القول الأول: تركه أفضل.

وهو المنصوص عليه في مذهب الحنابلة، ونقل عن الإمام أحمد أنه قال (أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي من شرب الدواء وغيره)، وقد كانت تكون به علل فلا يخبر الطبيب بها إذا سأله.

أ-عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال في السبعين الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ... هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. فَقَالَ: عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: نَعَمْ. فَقَامَ آخَرُ فقال: أَمِنْهُمْ أَنَا قَالَ: سَبَقَكَ عُكَّاشَةُ).

ب-ولحديث الباب (أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هذِهِ المَرْأَةُ السَّوداءُ أتتِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فادْعُ الله تَعَالَى لِي. قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوتُ الله تَعَالَى أَنْ يُعَافِيكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ ...).

ج- كما استدلوا بأن خَلقاً من الصحابة والتابعين لم يكونوا يتداوون، بل فيهم من اختار المرض، كأبي بن كعب، وأبي ذر -رضي الله عنهما-، ومع هذا فلم ينكر عليهم ترك التداوي.

القول الثاني: أنه مشروع.

لما ورد في شأنه في القرآن الكريم والسنة القولية والعملية، ولما فيه من (حفظ النفس) الذي هو أحد المقاصد الكلية من التشريع.

جمهور العلماء (الحنفية والمالكية) إلى أن التداوي مباح. وذهب الشافعية، والقاضي وابن عقيل وابن الجوزي من الحنابلة إلى استحبابه.

قال الشيخ ابن باز: الصواب في التداوي أنه مستحب مشروع ذكره النووي وآخرون عن جمهور العلماء، وأن قول الأكثرين أنه مستحب، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه مستوي الطرفين لا يستحب ولا يكره بل هو حلال. (الفتاوى)

أما إذا خشي الإنسان على نفسه التلف بتركه فإنه حينئذٍ يجب، وقد أخذ مجمع الفقه الإسلامي بالقول بوجوب التداوي إذا كان تركه يفضي إلى تلف النفس أو أحد الأعضاء أو العجز، أو كان المرض ينتقل ضرره إلى غيره، كالأمراض المعدية.

وهذا يؤخذ منه أن الدواء إذا تُيقن نفعه وكان المرض مما يخشى منه التلف، وجب التداوي، فيدخل في ذلك إيقاف النزيف، وخياطة الجروح، وبتر العضو التالف المؤدي إلى تلف بقية البدن، ونحو ذلك مما يجزم الأطباء بنفعه وضرورته، وأن تركه يؤدي إلى التلف أو الهلاك.

الأدلة على مشروعية التداوي:

أ- قال الله تعالى عن العسل (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ).

فهو دليل على جواز التداوي بشرب الدواء.

ب-عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ). رواه أبو داود

ج- عن أسامة بن شريك ﷺ قال: قالت الأعراب يا رسول الله ألا نتداوى؟ قال: نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلاَّ دَاءً وَاحِدًا» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ قَالَ: «الْهَرَمُ) رواه أبو داود.

د- عن أم قيس بنت محصن قالت سمعت النبي ﷺ يقول (عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِيِّ، فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ، يُسْتَعَطُ بِهِ مِنَ الْعُذْرَةِ، وَيُلَدُّ بِهِ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ) متفق عليه.

هـ- الأدلة على احتجام النبي ﷺ وأنه ﷺ كان يتداوى بالحجامة.

قال العثيمين رحمه الله: إذا غلب على الظن نفع الدواء مع احتمال الهلاك بتركه، فالتداوي واجب، وإن غلب على الظن نفع الدواء، ولكن ليس هناك احتمال للهلاك بترك الدواء، فالتداوي أفضل، وإن تساوى الأمران، فترك التداوي أفضل .

-وأجابوا عن أدلة أصحاب القول الأول:

أما حديث الصحيحين (يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) ففيه استحباب ترك الاسترقاء أي طلب الرقية من الغير، وليس فيه تعرض لحكم التداوي بالأدوية النافعة.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ولا يدخل في ذلك من عرض نفسه على الطبيب للدواء؛ لأن النبي ﷺ لم يقل: لا يتداوون؛ بل قال: (لا يكتوون ولا يسترقون) اللهم إلا أن يعلق الإنسان قلبه بالطبيب، ويكون رجاؤه وخوفه من المرض متعلقاً بالطبيب، فهذا ينقص توكله على الله عز وجل، فينبغي للإنسان إذا ذهب إلى الأطباء أن يعتقد أن هذا من باب بذل الأسباب، وأن المسبب هو الله سبحانه وتعالى وحده، وأنه هو الذي بيده الشفاء، حتى لا ينقص توكله.

• وأما حديث المرأة التي كانت تصرع وتتكشف، فهذا الحديث يدل على جوزا ترك التداوي في مثل هذه الحال، لمن قويت عزيمته وقدر على ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وَفِي الْحَدِيث فَضْل مَنْ يُصْرَع ، وَأَنَّ الصَّبْر عَلَى بَلَايَا الدُّنْيَا يُورِث الْجَنَّة ، وَأَنَّ الْأَخْذ بِالشِّدَّةِ أَفْضَل مِنْ الْأَخْذ بِالرُّخْصَةِ، لِمَنْ عَلِمَ مِنْ نَفْسه الطَّاقَة وَلَمْ يَضْعُف عَنْ اِلْتِزَام الشِّدَّة.

١١-وذكر الغزالي في إحياء علوم الدين أسباباً دعت بعض الصحابة والتابعين وتابعيهم على ترك التداوي، منها:

١ - أن يكون المريض قد علم بقرائن الأحوال أن مرضه مرض الموت، وأن الدواء بالتالي لا ينفعه، وهو ما حدث لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

٢ - أن يكون مشغولاً بمآله وخوف عاقبته حتى ينسيه ألم المرض. (مثل ما نقل عن أبي ذر الغفاري).

٣ - العلة مزمنة ويغلب على الظن عدم نفع الدواء، قال الغزالي: وأكثر من ترك التداوي من العباد والزهاد هذا مستندهم.

٤ - لينال ثواب الصبر على البلاء، وهو يطيقه وتكفير الذنوب لمن أسرف على نفسه.

٥ – لمن يعرف في نفسه الأشر والبطر ونسيان النعمة عند الصحة وحلول العافية، فإذا جاء المرض عرف ربه والتجأ إليه، فيترك التداوي حتى لا تعاوده الغفلة .

فائدة :

قال ابن القيم رحمه الله : ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير، والإحسان، والذكر، والدعاء، والتضرع والابتهال الى الله، والتوبة ولهذه الامور تأثير؛ في دفع العِلل، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية ولكن بحسب استعداد النفس، وقبولها، وعقيدتها في ذلك؛ ونفعه .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ) .

==========

(**الظلم**) وضع الشيء في غير موضعه.

(**فاستهدوني**) اطلبوا مني الهداية.

(**صعيد واحد**) أرض واحدة.

(**المخيط**) الإبرة.

(**أحصيها لكم**) أضبطها لكم.

١-منزلة هذا الحديث:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هذا الحديث شريف القدر، عظيم المنزلة؛ ولهذا كان الإمام أحمد يقول: هو أشرف حديث لأهل الشام، وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدَّث به جثا على ركبتيه.

وقال المناوي -رحمه الله- هذا الحديث شريف القدر، عظيم المنزلة، جليل الموقع، جامع لفوائد شتى، قد تضمن من قواعد الدين العظيمة: من العلوم، والأعمال، والأصول، والفروع، وغير ذلك مما لا يحصره قلم، ولا يحصيه

٢-الحديث دليل على عظيم رحمة الله بعباده ورفقه بهم حيث ناداهم بهذا اللفظ (يا عبادي) المشعر بالرحمة والرفق.

٣-أن لفظ (يا عبادي) فيه تذكير للعباد بالحكمة التي من أجلها خلقوا وهي عبادة الله.

قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وقد امتدح ربنا جل وعلا نبيه ﷺ وأثنى عليه ووصفه في أشرف مقاماته بوصف العبودية:

فقال سبحانه في الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى).

وفي مقام الدعوة قال سبحانه (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً).

وفي مقام التحدي قال سبحانه (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا).

٤-تحريم الظلم على الله، مع قدرته سبحانه وتعالى عليه.

كما قال تعالى (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

وقال تعالى (ومَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ).

وقال تعالى (ومَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ).

وقال تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) الهضم: أن يُنقص من جزاء حسناته، والظلم: أن يعاقب بذنوب غيره.

قال ابن رجب: وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكنه لا يفعله فضلاً منه وجوداً، وكرماً وإحساناً إلى عباده.

وقال الشيخ ابن عثيمين: وإنما قلنا مع قدرته عليه، لأنه لو كان ممتنعاً على الله لم يكن ذلك مدحاً ولا ثناءً، إذ لا يثنى على الفاعل إلا إذا كان يمكنه أن يفعل أو لا يفعل.

٥-أن الله لا يظلم لكمال عدله، وهكذا كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت ضده.

كقوله تعالى (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) لكمال عدله.

وقوله تعالى (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) لكمال علمه، لا يعزب: لا يغيب.

وقوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) لكمال قيوميته وحياته.

٦-تحريم الظلم بين الناس وذلك من وجهين:

الأول: أن الله عز وجل حرمه على نفسه، فإذا كان محرماً على الله مع كمال قدرته وسعة ملكه فحرمته على العبد أولى لظهور عجزه ونقص ملكهِ.

والآخر: أن الله جعله بيننا محرماً، فنهى عنه نهي تحريم.

والظلم ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: الشرك، وهو أعظم الظلم.

قال تعالى عن لقمان (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق، فعبده وتألهه، فوضع الأشياء في غير موضعها، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون كما قال تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

القسم الثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي.

قال تعالى (فمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه).

القسم الثالث: ظلم العباد بعضهم بعضاً، وهو المذكور في هذا الحديث.

قال تعالى (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ).

وهذا القسم هو المقصود بالحديث لقوله (فلا تظالموا).

٧-جاءت نصوص كثيرة تبين تحريم الظلم بين العباد:

ففي حديث الباب (فلا تظالموا).

قال النووي -رحمه الله- المراد: لا يظلم بعضكم بعضًا، وهذا توكيد لقوله تعالى (يا عبادي) (وجعلتُه بينكم محرمًا) وزيادة تغليظ في تحريمه. (شرح مسلم)

وقال رسول الله ﷺ (إن الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.

وقال ﷺ(إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا). متفق عليه

وقال ﷺ (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين) متفق عليه.

وقال ﷺ (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يأخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه، فطرحت عليه). رواه البخاري

وقال ﷺ (المسلم أخو المسلم ، لا يَظلمه ولا يخذله) .

والظلم ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: منع ما يجب لهم من الحقوق وهو التفريط، والثاني: فعل ما يضر به وهو العدوان.

٨ - الحديث دليل على وجوب العدل في جميع الأمور.

٩-الحديث دليل على أن الإنسان ضال إلا من هداه الله - فالإضلال بيد الله، فمن أضله الله فلا هادي:

قال تعالى (فيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً).

وقال تعالى (وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً).

وفي الحديث القدسي (كلكم ضال إلا من هديته).

ويقول الرسول ﷺ (والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) متفق عليه.

قال الشنقيطي: وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ وَلَا يُضِلَّهُ ; فَإِنَّ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لَا يَضِلُّ، وَمَنْ أَضَلَّهُ لَا هَادِيَ لَهُ، وَلِذَا ذَكَرَ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا.

وقال الشنقيطي أيضاً: قوله تعالى (أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ الله وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً).

أنكر تعالى في هذه الآية الكريمة على من أراد أن يهدي من أضله الله، وصرح فيها بأن من أضله الله لا يوجد سبيل إلى هداه، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً أولئك الذين لَمْ يُرِدِ الله أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ) وقوله (مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ).

١٠-الحديث دليل على أن المهتدي من هداه الله.

قال تعالى (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ).

وقال تعالى (مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي).

قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

وقال تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ).

وقال تعالى (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

وقال تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

وقال تعالى عن أهل الإيمان يوم القيامة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ).

١١-يجب سؤال الله الهداية، وقد أمرنا الله أن نسأله إياها في أعظم سورة.

قال تعالى (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ).

وكان رسول الله ﷺ يقول (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم.

وكان يقول أيضاً (اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم).

وعلم الحسن أن يقول في الدعاء (اللهم اهدني فيمن هديت).

وأمر علياً أن يسأل الله السداد والهدى.

قال ابن القيم: فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر.

١٢-يجب على المسلم أن يعمل بأسباب الهداية وأن يحرص عليها.

قال ابن القيم: ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب، علّم الله عباده سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يده حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم.

١٣-الحذر من الأسباب التي تعيق الإنسان عن الهداية.

قال ابن القيم: ولينظر إلى الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه.

١٤-**قال ابن حجر الهيتمي** -رحمه الله-: وحكمة طلبه تعالى منا سؤاله الهداية: إظهار الافتقار والإذعان، والإعلام بأنه لو هداه قبل أن يسأله لربما قال (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) فيضلّ بذلك، فإذا سأل ربه فقد اعترف على نفسه بالعبودية، ولمولاه بالربوبية، وهذا مقامٌ شريفٌ، وشهودٌ منيف، لا يتفطَّن له إلا الموفَّقون، ولا يعلم قدر عظمته إلا العارفون.

١٥-بطلان قول من يقول: إذا كنا مهتدين، فكيف نسأل الهداية؟

لأن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه – مما نريده – كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله، أمر يفوق الحصر.

١٦–قوله (... كلكم جائع إلا من أطعمته).

هذا يقتضي غنى الله سبحانه وتعالى، وأن العباد كلهم مفتقرون إلى الله في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق، فإنه يُحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوْبَقَتْه خطاياه في الآخرة.

قال تعالى (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وقال تعالى (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً).

وقال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا).

وقال تعالى (فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ).

وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بهذه الأمور على أنه لا إله غيره، وأن كل ما أشرك معه باطل، فقال لقومه (قال أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ. وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) فإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا، وبمغفرة ذنوبه في الآخرة، مستحق أن يتفرد بالإلهية والعبادة والسؤال والتضرع إليه والاستكانة له قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون).

فالناس غالبًا ما يعلِّقون طلب الرزق بالأسباب، وينسَون خالق الأسباب؛ وهو القائل (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا).

١٧-**قال ابن تيمية** -رحمه الله-: أما قوله (كلُّكم جائع إلا من أطعمتُه ..) فيقتضي أصلين عظيمين: أحدهما: وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس، وأنه لا يقدِر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة، وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك، ولهذا قال (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوف) وقال (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) فذمَّ مَن يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القَدَر، ومن هنا يُعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب، بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب؛ إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب، ولهذا لا يجب أن تَقترن الحوادث بما قد يجعل سببًا إلا بمشيئة الله تعالى، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل، وأخلَّ بواجب التوحيد، ولهذا يُخذل أمثال هؤلاء.

١٨-الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة.

وفي الحديث قال ﷺ (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسع نعله إذا انقطع).

وقال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه) رواه ابن ماجه.

واستحق الغضب لأمرين:

الأول: لأنه ترك محبوباً لله، فإن الله يحب أن يسأل، ذكر ذلك المناوي.

والثاني: لأنه ترْك الدعاء دليل على الاستغناء عن الله، ذكر ذلك المباركفوي.

١٩-قوله (**فاستطعموني**).

قال السندي -رحمه الله- (فاستطعموني) فاطلبوا مني الطعام (أُطْعِمْكم) ولا تطلبوه من غيري، فإن الغني الجواد لا يرضى أن يَسأل عبيدُه غيرَه. .

وقال ابن حجر الهيتمي –رحمه الله– (فاستطعموني) أي: سلوني واطلبوا مني الطعام، ولا يغرَّنَّ ذا الكثرة ما في يده، فإنه ليس بحوله وقوَّته، بل اللَّه تعالى هو المتفضِّل به عليه، فينبغي له مع ذلك ألَّا يغفل عن سؤال اللَّه تعالى إدامةَ نعمته عليه؛ لئلَّا تَنفر عنه فلا تعود إليه. .

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– قوله (استطعموني) يَشْمل سؤال الله –عزَّ وجلَّ– الطعام، ويشمل السعي في الرزق وابتغاء فضل الله –عزَّ وجلَّ– كما قال تعالى في سورة الجمعة (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وقال ابن الملقن –رحمه الله– وفيه: تأديب للفقراء، أي: اطلبوا مني، فأنا الذي أطعمهم (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) فالرب –جلَّ جلاله– يسخِّر السحاب، ويسقي البلاد، ويحرك القلوب للإعطاء، ويحوج بعضًا إلى بعض للنفع، وتصرُّفه في عالَمِه عجيب يعجز عنه الفَطِنُ اللبيب.

٢٠–قوله (**كلكم عار إلا من كسوته**).

قال ابن هبيرة : فيه من الفقه: أن الكِسَا من الله تعالى متنوعة، فقد يكسو من عري جسدًا، وقد يكسو بالستر الجميل.

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– فمن حِكمته تعالى: أنَ جَعَلنا نخرج باديةً أبشارنا، باديةً جلودنا، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عورتنا حسًّا، كما أننا محتاجون إلى عملٍ صالح يستر عورتنا معنى؛ لأن التقوى لباس، كما قال تعالى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) فأنت انظر في نفسك تجد أنك محتاج إلى الكسوة الحسية؛ لأنك عارٍ، كذلك أيضًا محتاج إلى الكسوة المعنوية –وهي العمل الصالح–؛ حتى لا تكون عاريًا، ولهذا ذَكَر بعض العابرين للرؤيا أن الإنسان إذا رأى نفسه في المنام عاريًا فإنه يحتاج إلى كثرة الاستغفار؛ لأن هذا دليل على نقصان تقواه؛ فإن التقوى لباس.

وقال ابن رجب –رحمه الله– وهذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأنَّ العباد لا يملكون لأنفسهم شيئًا من ذلك

كله، وأنَّ من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته خطاياه في الآخرة.

٢١-إثبات غنى الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

٢٢-أن ابن آدم كثير الخطأ.

كما قال تعالى (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً).

وقال ﷺ (كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون) رواه الترمذي.

وفي حديث الباب (.. إنكم تخطئون بالليل والنهار ..).

٢٣-كرم الله وإحسانه حيث دعا عباده - مع ظلمهم بالمعاصي والذنوب - إلى عفوه وغفرانه.

فقال تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

وقال سبحانه (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

وقال سبحانه (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ).

٢٤-وجوب الاستغفار من الذنوب كلها لقوله (فاستغفروني أغفر لكم).

قال تعالى (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ).

وقال تعالى (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً).

وقال سبحانه (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً).

وقال ﷺ (أني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) رواه مسلم.

وقال ﷺ (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) رواه البخاري.

والاستغفار يكون على وجهين:

الوجه الأول: طلب المغفرة بلفظ: اللهم اغفر لي، أو أستغفر الله.

الوجه الثاني: طلب المغفرة بالأعمال الصالحة التي تكون سبباً لذلك، فمن قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفرت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر.

٢٥-كمال سلطان الله وغناه عن خلقه لقوله عز وجل (إنكم لن تبلغوا ضري ... ولن تبلغوا نفعي).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وذلك لكمال سلطانه عز وجل وكمال غناه، فكأنه تعالى قال: إنما طلبت منكم الاستغفار من الذنوب لا لحاجتي لذلك ولا لتضرري بمعاصيكم ولكن المصلحة لكم.

قال ابن رجب رحمه الله: يعني أن العباد لا يقدرون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ولا ضراً، فإن الله تعالى في نفسه غني حميد، لا حاجة له بطاعات العباد، ولا يعود نفعها إليه، وإنما هم ينتفعون بها، ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها.

قال تعالى (وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً).

وقال تعالى (وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً).

وقال تعالى (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً).

وقال تعالى (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ).

والمعنى: أنه تعالى يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه، ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض، وطلبها حتى أعيي وأيس منها، واستسلم للموت، وأيس من الحياة، ثم غلبته عينه فنام، واستيقظ وهي قائمة عنده، وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح، هذا كله مع غناه عن طاعات عباده وتوباتهم إليه، وإنه إنما يعود نفعها إليهم دونه، ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده، ومحبته لنفعهم ودفع الضر عنهم.

٢٦-**قال ابن تيمية** -رحمه الله-: قوله (إنكم لن تبلغوا ضري ... ولن تبلغوا نفعي).

بيَّنَ بذلك أنه ليس هو فيما يحسن به إليهم من إجابة الدعوات، وغُفران الزلات، بالمستعيض بذلك منهم جلب منفعة، أو دفع مضرة، كما هي عادة المخلوق الذي يُعطي غيره نفعًا؛ ليكافئه

عليه بنفع، أو يدفع عنه ضررًا؛ ليتَّقِي بذلك ضرره، فقال: «إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني» فلست إذاً أَخَصُّكم بهداية المستهدي وكفاية المستكفي المستطعم والمستكسي بالذي أطلب أن تنفعوني، ولا أنا إذا غَفَرت خطاياكم بالليل والنهار أَتَّقِي بذلك أن تضروني، فإنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني؛ إذ هم عاجزون عن ذلك، بل ما يَقْدِرون عليه من الفعل لا يقدرون عليه إلا بتقديره وتدبيره، فكيف بما لا يَقدرون عليه؟ فكيف بالغني الصمد الذي يمتنع عليه أن يستحق من غيره نفعًا أو ضرًّا؟

وقال السندي –رحمه الله– (ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني) لأنكم عاجزون، وأنا لا أحتاج إلى شيء، ولا أنتفع به؛ إذ أمري أعلى من ذلك وأعظم، سبحانه ما أعظم شأنه.

٢٧–قوله (**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل** ...).

في هذا إشارة إلى أن ملك الله لا يزيد بطاعة الخلق، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على أتقى رجل منهم، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على أفجر رجل منهم، فإنه سبحانه الغني بذاته عما سواه، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله، فمُلكُه ملكٌ كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان.

٢٨–قوله (**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي** ...).

في هذا كمال ملك الله وكمال قدرته، وأن ملكه وخزائنه لا تنفذ بالعطاء، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد.

قال ابن رجب –رحمه الله– المراد بهذا: ذكر كمال قُدرته سبحانه، وكمال مُلكه، وأنَّ مُلكه وخزائنه لا تنفد، ولا تَنقص بالعطاء، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد، وفي ذلك حث للخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال (يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه. ... (جامع العلوم)

وقال تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ).

وقال ابن هبيرة –رحمه الله– في هذا التنبيه للخلق على أن يعظِّموا المسألة، ويوسِّعوا الطلب، ولا يقتصر طالب ولا يختصر سائل؛ فإن ما عند الله لا ينقص.

٢٩–قوله (... **مَا نَقَصَ ذلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلاَّ كما يَنْقصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ**).

قال النووي –رحمه الله–قال العلماء: هذا تقريب إلى الأفهام.

وقال النووي –رحمه الله– أيضاً: ضَرَب المثل بالمخيط في البحر؛ لأنه غاية ما يُضرب به المثل في القِلَّة.

وقال البيضاوي –رحمه الله– المِخْيَط: بكسر الميم وسكون الخاء: الإبرة، وغمسها في البحر وإن لم يخلُ عن نقص ما، لكنه لَمَّا لم يظهر ما ينقصه للحس، ولم يعتد به العقل، وكان أقرب المحسوسات نظيرًا ومثالًا، شبه به صرف ملتمسات السائلين مما عنده، فإنه لا يغيضه مثل ذلك، ولا أقل منه.

وقال القاضي عياض –رحمه الله– (وهذا) غاية في باب التمثيل في هذا، ويقرِّب لك أفهام بما يشاهد، فإن ماء البحر من أعظم المرئيات عيانًا وأكثرها، ودخول المخيط فيه، وهي الإبرة التي يُخَاط بها، وخروجها لا ينقص شيئًا؛ إذ لا يعْلَق بها من ماء البحر شيء لصقالتها.

وقال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– فضرب ذلك مثلًا لخزائن رحمة الله تعالى وفضله؛ فإنها لا تنحصر ولا تتناهى، وأن ما أعطي منها من أول خَلْق المخلوقات، وما يعطي منها إلى يوم القيامة لا يُنقص منها شيئًا، وهذا نحو قوله ﷺ في الحديث الآخر: «يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار، لا يغيضها شيء، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، لم يغض ما في يمينه» وسر ذلك: أن قدرته صالحة للإيجاد دائمًا، لا يجوز عليها العجز والقصور، والممكنات لا تنحصر ولا تتناهى، فما وجد منها لا ينقص شيئًا منها.

وقال ابن حجر الهيتمي –رحمه الله– وحكمة ضرب المثل هنا بما ذُكر: أنه غاية ما يُضرب به المثل في القلَّة؛ إذ البحر من أعظم ما يُعَايَن، والإبرة من أصغره، مع أنها صقيلةٌ لا يتعلَّق بها ماءٌ إلا ما لا يمكن إدراكه كمًّا، وفي هذا تنبيهٌ أيُّ تنبيهٍ للخلق على إدامتهم لسؤاله تعالى مع إعظام

الرغبة وتوسيع المسألة، فلا يختصر سائلٌ، ولا يقتصر طالبٌ؛ لما تقرر أن خزائن الرحمة سحَّاء الليل والنهار، لا يَغيضها الإعطاء وإن جلَّ وعظم.

٣٠-قوله ﷺ **(فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلزمن إلا نفسه)** .

له معنيان صحيحان:

الأول: أن من وجد خيراً في الدنيا فليحمد الله على ما عجّل له من جزاء عمله الصالح، ومن وجد غير ذلك فهو مأمور بلوم نفسه على الذنوب التي وجد عاقبتَها في الدنيا.

والثاني: أن من وجد خيراً في الآخرة فإنه يحمد الله عليه، ومن وجد غيره فإنه يلوم نفسه ولات حين مندم.

٣١-قوله **(فمن وجد خيراً ...)**.

قال ابن رجب -رحمه الله- إشارة إلى أن الخير كله من الله فضل منه على عبده، من غير استحقاق له، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه، كما قال -عزَّ وجلَّ- (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ).

وقال ابن تيمية -رحمه الله-فقد بيَّن هذا الحديث أنَّ من وجد خيرًا بالعمل الصالح فليحمد الله؛ فإنه هو الذي أنعم بذلك، وإن وجد غير ذلك: إما شرًّا له عقاب وإما عبثًا لا فائدة فيه فلا يلومنَّ إلا نفسه، فإنه هو الذي ظلم نفسه، وكل حادث فبقدرة الله ومشيئته.

وقال ابن تيمية -رحمه الله- أيضًا: بيَّن أنه محسن إلى عباده في الجزاء على أعمالهم الصالحة إحسانًا يستحق به الحمد؛ لأنه هو المنعِم بالأمر بها، والإرشاد إليها والإعانة عليها، ثم إحصائها ثم توفية جزائها، فكل ذلك فضل منه وإحسان؛ إذ كلُّ نعمة منه فضل، وكلُّ نقمةٍ منه عدل.

٣٢-قوله **(يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم)** فيه أن الله يحصي أعمال العباد ويضبطها، فلا يظلم عنده أحد.

قال تعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).

وقال تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ).

وقال تعالى (ووَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً).

وقال سبحانه (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ).

وقال سبحانه (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا).

قال ابن رجب -رحمه الله- قوله (إنما هي أعمالكم أحصيها لكم) يعني: أنه سبحانه يحصي أعمال عباده، ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها، وهذا كقوله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

وقال المناوي -رحمه الله- لما بيَّن الله -جلَّ جلاله- كمال قُدرته، وتمام مُلكه، وسِعة نعمائه، وقوة نُفوذه، أراد أن يبين لخلقه: أنه تعالى ذكره مع كونه موصوفًا بهذه الصفات الفائقة الحد والحصر، فلا يَترك لعبد من عباده عملًا من الأعمال قلَّ أو كثر، صغر أو عَظُم، خيرًا أو شرًّا إلا أحصاه، وكتبه عليه، ثم يرد عليه جزاء ذلك، ويوفِّيه له على حسبه تامًا لا يُنقص منه شيئًا.

٣٣-قوله (**لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**).

دليل على عظمة ما عند الله من عدة أوجه، وهي:

أ- أن السائلين هم الخلق جميعًا أولهم وآخرهم لقوله: "أولكم وآخركم".

ب- أن من ضمن السائلين الجن أيضا لقوله: "وجنكم".

ج- أن هؤلاء السائلين جميعا قاموا في مكان واحد، فكانت حاجاتهم في وقت واحد ومكان واحد، ولا شك أن هذا أعظم في دلالته على ما عند الله مما لو كانوا متفرقين.

٣٤-أن الله يوفي عباده يوم القيامة على حسب أعمالهم فلا يظلم عنده أحداً.

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وقال تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ).

٣٥-وجوب حمد الله على من وجد خيراً، لأن الله يسرها عليه، ثم أثابه عليها.

٣٦-حفظ الله للأعمال.

٣٧-محاسبة النفس على التفريط.

٣٨-الحث على الدعاء والمسألة: حيث تكرر في الحديث: فاستهدوني، فاستطعموني، فاستكسوني، فاستغفروني، وهذا يدل على محبة الله لسؤال عباده له.

٣٩-سعة خزائن الله وعطائه ولو أعطى جميع الخلق كل ما طلبوا، لم ينقص ذلك من ملكه إلا كنقص الإبرة إذا غُمست في البحر.

٤٠-إثبات الحساب والجزاء فالله يحصي الأعمال كلها ثم يوفي العباد جزاءها كاملًا يوم القيامة.

٤١-التربية على حسن الظن بالله، فالحديث مليء بالرحمة والكرم والستر والمغفرة والإجابة، ومن أجمع ما قيل في ٤٢- أن الله سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم إذ دعاهم إلى ما ينفعهم، وحذرهم مما يضرهم، مع غناه التام عنهم.

٤٣-إثبات كتابة الأعمال وإحصائها بدقة

٤٤-وفيه تذكير بمراقبة الله في السر والعلن.

٤٥-دل قوله (فمن وجد خيرًا فليحمد الله) أن دخول الجنة يكون بفضل الله وحده، وليس بمجرد الأعمال، فإن أعمال العباد لا تؤهل الإنسان لدخول الجنة، وإنما يدخلها المؤمنون بفضل الله، ويؤيده قوله ﷺ : لن يدخل أحدًا عملُهُ الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته.

٤٦-قوله (فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي) مرادف لقوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ) .

[خ : ٢٤٤٧] .

==========

(**اتقُوا الظُّلْمَ**) أي: اجعلوا بينكم وبينه وقاية تمنعكم من الوقوع فيه.

(**فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ**) هو على ظاهره، فيكون ظلمات على صاحبه، لا يهتدي يوم القيامة سبيلاً حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم.

(**وَاتَّقُوا الشُّحَّ**) وهو أشد من البخل، وأبلغ في المنع من البخل، وقيل: هو البخل مع الحرص.

(**حَمَلَهُمْ**) أي: أغراهم الشح.

(**عَلَى أنْ سَفَكُوا دِمَاءهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُم**) هذا هو الهلاك الذي حمل عليه الشح.

١ – الحديث دليل على تحريم، فيحرم على الإنسان أن يظلم غيره حقوقه.

لقوله (اتَّقُوا الظُّلْمَ) .

قال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– (اتقوا الظلم) أي: احذروه، واتخذوا وقاية منه، وابتعدوا عنه. والظلم: هو العدوان على الغير، وأعظم الظلم وأشدّه: الإشراك بالله –عز وجل–، قال الله تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) .

ويشمل الظلم: ظلم العباد، وهو نوعان: ظلم بتَرْك الواجب لهم، وظلم بالعدوان عليهم بأخذٍ، أو بانتهاك حرماتهم.

٢–قوله (**فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**) .

قال القاضي عياض –رحمه الله– قوله (الظلم ظلمات يوم القيامة) قيل: ظاهره أنه ظلمات على صاحبه حتى لا يهتدي يوم القيامة سبيلًا، حيث يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم.

وقد تكون الظلمات هنا: الشدائد، وبه فَسَّروا قوله تعالى (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) أي: شدائدهما ، وقد تكون الظلمات هاهنا عبارة عن الأنكال والعقوبات عليه .

وقال القرطبي –رحمه الله– وقوله (فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة) ظاهره: أنَّ الظالم يُعاقَبُ يوم القيامة؛ بأن يكون في ظلمات متوالية، يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، حين (يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالمنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقتَبِس مِن نُورِكُم) فيقال لهم (ارجِعُوا وَرَاءَكُم فَالتَمِسُوا نُورًا).

وقيل: إن معنى الظلمات هنا: الشدائد والأهوال التي يكونون فيها، كما فُسِّر بذلك قوله (قُل مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ) أي: من شدائدهما، وآفاتهما. والأول أظهر .

وقال ابن هبيرة -رحمه الله- في هذا الحديث من الفقه: أن الظلم إنما كان من عدم نور الظالم وإبصاره الأشياء كما هي، فإنه لو نَظَرَ بعين بصيرته إلى أنه عن قليل يخرج عما ظلم فيه إلى مقر آخر يجده المظلوم فيه فردًا لا يُحال بينه وبينه؛ لكان قد امتنع أن يظلم صاحبه، فلما لم ينْتهِ عن ظلم أخيه كان ذلك على مثل ظُلْمة الليل المتصل من دنياه إلى أُخراه، وليس له هناك ما يجلو عن شيء من الظُّلمة، فكان متنقلًا من ظُلْمة إلى ظُلْمة، والنار مُظْلِمة سوداء .

وقال المناوي -رحمه الله- (فإن الظلم) في الدنيا (ظلمات) على أصحابه في الدنيا، بمعنى أنه يُورث ظُلْمةً في القلب، فيصير صاحبه في ظلمات «يوم القيامة» فلا يهتدي بسببه يومَ يسعى نور المؤمنين بين أيديهم، فالظُّلْمَة حسيَّة، وقيل: هي معنوية، شبَّهَ الضلال بالظُّلمة كما تُشَبَّه الهداية بالنور .

٣- وفي هذا دليل على أن الظلم من كبائر الذنوب .

قال ابن رجب: فظلمُ العباد شرٌّ مكتسب؛ لأنَّ الحق فيه لآدمي مطبوع عَلَى الشُّح، فلا يترك من حقه شيئًا، لاسيما مع شدة حاجته يوم القيامة، فإنَّ الأم تفرحُ يومئذ إذا كان لها حقٌّ عَلَى ولدها، لتأخذه منه.

ومع هذا، فالغالبُ أنَّ الظالم تُعجَّل له العقوبة في الدُّنْيَا وإنْ أُمهل؛ كما قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ) قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ).

قال بعضُ أكابر التابعين لرجل: يا مُفلس. فابتُلي القائل بالدَّين والحبس، بعد أربعين سنة.

وضَرب رجلٌ أباه وسحبه إِلَى مكان، فَقَالَ الَّذِي رآه: إِلَى ها هنا! رأيتُ هذا المضروب قد ضَرب أباه، وسحبه إِلَيْهِ.

٤-والظلم سبب الهلاك:

فكم قصَّ الله تعالى علينا في القرآن الكريم من قصص الغابرين، الذين تعرَّضوا لسخط الله وعذابه، فكان مصيرهم الهلاك والدمار، وحينما عزا الله هذا الهلاكَ لسببٍ، كان الظلم هو السبب:

قال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِين) .

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا) .

وقال تعالى (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

ذكرتْ كتب التاريخ أنَّ أحد وزراء بني العبَّاس اغتصَب مزرعةً لامرأة عجوز، فرفعتْ إليه المرأة تَشكو وتترجَّى، ثم شفَّعتْ إليه مَن يردُّ عليها مزرعتها، فأبَى الوزير.

فقالت العجوز: واللهِ لأدعونَّ عليك، فقال لها الوزير ساخرًا: عليكِ بالثُّلُث الأخير مِن الليل! فلزمتِ المرأةُ المكلومةُ أسحارَ الليل، تدعو على مَن ظلَمها، فإذا سهامُ الليل تبلغ آجالَها، فحلَّت به العقوبةُ الإلهيَّة في الظُّلمة، فنكبَه الله على يدِ الخليفة، فقطَع يدَه، ثم بعدَ أسبوع قطَع رأسه، فمرَّتْ به المرأة العجوز وأنشدَت متشفِّية:

إِذَا جَارَ الوَزِيرُ وَكَاتِبَاهُ وَقَاضِي الأَرْضِ أَجْحَفَ فِي القَضَاءِ

فَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِقَاضِي الأَرْضِ مِنْ قَاضِي السَّمَاءِ

٥ – أن الله تعالى حرم الظلم على نفسه مع قدرته سبحانه وتعالى عليه كما تقدم في الحديث القدسي (يَا عِبَادي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسي وَجَعَلْتُهُ بيْنَكم مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا).

كما قال تعالى (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

وقال تعالى (ومَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ).

وقال تعالى (ومَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ).

وقال تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ).

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) الهضم: أن يُنقص من جزاء حسناته، والظلم: أن يعاقب بذنوب غيره.

قال ابن رجب: وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكنه لا يفعله فضلاً منه وجوداً، وكرماً وإحساناً إلى عباده.

وقال الشيخ ابن عثيمين: وإنما قلنا مع قدرته عليه، لأنه لو كان ممتنعاً على الله لم يكن ذلك مدحاً ولا ثناءً، إذ لا يثنى على الفاعل إلا إذا كان يمكنه أن يفعل أو لا يفعل.

٦ – أن الله لا يظلم لكمال عدله، وهكذا كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت ضده.

كقوله تعالى (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) لكمال عدله.

وقوله تعالى (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) لكمال علمه، لا يعزب: لا يغيب.

وقوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) لكمال قيوميته وحياته.

٧ – تحريم الظلم بين الناس وذلك من وجهين:

الأول: أن الله عز وجل حرمه على نفسه، فإذا كان محرماً على الله مع كمال قدرته وسعة ملكه فحرمته على العبد أولى لظهور عجزه ونقص ملكهِ.

والآخر: أن الله جعله بيننا محرماً، فنهى عنه نهي تحريم.

والظلم ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: الشرك، وهو أعظم الظلم.

قال تعالى عن لقمان (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)، فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق، فعبده وتألهه، فوضع الأشياء في غير موضعها، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون كما قال تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

القسم الثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي.

قال تعالى (فمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه).

القسم الثالث: ظلم العباد بعضهم بعضاً، وهو المذكور في هذا الحديث.

قال تعالى (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ).

وهذا القسم هو المقصود بالحديث لقوله (فلا تظالموا).

وقد جاءت نصوص كثيرة تبين تحريم الظلم:

قال رسول الله ﷺ (إن الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.

وقال ﷺ (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه

وقال ﷺ (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين) متفق عليه.

وقال ﷺ (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يأخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه، فطرحت عليه) رواه البخاري.

وقال ﷺ (المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه) .

والظلم ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: منع ما يجب لهم من الحقوق وهو التفريط، والثاني: فعل ما يضر به وهو العدوان.

٨ – التحذير من الشح.

لقوله (واتقوا الشح) .

قال الملا علي : وأَفْرَد الشّحَّ بالذكر تنبيهًا على أنه أعظم أنواع الظلم، فإنه مَنْشَأُ المفاسد العظيمة، ونتيجة محبة الدنيا الذميمة .

وقال المناوي –رحمه الله– : والخطاب للمؤمنين ردعًا لهم من الوقوع فيما يؤديهم إلى دركات الهالكين من الكافرين الماضين، وتحريضًا على التوبة والمسارعة إلى نيل الدرجات مع الفائزين..

وقال المناوي –رحمه الله– أيضًا : ومن السياق عُرف أن مقصود الحديث بالذات ذكْر الشُّح، وذِكْر الظلم توطئة وتمهيدًا لذكْرِه، وأبرزه في هذا التركيب إيذانًا بشدة قبح الشح، وأنه يُفضي بصاحبه إلى أفظع المفاسد؛ حيث جعله حاملًا على سفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة، وأخبث العواقب الوخيمة (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

قال بعض العارفين: الشح مسابقةُ قَدَرِ الله، ومَن سابَق قَدَر الله سبَق، ومُغَالَبة لله، ومَن غالَبَ الحقَّ غُلِبَ؛ وذلك لأن الحريص يريد أن ينال ما لم يُقدَّر له، فعقوبته في الدنيا الحرمان، وفي الآخرة الخسران.

٩-خطر الشح .

فهو سبب للظلم.

كما في حديث الباب (حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم).

وعند أبي داود (أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا).

قال ابن الجوزي -رحمه الله- وذلك لأنهم تشَاحّوا على الملك والمال والرئاسة، واقتتلوا فهلكوا.

وقال الصنعاني رحمه الله-: قوله (فإنه أَهْلَكَ مَن كان قبلكم) يحتمل: أنه يريد الهلاك الدنيوي المفسَّر بما بعده في تمام الحديث، وهو قوله: «حَمَلَهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»، وهذا هلاك دنيوي، والحامل لهم هو شُحُّهم على حفظ المال وجَمْعِه، وازديادِه وصيانته عن ذهابه في النفقات، فضَمُّوا إليه مال الغير؛ صيانة له، ولا يُدرَكُ مالُ الغير إلا بالحرب، والغَضَبِيَّة المفْضِية إلى القتل، واستحلال المحارم.

ويحتمل : أن يراد به الهلاك الأخروي ، فإنه يتفرَّع عما اقترفوه من ارتكاب هذه المظالم، والظاهر حمله على الأمرين .

وقال موسى شاهين-رحمه الله-: ومناسبة التحذير من الشح بعد التحذير من الظلم: أنَّ الشُّح نوع من الظلم، فهو من قبيل ذكر الخاص بعد العام؛ لمزيد عناية بالخاص، والشحُّ غالبًا دافع الظلم، فكلاهما يَنْشأ عن حبِّ الذات، وحبِّ السيطرة، وحبِّ التَّملك، والشحيح ظالم لنفسه، وظالم لغيره، ظالم لنفسه ومُجْهِدها ومُتْعِبها: بالإفراط في الحرص، ومُوْبِقها ومُهْلكها يوم القيامة، ظالم لنفسه: ببعْثِه الحقد والحسد والبغض في نفوس الآخرين، حتى يصبح منبوذًا في مجتمعه، وظالم لغيره: بمنعه حق الغير في ماله، وفي صحته وصنعته، ففي كل عضو من أعضاء الإنسان صدقة يومية، يعين أخاه، ويحمل له، أو يعمل ويتصدق، أو يصنع لأخرق .

قوله (حَمَلَهُم على أن سَفَكوا دماءهم، واسْتَحَلُّوا محارمهم) .

قال ابن الملك -رحمه الله- أي: حرَّضَهم على جمع المال، حتى قتلَ بعضُهم بعضًا لأخذه.

«واسْتَحَلُّوا محارمهم» أي: جعلوا المحرَّمَ عليهم من وطءِ نسائهم حلالًا..

وقال القرطبي -رحمه الله- هذا هو الهلاك الذي حَمَل عليه الشحُّ؛ لأنَّهم لما فعلوا ذلك أتْلَفوا دنياهم وأخراهم، وهذا كما قال في الحديث الآخر: «إياكم والشحَّ؛ فإنَّه أهْلَكَ من كان قبلكم، أَمَرَهُم بالبخل فبَخِلوا، وأَمَرَهُم بالقطيعة فقَطَعُوا، وأَمَرَهُم بالفُجور فَفَجَرُوا» أي: حملهم على ذلك.

وأخبر تعالى أن من وقي شح نفسه فقد أفلح.

فقال تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

والشُّح يُهلك صاحبه، وإذا شاع في المجتمعات مزقها وأهلكها.

قال ﷺ (... وأما المهكات: فشحٌ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه) رواه أحمد.

وهو مُنافٍ للإيمان.

ولهذا قال ﷺ (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبدًا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا). رواه النسائي

وهو شر خصال الرجل.

قال ﷺ (شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع) رواه أبو داود.

وانتشاره من علامات الساعة.

قال ﷺ (يتقارب الزمان، وينقص العمل، ويلقى الشح، ويكثر الهرج).

قال ابن حجر-رحمه الله-عند قوله (ويلقى الشح) إلقاؤه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم؛ حتى يبخل العالم بعلمه فيترك التعليم والفتوى، ويبخل الصانع بصناعته حتى يترك تعليم غيره، ويبخل الغني بماله حتى يهلك الفقير.

وقال ابن القيم رحمه الله: الشح: هو شدّة الحرص على الشيء، والإخفاء في طلبه، والاستقصاء في تحصيله، وجشع النفس عليه.

والبخل: منع إنفاقه بعد حصوله، وحبه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله، بخيل بعد حصوله.

فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل، والشح كامن في النفس؛ فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووُقِي شره، وذلك هو المفلح (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

وقال أيضاً: الاقتصاد خلق محمود، يتولد من خلقين: عدل وحكمة ... وهو وسط بين طرفين مذمومين، ... والشح: خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعاً، والهلع: شدة الحرص على الشيء والشره به.

قال ابن رجب: قال طائفةٌ من العُلَمَاء: الشحُّ هو الحرصُ الشديدُ الَّذِي يحمل صاحبَه عَلَى أن يأخذَ الأشياءَ من غير حلِّها ويمنعها من حقوقها.

وحقيقتُه : شَرَّهُ النَّفس إِلَى ما حرَّمَ الله ومنع منه، وأن لا يقنعَ الإنسانُ بما أحل الله له من مالٍ أو فرجٍ أو غيرهما، فإن الله تعالى أحلَّ لنا الطيبات من المطاعم والمشارب، والملابس والمناكح وحرَّمَ علينا تناول هذه الأشياء من غير وجوه حلِّها، وأباح لنا دماءَ الكفارِ والمحاربين وأموالَهم، وحرَّم علينا ما عدا ذلك من الخبائثِ من المطاعم والمشارب، والملابس والمناكح، وحرم علينا أخذَ الأموال وسفك الدماء بغير حلها.

فمن اقتصرَ عَلَى ما أبيحَ له فهو مؤمنٌ، ومن تعدَّى ذلك إِلَى ما منعَ منه فهو الشحُّ المذمومُ، وهو مناف للإيمان.

ولهذا أخبر النبيّ ﷺ أنَّ الشُّحَّ يَأْمرُ بالقطِيعةِ والفجورِ وبالبخل.

– وإضافتُهُ إلى النفسِ لأنَّه غريزةٌ فيها مقتضيةٌ للحرصِ على المنعِ الذي هو البخلُ، ولهذا قال تعالى (وأحضرت الأنفس الشح).

قال ابن عاشور: في قوله تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) وأضيف في هذه الآية إلى النفس لأنه غريزة لا تسلم منها نفس.

قال الشنقيطي: ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الأنفس أحضرت الشح أي: جعل شيئاً حاضراً لها كأنه ملازم لها لا يفارقها. لأنها جبلت عليه ... وأشار في موضع آخر: أنه لا يفلح أحد إلا إذا وقاه الله شح نفسه وهو قوله تعالى (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون) ومفهوم الشرط أن من لم يوق شح نفسه لم يفلح وهو كذلك، وقيده بعض العلماء بالشح المؤدي إلى منع الحقوق التي يلزمها الشرع، أو تقتضيها المروءة، وإذا بلغ الشح إلى ذلك، فهو بخل وهو رذيلة والعلم عند الله.

١٠-الحث على الكرم والإنفاق والسخاء وسماحة النفس .

١١-جاء في الحديث قال ﷺ (يتقارب الزمان، وينقصُ العَمَل، ويُلقى الشُّحّ، وتظهرُ الفِتن) .

قوله (ويُلقى الشح) قال العيني -رحمه الله-: والمراد إلقاؤه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم وليس المراد وجود أصل الشح؛ لأنه لم يزل موجودًا.

وقال ابن حجر : المراد إلقاؤه في قلوب الناس على اختلاف أحوالهم، حتى يبخل العالم بعلمه فيترك التعليم والفتوى، ويبخل الصانع بصناعته حتى يترك تعليم غيره، ويبخل الغني بماله حتى يهلك الفقير، وليس المراد وجود أصل الشح، لأنه لم يزل موجوداً.

وقال ابن الجوزي: قوله (يلقى الشح) على وجهين:

أحدهما: يلقى من القلوب، يدل عليه قوله: ويفيض المال.

والثاني: يلقى في القلوب، فيوضع في قلب من لا شحَّ عنده، ويزيد في قلب الشحيح. ووجه هذا أنَّ الحديث خارج مخرج الذمِّ، فوقوع الشحِّ في القلوب مع كثرة المال أبلغ في الذم.

عن ابن عمر . قال : قال ﷺ (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

[خ : ٢٤٤٢] .

==========

١-قوله (**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ**)

في هذا دليل على أن المسلم أخو المسلم، كما قال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ومن مقتضيات ذلك ألا يظلمه ولا يكذبه، ولا يغشه، ولا يخونه، ولا يخذله، ولا يحقره.

ولذلك أمر النبي ﷺ بذلك في قوله (وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً) .

٢-قوله (**لاَ يَظْلِمُهُ**) .

فيه تحريم الظلم ، وقد تقدم ذلك .

٣-قوله (**وَلاَ يُسْلِمُهُ**) .

أي: لا يتركه مع من يؤذيه، وعند الطبراني (ولا يسلمه في مصيبة نزلت به).

٤-قوله (**مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ**) .

فيه دليل على فضل من كان في حاجة أخيه المسلم.

وأن من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته وعونه.

وفي حديث أبي هريرة قال: قال ﷺ (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه). رواه مسلم

وفي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال (مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَل). رواه مسلم

قال ابن رجب: وخرَّج الطبراني من حديث عمر مرفوعاً (أفضلُ الأعمال إدخالُ السُّرور على المؤمن: كسوت عورته، أو أشبعت جَوْعَتُه، أو قضيت له حاجة).

وبعث الحسنُ البصريُّ قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل وقال لهم: مرُّوا بثابت البناني، فخذوه معكم، فأتوا ثابتاً، فقال: أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه، فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أنَّ مشيك في حاجةِ أخيك المسلم خير لك مِنْ حجة بعد حَجَّةٍ؟ فرجعوا إلى ثابتٍ، فترك اعتكافه، وذهب معهم.

وخرَّج الإمام أحمد من حديث ابنةٍ لخبَّاب بن الأرت، قالت: خرج خبَّاب في سريَّةٍ، فكان النَّبيُّ ﷺ يتعاهدُنا حتى يحلُب عنْزةً لنا في جَفْنَةٍ لنا، فتمتلئ حتّى تفيضَ، فلمَّا قدم خبَّابٌ حلبَها، فعادَ حِلابها إلى ما كان.

وكان أبو بكر الصدِّيق – رضي الله عنه – يحلبُ للحيِّ أغنامهم، فلمَّا استخلف، قالت جاريةٌ منهم: الآن لا يحلُبُها، فقال أبو بكر: بلى وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلتُ فيه عن شيءٍ كنتُ أفعلُه، أو كما قال.

وكان عمر يتعاهد الأرامل فيستقي لهنَّ الماءَ باللَّيل، ورآه طلحةُ بالليل يدخلُ بيتَ امرأةٍ، فدخلَ إليها طلحةُ نهاراً، فإذا هي عجوزٌ عمياءُ مقعدةٌ، فسألها: ما يصنعُ هذا الرَّجلُ عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يُصلِحُني، ويخرج عنِّي الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمُّكَ طلحةُ، عثراتِ عمر تتبع؟

وكان أبو وائل يطوفُ على نساء الحيِّ وعجائزهم كلَّ يوم، فيشتري لهنَّ حوائجهنّ وما يُصلِحُهُنَّ.

وقال مجاهد: صحبتُ ابنَ عمر في السفر لأخدمه، فكان يخدُمُني.

وكان كثيرٌ من الصَّالِحِين يشترطُ على أصحابه في السفر أنْ يخدُمَهم. (جامع العلوم)

قال ابن القيم – رحمه الله – في وصف شيخ الإسلام ابن تيميه: كان شيخ الإسلام يسعى سعياً شديداً لقضاء حوائج الناس.

قال الذهبي عن شيخ الإسلام رحمه الله ابن تيمية: وله محبون من العلماء، والصلحاء، ومن الجند، والأمراء، ومن التجار والكبراء وسائر العامة تحبه، لأنه منتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا، بلسانه وقلمه.

كان علي بن الحسين – رحمه الله – يحمل الخبز إلى بيوت المساكين في الظلام فلما مات فقدوا ذلك، كان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين معاشهم فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك الذي كان يأتيهم بالليل.

ومن نعم الله تعالى على العبد أن يجعله مفاتحاً للخير والإحسان.

عَنْ سَهْلِ بن سَعْدٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قَال (عِنْدَ اللَّهِ خَزَائِنُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، مَفَاتِيحُهَا الرِّجَالُ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، وَمِغْلاقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ، وَمِغْلاقًا لِلْخَيْرِ). رواه ابن ماجه

وأن يسخره لقضاء حوائج الناس.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِنَّ لِلَّهِ أَقْوَامًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقِرُّهَا فِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا عَنْهُمْ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِم) أخرجه الطبراني.

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل والنموذج الأعلى في الحرص على الخير والبر والإحسان، وفي سعيه لقضاء حوائج الناس وبخاصة للضعفاء والأيتام، والأرامل:

عَنْ أَنَسٍ ﷺ (أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: يَا أُمَّ فُلاَنٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ، فَخَلاَ مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا) رواه مسلم.

والسعي في قضاء حوائج الناس من الشفاعة الحسنة التي أمرنا الله تعالى بها.

فقال (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا).

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، قال (كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ. قال: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، ويقْضِي الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاء) متفق عليه.

قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبَهُم * * * فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

وكُنْ على الدّهرِ مِعْوَانًا لذي أملٍ * * * يرجو نَداكَ فإنّ الحُرَّ مِعْوانُ

واشْدُدْ يديك بحبلِ اللهِ معتصمًا * * * فأنّه الرّكنُ إنْ خانتك أركانُ

من كان للخير منّاعًا فليس له * * * على الحقيقة إخوانٌ وأخْدانُ

من جاد بالمال مالَ النّاسُ قاطبةً * * * إليه والمالُ للإنسان فتّانُ

قيل لابن المنكدر أي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن. قيل أي الدنيا أحب إليك؟ قال الإفضال على الإخوان. أي التفضل عليهم والقيام بخدمتهم.

وقال وهب بن منبه: إن أحسن الناس عيشاً من حسن عيش الناس في عيشه وإن من ألذ اللذة الإفضال على الإخوان.

وكان خال القسري يقول: على المنبر أيها الناس عليكم بالمعروف فإن فاعل المعروف لا يعدم جوازيه.

قال ابن عباس: إن لله عباداً يستريح الناس إليهم في قضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم أولئك هم الآمنون من عذاب يوم القيامة.

وقال الضحاك في قوله تعالى (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين) في قصة يوسف عليه السلام كان إحسانه إذا مرض رجل بالسجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان وسع له إذا احتاج جمع سأل له.

قال عمرو بن العاص: في كل شيء سَرَفٌ إلا في ابتناء المكارم أو اصطناع المعروف، أو إظهار مروءة.

وقد قيل: صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

قال ابن عباس: صاحب المعروف لا يقع فإن وقع وجد متكئاً.

-من آداب قضاء حوائج الناس: الإخلاص في الأعمال وعدم المن بها.

قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما-: لا يتم العمل إلا بثلاث تعجيله وتصغيره وستره، فإنه إذا عجله هنَّأه، وإذا صغَّره عظمه وإذا ستره تممه.

قيل: المنة تهدم الصنيعة.

٥-قوله (**وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**) .

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة).

فيه فضل تفريج الكروبات.

وهذا يشمل كل كربة سواء في البدن أو في المال كإقراضه مال، أو فك أسره، أو الوقوف معه في محنته.

ففيه دليل على أن التنفيس والتفريج عن المسلمين من أسباب التنفيس والنجاة من كرب يوم القيامة.

وأسباب النجاة من كرب يوم القيامة كثيرة:

منها: التنفيس عن المسلمين.

لحديث الباب (وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بها كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَومِ القِيَامَة).

وفي حديث أبي هريرة (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة).

ومنها: إنظار المعسر أو الوضع عنه.

قال ﷺ (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينظر معسر أو يضع عنه) رواه مسلم.

ومنها: الوفاء بالنذر، وإطعام الطعام لله.

قال تعالى (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا. وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا. إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا).

٦-قوله (**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) .

فيه فضل الستر على المسلمين.

قال ابن رجب: واعلم أنَّ النَّاس على ضربين:

أحدهما: من كان مستوراً لا يُعرف بشيءٍ مِنَ المعاصي، فإذا وقعت منه هفوةٌ، أو زلَّةٌ، فإنَّه لا يجوزُ كشفها، ولا هتكُها، ولا التَّحدُّث بها، لأنَّ ذلك غيبةٌ محرَّمة.

وهذا هو الذي وردت فيه النُّصوصُ، وفي ذلك قد قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ).

والمراد: إشاعةُ الفَاحِشَةِ على المؤمن المستتر فيما وقع منه، أو اتُّهِمَ به وهو بريء منه، كما في قصَّة الإفك.

قال بعض الوزراء الصالحين لبعض من يأمرُ بالمعروف: اجتهد أن تستُرَ العُصَاةَ، فإنَّ ظهورَ معاصيهم عيبٌ في أهل الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب، ومثل هذا لو جاء تائباً نادماً، وأقرَّ بحدٍّ، ولم يفسِّرْهُ، لم يُستفسر، بل يُؤمَر بأنْ يرجع ويستُر نفسه، كما أمر النَّبيُّ ﷺ ماعزاً والغامدية، وكما لم يُستفسر الذي قال (أصبتُ حدّاً، فأقمه عليَّ).

والثاني: من كان مشتهراً بالمعاصي، معلناً بها لا يُبالي بما ارتكبَ منها، ولا بما قيل له فهذا هو الفاجرُ المعلِنُ، وليس له غيبة، كما نصَّ على ذلك الحسنُ البصريُّ وغيره.

ومثلُ هذا لا بأس بالبحث عن أمره، لِتُقامَ عليه الحدودُ. صرَّح بذلك بعضُ أصحابنا، واستدلَّ بقولِ النَّبيِّ ﷺ (واغدُ يا أُنيس على امرأةِ هذا، فإنِ اعترفت، فارجُمها).

ومثلُ هذا لا يُشفَعُ له إذا أُخِذَ، ولو لم يبلغِ السُّلطان، بل يُترك حتّى يُقامَ عليه الحدُّ لينكفَّ شرُّه، ويرتدعَ به أمثالُه. (جامع العلوم)

ولقد كثرَت النصوصُ التي تحثُّ على ستر المسلم، وتحذِّر مِن تتبُّع عوراته وزلَّاته لِيُفضَح بين الناس، مِن ذلك:

قوله ﷺ (مَن ستَر مسلمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامة) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ (مَن ستَر عورةَ أخيه المسلمِ، سَتَرَ اللهُ عورتَه يومَ القيامة، ومَن كشفَ عورةَ أخيه المسلم، كشفَ اللهُ عورتَه حتى يفضحه بها في بيته).

وقد رُوِي عن بعض السلف أنه قال: أدركتُ قومًا لم يكُن لهم عيوب، فذكروا عيوبَ الناس، فذكر الناس عيوبهم، وأدركتُ قومًا كانت لهم عيوب، فكفُّوا عن عيوب الناس فنُسِيت عيوبهم.

وشاهِدُ هذا حديث أبي بَرْزَةَ ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال (يا معشر مَن أسلم بلسانه ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبعوا عوراتهم؛ فإنه مَن يتبع عثراتِ أخيه المسلمِ يتبع اللهُ عورتَه، ومَن يتبع اللهُ عورتَه يفضحه ولو في جوف رَحْلِه).

والله سبحانه وتعالى "سِتِّير" يحب الستر والصون على عباده .

قال السيوطي رحمه الله : يعني: أن الله تعالى تارِكٌ للقبائح، ساتِرٌ العيوب والفضائح .

وقال الطيبي رحمه الله: يعني: أن الله تبارك وتعالى تارِك للقبائح، ساتر للعيوب والفضائح، يحبُّ الحياء والتستر مِن العبد؛ لأنهما خصلتان تُفْضِيَان به إلى التخلُّق بأخلاق الله تعالى .

وهو أوَّل معافاة الله عزَّ وجلَّ لعبده؛ كما أخرج أبو نعيم عن بلال بن يحيى العبسي الكوفي مرسلًا، قال: إنَّ معافاة الله العبدَ في الدنيا أن يستر عليه سيئاتِه .

ثم يتمُّ اللهُ نعمته على هذا العبد .

كما قال النبي ﷺ (لا يَستُر اللهُ على عبدٍ في الدنيا إلا ستَرَه اللهُ يوم القيامة) .

وقال ﷺ (إنَّ الله يُدنِي المؤمنَ، فيضع عليه كَنفَهُ ويستُره، فيقول: أتعْرِف ذنبَ كذا؟ أتعرف ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلَك قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم؛ فيُعطَى كتابَ حسناتِه).

-دواعي الستر على الناس:

تذكُّر المرء عيوب نفسه:

الاشتغال بعيوب الناس سببٌ في فضح عيوب المشتغِل، والسكوت عن عيوب الناس سببٌ في ستر الله للعبد، ومَن نظَر لعيوب نفسه شغلتْه عن عيوب الناس .

وفي الأثر : يُبصِر أحدُكم القَذَى في عين أخيه، وينسَى الجذع في عينِه .

قال الشاعر :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الأَذَى وَذَنْبُكَ مَغْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ

فَلَا يَنْطَلِقْ مِنْكَ اللِّسَانُ بِسَوْءَةٍ فَلِلنَّاسِ سَوْءَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ

وَعَيْنُكَ إِنْ أَبْدَتْ إِلَيْكَ مَعَايِبًا لِقَوْمٍ فَقُلْ: "يَا عَيْنُ لِلنَّاسِ أَعْيُنُ"

التفكُّر في فضل الستر على الناس:

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال (لا يَستُر عبدٌ عبدًا في الدنيا إلا ستَرَه اللهُ يوم القيامة) .

وعنه ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ (مَن ستَر مسلمًا ستَرَه اللهُ في الدنيا والآخرة) .

وقال ﷺ (مَن رأى عورةً فسترها، كان كمَن أحيا موءودةً مِن قبرها) .

التفكر في مغبَّة فضح الناس:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال (مَن ستَر عورةَ أخيه المسلم، ستَر اللهُ عورتَه يوم القيامة، ومَن كشف عورةَ أخيه المسلم، كشف اللهُ عورته حتى يفضحه بها في بيته) .

عدم الستر قد يَنشر السوء:

فكشف هذه العورات والعيوب والتحدُّث بما وقع منه قد يؤدِّي إلى غيبة محرَّمة، وإشاعةٍ للفاحشة.

قال بعض العلماء : اجتهِد أن تَستُر العصاة؛ فإنَّ ظهور معاصيهم عيبٌ في أهل الإسلام، وأولى الأمورِ ستْر العيوب .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير .

-الستر من أعظم أخلاق الإسلام :

فلأجل السَّتْر شرع الإسلام حد القذف؛ حتَّى لا تكون الأعراضُ بعد ذلك كلأً مباحًا.

ولأجل الستر أمر الشارعُ في إثبات حدِّ الزنا بأربعة شهود؛ حمايةً للأعراض، وصَوْنًا للمحارم.

ولأجل الستر أيضًا توعَّد الجبارُ أهلَ السوء، الذين يُحبون إشاعة الفاحشة – بالعذاب الأليم (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) .

ومن أجل الستر أيضًا نَهى الإسلامُ عن التجسس على الآخرين (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا) .

-قال ابنُ القيم – رحمه الله –: ومِنَ النَّاس مَن طبعُه طبع خنزير، يمر بالطيّبات، فلا يقف عليها، وهكذا كثير من الناس يسمع منك ويرى من المحاسن أضعافَ المساوئ، فلا يحفظها ولا ينقلها، فإذا رأى سقطةً أو كلمةً عوراء، وجد بُغيته، وجعلها فاكهته ونَقلها .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ » قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) .

==========

(**قال أتدرونَ مَنِ المُفْلِسُ؟**) أي: أتعلمون، وهذا سؤال إرشاد لا استعلام.

(**قالوا: المفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرهَمَ لَهُ ولا مَتَاع**) هذا المفلس عند الناس، هو من ليس له مال، ومن قلّ ماله.

(**فَقَالَ: إنَّ المُفْلسَ مِنْ أُمَّتي مَنْ يأتي يَومَ القيامَةِ بصلاةٍ ...**) أي: هذا المفلس حقيقة.

(**ويأتي**) ويحضر أيضًا حال كونه .

(وقد **شتم هذا**) أي : وقع له شَتْم لأحد .

(**وقذف هذا**) أي : بالزنا ونحوه .

(**وأكل مال هذا**) أي : بالباطل .

(**وسفك**) أي : أراق دم هذا .

(**وضرب هذا**) من غير استحقاق أو زيادة على ما يستحقه.

(**فَيُعْطَى هَذَا**) المظلوم .

(**مِنْ حَسَنَاتِهِ**) أي : بعض حسنات الظالم .

(**وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ**) أي : المظلوم الآخر .

(**فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ**) أي: فإذا وُزِّعت حسناته على أرباب الحقوق وغلقت .

(**قَبْلَ أَنْ يُقْضَى**) أي : يوفّى .

(**مَا عَلَيْهِ**) **من الحقوق** .

(**أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ**) أي: من سيئات أصحاب الحقوق .

(**فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ**) أي : وضعت على الظالم .

(**ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**) أي : ألقيَ في النار ، لفناء الحسنات وزيادة الخطايا.

١ – الحديث دليل على أن ظلم الناس بشتم أو قذف، وضرب، أو أكل مالهم، تجعل الإنسان مفلساً يوم القيامة، حيث تذهب حسناته ويبقى مفلساً.

ففي هذا الحديث خطورة ظلم الآخرين، بأي نوع من الظلم، كالغيبة، والنميمة، والقذف، أو أخذ المال بغير حق، أو سفك دم.

قال النووي: قوله ﷺ (إنَّ المفْلسَ مِنْ أُمَّتي مَنْ يأتي يَومَ القيامَةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزَكاةٍ، ويأتي وقَدْ شَتَمَ هَذَا، وقَذَفَ هَذَا، ...): مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا حَقِيقَة الْمُفْلِس، وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ مَال، وَمَنْ قَلَّ مَاله، فَالنَّاس يُسَمُّونَهُ مُفْلِسًا، وَلَيْسَ هُوَ حَقِيقَة الْمُفْلِس؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْر يَزُول، وَيَنْقَطِع بِمَوْتِهِ، وَرُبَّمَا يَنْقَطِع بِيَسَارٍ يَحْصُل لَهُ بَعْد ذَلِكَ فِي حَيَاته، وَإِنَّمَا حَقِيقَة الْمُفْلِس هَذَا الْمَذْكُور فِي الْحَدِيث فَهُوَ الْهَالِك الْهَلَاك التَّامّ، وَالْمَعْدُوم الْإِعْدَام الْمُقَطَّع، فَتُؤْخَذ حَسَنَاته لِغُرَمَائِهِ، فَإِذَا فَرَغَتْ حَسَنَاته أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتهمْ، فَوُضِعَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّار فَتَمَّتْ خَسَارَته وَهَلَاكه وَإِفْلَاسه.

ثم قال رحمه الله: قَالَ الْمَازِرِيُّ: وَزَعَمَ بَعْض الْمُبْتَدِعَة أَنَّ هَذَا الْحَدِيث مُعَارِض لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَا تَزِر وَازِرَة وِزْر أُخْرَى) وَهَذَا الِاعْتِرَاض غَلَط مِنْهُ وَجَهَالَة بَيِّنَة؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا عُوقِبَ بِفِعْلِهِ وَوِزْره وَظُلْمه، فَتَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ حُقُوق لِغُرَمَائِهِ، فَدُفِعَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ حَسَنَاته، فَلَمَّا فَرَغَتْ وَبَقِيَتْ بَقِيَّة قُوبِلَتْ عَلَى حَسَب مَا اِقْتَضَتْهُ حِكْمَة اللَّه تَعَالَى فِي خَلْقه، وَعَدْله فِي عِبَاده، فَأُخِذَ قَدْرهَا مِنْ سَيِّئَات

خُصُومه، فَوُضِعَ عَلَيْهِ، فَعُوقِبَ بِهِ فِي النَّار. فَحَقِيقَة الْعُقُوبَة إِنَّمَا هِيَ بِسَبَبِ ظُلْمه، وَلَمْ يُعَاقَب بِغَيْرِ جِنَايَة وَظُلْم مِنْهُ، وَهَذَا كُلّه مَذْهَب أَهْل السُّنَّة. وَاَللَّه أَعْلَم.

وقال القاضي عياض -رحمه الله-: قوله في المُفْلِس (هو الذي يأتي بصلاة وصيام وزكاة) الحديث، يعنى: أن هذا هو حقيقة المُفْلِس خاصة؛ لأنه في استعمال الناس فيمن قلَّ ماله وعَدِمَه حتى صار فُلُوسًا، وهذا لمن ينقطع، وقد تَنقلب به الحال، ويَرجُو الانجِبَار لحاله، وإذا بقيت له صحته وسلم له دِيْنُه لم يَهلك في الدنيا ولا في الآخرة. ... فأعلمهم أن حقيقة المُفْلِس هو الهلاك التَّام والعدم المتَّصل المُهْلِك، مثل هذا الذي كانت له حسنات وللناس عليه تَبِاعَات، فأخذوا حسناته كما يُؤخذ من الغَرِيم ما بيده، ثم لما لم يكن له حسنات طُرحت عليه سيئاتهم، وطُرح في النار؛ ليتم هلاكه، وتأبَّد فَلَسُه، وأَيسَ من فَلاحِه وانْجِبَار حاله، إلا ما يكون بعدُ مما تفضَّل الله به من إخراج المُذنبين وإدخالهم الجنَّة، بعد الأمر الذي قدَّره الله في هذا البَوَار، نعوذ بالله من فَلَسِ الدنيا والآخرة .

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- هذا أحق باسم المُفْلِس؛ إذ تُؤخذ منه أعماله التي تَعِب في تَصْحِيحها بِشُروطها، حتى قُبِلت منه، فلمَّا كان وقت فقره إليها أُخِذَت منه، ثم طُرح في النار، فلا إِفْلَاس أعظم من هذا، ولا أَخْسَر صَفْقَة ممن هذه حاله.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- وصدق النبي ﷺ ، فإن هذا هو المُفْلِس حقًا، أما مُفْلِس الدنيا فإن الدنيا تأتي وتذهب، ربما يكون الإنسان فقيرًا فيمسي غنيًّا، أو بالعكس، لكن الإفلاس كل الإفلاس أن يُفلس الإنسان من حسناته التي تَعِب عليها، وكانت أمامه يوم القيامة يشاهدها، ثم تؤخذ منه لفلان وفلان .

٢-في هذا الحديث: أن المُفْلِس حقيقة من أَخَذَ غُرَمَاؤُه أعمالَه الصالحة.

٣-في هذا تحذير من العدوان على الخلق، وأنه يجب على الإنسان أن يؤدي ما للناس في حياته قبل مماته، حتى يكون القصاص في الدنيا مما يستطيع، أما في الآخرة فليس هناك درهم ولا دينارٌ حتى يَفْدِي نفسه، ليس فيه إلا الحسنات.

وقد جاء عن أَبي هُرِيْرَةَ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال (مَنْ كَانتْ عِنْدَه مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيتَحَلَّلْه منْه الْيوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ، إنْ كَانَ لَهُ عَملٌ صَالحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقدْرِ مظْلمتِهِ، وإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سيِّئَاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ) رواه البخاري .

[منْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخيه] اللام في قوله (له) بمعنى (على) أي: من كانت عليه مظلمة لأخيه، وقد جاء في رواية عند البخاري (من كانت عنده مظلمة لأخيه) وللترمذي (رحم الله عبداً كانت له عند أخيه مظلمة).

[مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ] أي: من الأشياء، وهو من عطف العام على الخاص، فيدخل فيه المال بأصنافه والجراحات حتى اللطمة ونحوها، وعند الترمذي (من عرض أو مال).

[فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ] أي: يستبراء ذمته منه بأدائه أو بعفوه.

[الْيَوْمَ] أي: في الدنيا.

[قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ] وذلك في يوم القيامة.

[وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ] أي: صاحب المظلمة.

[فَحُمِلَ عَلَيْهِ] أي: على الظالم.

ففي هذا الحديث أنه يجب على الإنسان أن يرد ما عليه من حقوق الآدميين، قبل أن يموت وينتقل إلى دار الآخرة فتكون عليه وتؤخذ من حسناته إن كان له عمل صالح، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه كما في حديث الباب .

وحقوق العباد تنقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن تكون في النفس.

مثل أن يكون قد جنى عليه، أو ضربه حتى جرحه، أو قطع عضواً من أعضائه، فإنه يتحلل منه بأن يُمكّن صاحب الحق من القصاص، أو بذل الدية إذا لم يكن القصاص.

القسم الثاني: أن تكون في المال.

فإنه يعطيه ماله ويرجع لصاحبه، فإن كان صاحبه قد مات فإنه يسلمه إلى ورثته، فإن لم يعرف مكانه فإنه يتصدق به عنه.

القسم الثالث: وإن كانت المظلمة في العرض كسب أو شتم، فاختلف العلماء في كيفية التحلل منه على قولين:

القول الأول: اشتراط الإعلام والتحلل.

واحتج أصحاب هذا القول: بأن الذنب حق آدمي، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

القول الثاني: إنه لا يشترط الإعلام بما نال من عِرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدِّل غيبته بمدحه والثناء عليه.

وهذا اختيار أبي العباس ابن تيمية.

واحتج أصحاب هذه المقالة: بأن إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة، فإنه لا يزيده إلا أذى وخنقاً وغماً، وقد كان مستريحاً قبل سماعه.

قالوا: وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل.

وقالوا: إن الفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين:

أحدهما: أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه، فلا يجوز إخفاؤها عنه، فإنه محض حقه، فيجب عليه أداؤه إليه، بخلاف الغيبة والقذف، فإنه ليس هناك شيء ينفعه يؤديه إليه.

الثاني: أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه، ولم تهج منه غضباً ولا عداوة، بل ربما سرّه ذلك وفرح به.

وهذا القول الثاني هو الراجح والله أعلم بالصواب.

وجاء في الحديث عن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوق إِلَى أَهْلهَا يَوْم الْقِيَامَة حَتَّى يُقَاد لِلشَّاةِ الْجَلْحَاء مِنْ الشَّاة الْقَرْنَاء) متفق عليه.

٤-بيان شدّة حُقوق الناس، فمن اعتدى عليها فسوف يُجازى أصعب المجازاة، وذلك بأن تُؤخذ حسناته... فيا خسارة من هذه حاله، وهذا مآله، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

٥-بيان حقيقة الإفلاس يوم القيامة: فالمفلس الحقيقي ليس من فقد المال في الدنيا، وإنما من يأتي يوم القيامة بحسنات كثيرة ثم تذهب بسبب ظلمه للناس.

٦-عِظَم شأن حقوق العباد: الصلاة والصيام والزكاة من أعظم الطاعات، ومع ذلك قد يُؤخذ من حسنات صاحبها بسبب اعتدائه على حقوق الآخرين.

٧-تحريم الظلم بكل صوره: كالسب، والقذف، وأكل الأموال، والاعتداء على الدماء والأبدان، وكل ما يدخل في ظلم الناس.

٨-أن الذنوب المتعلقة بالآخرين أشد خطرًا: لأن الأمر لا يقتصر على التوبة بين العبد وربه، بل تتعلق به حقوق المظلومين.

٩-أن الحسنات يمكن أن تذهب بسبب المظالم: فيُعطى المظلوم من حسنات الظالم بقدر مظلمته، حتى تنفد حسناته.

١٠-خطورة اللسان: ذكر النبي ﷺ الشتم والقذف، وفي ذلك تنبيه إلى أن الكلمة قد تكون سببًا في خسارة الإنسان لحسناته.

١١-خطورة أكل أموال الناس: فالمال الذي يأخذه الإنسان بغير حق قد يتحول يوم القيامة إلى سبب في فقدان حسناته.

١٢-أن العبرة ليست بكثرة العمل فقط: بل بسلامة العمل من المظالم، وحسن التعامل مع الخلق.

١٣-ضرورة رد الحقوق قبل الموت .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ) .

========

(**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَومَ القِيَامَةِ**) قال الشيخ الراجحي حفظه الله (لَتُؤَدَّنَّ - بالفتح وتشديد الدال - الحُقُوقُ - بضم القاف - إِلَى أَهْلِهَا يَومَ القِيَامَةِ) أي: لتؤدن الحقوق من قبل الله إلى أهلها، وليس المعنى: لتؤدن الحقوق من قِبل الناس.

(**الجَلْحَاءِ**) وَالْجَلْحَاء بِالْمَدِّ هِيَ الْجَمَّاء الَّتِي لَا قَرْن لَهَا.

١ – بيان شدة حقوق الناس، وأن يوم القيامة يقتص للمظلوم من الظالم، ليس بالمال المسروق، ولا بالبطش باليد، ولكن بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من حسنات الظالم بقدر مظلمته، فإذا فنيت حسناته وأصبح مفلساً ولم يقض من ظالمه، أخذ من سيئات المظلومين ثم طرحت عليه ثم طرح في النار.

٢ – أن البهائم تحشر، ويدل لذلك:

أ– قوله تعالى (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ).

ب_ قوله تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

ج_ وحديث أبي ذر (أن النبي – صلى الله عليه وسلم – رأى شاتين ينتطحان فقال: يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان؟ قال: قلت: لا ، قال: لكن الله يدري وسيقضي بينهما) رواه أحمد.

د– وحديث (مانع صدقة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطأوه بأظلافها). متفق عليه

هـ– الآثار الواردة في قوله تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً) وأن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض ، ثم يقول لها: كوني تراباً ، فتكون تراباً ، فعندها يقول الكافر (يا ليتني كنت تراباً).

٣– البهائم لا حساب عليها حساب حسنات وسيئات وإنما يجري بينها القصاص، كما في حديث الباب.

فإن قيل : ما الحكمة .

الحكمة: ليظهر عدل الله حتى في البهائم.

قال **صفي الرحمن المباركفوري** –رحمه الله– والحيوان ليس بمكلف، ولكن يجري بين أفراده هذا القصاص، حتى لا يبقى لأحد ظلم على أحد.

وقال ابن الملك –رحمه الله–: يعني: لو نَطحتْ شاةٌ قرناءُ شاةً جلحاءَ في الدنيا؛ فإذا كان يومُ القيامة يُؤخَذ القرنُ من الشاة القرناء، ويُعطَى الجلحاء، حتى تقتصَّ لنفسها من الشاة القرناء.

فإن قيل: الشاة غير مكلَّفة، فكيف يُقتصُّ منها؟ قلنا: الله تعالى فعَّال لما يريد (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ) والغرض منه: إعلامُ العباد بأنَّ الحقوقَ لا تضيع، بل يُقتصُّ حقُّ المظلوم من الظالم .

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- مُعلِّقًا: وهو وجه حسن، وتوجيه مستحسن، إلا أنَّ التعبير عن الحكمة بالغرض وقع في غير موضعه، وجملة الأمر: أنَّ القضية دالة بطريق المبالغة على كمال العدالة بين كافة المكلفين، فإنَّه إذا كان هذا حال الحيوانات الخارجة عن التكليف، فكيف بذوي العقول من الوضيع والشريف والقوي والضعيف .

٤- إثبات البعث والنشور في الآخرة، وأنَّ الخلائق كلهم يُحشرون، عقلاؤهم، وغير عقلائهم.

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثُمَّ قَرَأَ (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

[خ : ٤٦٨٦] .

==========

(**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ**) الإملاء: هو الإمهال والتأخير، يقال: أمليت له في الأمر: أخّرت، وفي التنزيل (إنما نملي لهم ...).

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله-: قوله (إن اللهَ يُملي للظالمِ ...) يُملي: يطيلُ في مدَّته، ويُصحُّ بدنه، ويكثِّر مالُه وولدُه؛ ليكثرَ ظلمُه، كما قال تعالى (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا) .

وقال النووي -رحمه الله- معنى يُملي: يُمْهِل ويُؤَخِّر، ويُطيل له في المدَّة، وهو مشتق من المُلْوَة وهي المدَّة والزمان، بضم الميم وكسرها وفتحها .

(**فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْه**) أي: لم يطلقه، قال الحافظ: أي لم يخلِّصه، أي: إذا أهلكه لم يرفع عنه الهلاك، وهذا على تفسير الظلم بالشرك على إطلاقة وإن فسر بما هو أعم فيحمل كل على ما يليق به وقيل معنى لم يفلته لم يؤخره وفيه نظر لأنه يتبادر منه أن الظالم إذا صرف عن منصبه وأهين لا يعود إلى عزه والمشاهد في بعضهم بخلاف ذلك فالأولى حمله على ما قدمته والله أعلم. (الفتح)

(**ثُمَّ قَرَأَ**) أي: النبي ﷺ .

(**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**) أي: ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظالمين السابقين، يكون أخذ ربك وعقابه لكل ظالم يأتي بعدهم وينهج نهجهم.

والكاف في (وَكَذلِكَ) بمعنى مثل، والمراد بالقرى: أهلها الظالمون.

والأخذ: هو العقاب المباغت السريع: يقال أخذ فلان الموت، إذا نزل به بسرعة وقوة.

(**وهي ظالمة**) الظلم سبب للهلاك .

١ – الحديث دليل على تغليظ الظلم، وشدة الوعيد عليه.

قال الآلوسي: وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى.

٢ – أن الله يهلك القرى والأمم بسبب ظلمها.

كما قال تعالى (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

وقال تعالى (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ).

وقال تعالى (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا).

٣ – أن الله قد يملي للإنسان ويطيل عمره استدراجاً.

كما قال تعالى (وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً).

وقال تعالى (وَكَأَيِّنْ مَنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ).

وقال تعالى (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ).

وقال ﷺ (إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) رواه أحمد.

وقال ﷺ (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) .

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (إن اللهَ ليُملي للظالِم...) يُملي له: يعني يُمهل له حتى يتمادى في ظلمه -والعياذ بالله- فلا يعاجلُه العقوبة، وهذا من البلاء -نسأل الله أن يعيذنا وإياكم-، فمِن الاستدراج أن يُملى للإنسان في ظُلمه، فلا يعاقَب سريعًا، حتى تتكدس عليه المظالم...، فعلى الإنسان الظالم ألا يغترَّ بنفسه، ولا بإملاء الله له؛ فإن ذلك مصيبة فوق مصيبته؛ لأن الإنسانَ إذا عوقبَ بالظلم عاجلًا فربما يتذكر ويتّعظ، ويدع الظلم، لكن إذا أُملي له، واكتسب آثامًا، أو ازداد ظُلمًا، ازدادت عقوبته -والعياذ بالله-، فيُؤخذ على غِرَّة.

٤ - يجب المبادرة إلى التخلص من حقوق الآدميين بإرجاعها إلى أصحابها.

٥-فيه تسليةٌ للمظلوم في الحال، ووعيد للظالم؛ لئلا يغتر بالإمهالِ، كما قال تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) .

عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يقال (كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ» فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ فَقَالَ قَدْ فَعَلُوهَا وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. قَالَ عُمَرُ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ فَقَالَ «دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ).

[خ : ٤٩٠٥] .

==========

(**كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ**) بفتح الغين المعجمة، اسم من الغزو، وسَمَّى ابنُ إسحاق هذه الغزوة غزوة بني المصطلِق، وكذا وقع عند الإسماعيليّ من طريق ابن أبي عمر، عن سفيان، قال: "يرون أن هذه الغزاة

غزاة بني المصطلق"، وكذا في مرسل عروة، قاله في "الفتح" .

(**فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ**) الكسع : أن تضرب دبر الإنسان بيدك .

(**فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ) قال القرطبيّ** – رحمه الله –: دعوى الجاهلية: تَنادِيهِم عند الغضب، والاستنجاد: يا آل فلان! يا بني فلان! وهي التي عَنَاها ﷺ بقوله: "دعوها فإنَّها منتنة"؛ أي: مستخبَثة، قبيحة؛ لأنَّها تثير التعصُّب على غير الحقّ، والتقاتل على الباطل، ثم إنها تجُرّ إلى النار، كما قال ﷺ : من دعا بدعوى الجاهلية، فليس منا، وليتبؤأ مقعده من النار .

(**فَسَمِعَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ**) المنافق .

(**فَقَالَ قَدْ فَعَلُوهَا**) استفهام بتقدير الأداة؛ أي: أَفعلوها؟ ي أقدم المهاجرون على الاستبداد والاستعلاء علينا بعد أن آويناهم ، وفي مرسل قتادة: "فقال رجل منهم عظيم النفاق: ما مثَلنا ومثَلهم إلا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبك يأكلك"، وعند ابن إسحاق: "فقال عبد الله بن أُبَيّ: أقد فعلوها؟ نافرونا، وكاثرونا في بلادنا، والله ما مثَلنا

وجلابيب قريش هذه، إلا كما قال القائل: سَمِّن كلبك يأكلك .

(**وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ**) يقصد نفسه .

(**مِنْهَا الأَذَلَّ**) يقصد النبي ﷺ ومن معه .

(**قَالَ عُمَرُ**) بن الخطاب .

(**دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ**) لكفره ونفاقه الصريح .

(**فَقَالَ**) ﷺ .

(**دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**) أي : أتباعه .

١–النهي عن عادات الجاهليّة وتقاليدها، قولاً، أو فعلاً، فالإسلام جاء لإبعاد الناس عن ذلك، وهدايتهم إلى ما هو الصواب والحقّ لهم.

فقوله (دعوها فإنها منتنة) أي : اتْرُكوا دَعْوى الجاهِلِيَّةِ؛ لأنَّها مُنتِنةٌ قَبيحةٌ مُنكَرةٌ كَريهةٌ مؤْذيةٌ؛ لإثارَتِها الغَضبَ على غيرِ الحقِّ، والتَّقاتُلَ على الباطِلِ عَصبيَّةً، ولأنَّها تَدْعو إلى الاقْتِتالِ بيْن المسلِمينَ وأبْناءِ الدِّينِ الواحِدِ، وقد قال اللهُ تعالَى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) .

٢–تحريم العصبية القبلية .

٣-مُراعاةُ النَّظرِ للعامَّةِ على النَّظرِ للخاصَّةِ، والتَّحْذيرُ مِن كلِّ عَملٍ فيه تَنْفيرُ النَّاسِ عنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ.

٤- التَّحْذيرُ مِن سُوءِ عاقِبةِ التَّداعي بأُمورِ الجاهِليَّةِ.

٥-التحذير من التحزب الباطل والحذر منه كالحذر من الشيء النتن القبيح.

٦-النهي عن كل ما يثير العداوة والشحناء.

٧-**قال النووي**: تسميته ﷺ ذلك دعوى الجاهلية فهو كراهة منه لذلك، فإنه مما كانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، وفصل القضايا بالأحكام الشرعية، فإذا اعتدى إنسان على آخر حكم القاضي بينهما، وألزمه مقتضى عدوانه كما تقرر من قواعد الإسلام.

٨-**قال السندي**: فبين أن النصرة لكونه من قبيلته كما عليه أهل الجاهلية باطل، فلا وجه لاستدعاء كل أحد قبيلته، وأما نصرة الحق فمطلوب لازم على كل مؤمن سواء كان من قبيلته أو لا.

٩-ما كان عليه المنافقون من بذاءة اللسان والجراءة على النبي ﷺ وعلى أصحابه رضي الله عنهم.

١٠-ما كان النبي ﷺ عليه من شدة الحلم والصبر على ما يناله من أذية المنافقين.

١١-التحذير من كل عمل فيه تنفير الناس عن الدخول في الإسلام، ولذلك امتنع النبي ﷺ من قتل المنافقين لئلا يقول الناس: إن محمدًا يقتل أصحابه.

١٢-فيه بيان لعظم منزلة عمر بن الخطاب رضي الله عنه غيرته على الإسلام.

١٣- الحديث من أعلام نبوة محمد ﷺ، حيث كشف عن نفاق عبد الله بن أبي .

١٤- الواجب على المسلم هو نصرة الحق والعدل .

ولهذا جاء في رواية لهذا الحديث (وَلْيَنْصُرِ الرَّجُلُ أَخَاهُ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، إِنْ كَانَ ظَالِمًا فَلْيَنْهَهُ، فَإِنَّهُ لَهُ نَصْرٌ، وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا فَلْيَنْصُرْهُ).

وجاء عند البخاري : عن أنس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (انْصُرْ أخَاكَ ظَالماً أَوْ مَظْلُوماً) فَقَالَ رجل: يَا رَسُول اللهِ، أنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُوماً، أرَأيْتَ إنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أنْصُرُهُ؟ قَالَ(تحْجُزُهُ – أَوْ تمْنَعُهُ – مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلِكَ نَصرُه) رواه البخاري.

ففي هذا الحديث دليل على وجوب نصرة المسلم لأخيه المسلم : فإن كان مظلوماً أعانه ووقف معه، وإن كان ظالماً منعه وحجزه عن الظلم.

فمنع الظالم من الظلم ونهيه عنه نصر له .

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– قوله (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) هذا من الكلام البليغ الوجيز، الذي قَلَّ مَن ينسِجُ على منواله، أو يأتي بمثاله، و«أو» فيه للتنويع والتقسيم، وإنما سُمِّيَ ردُّ الظالم نصرًا؛ لأن النصر هو العون، ومنه قالوا: أرض منصورة، أي: مُعانة بالمطر، ومنع الظالم من الظلم عونٌ له على مصلحة نفسه، وعلى الرجوع إلى الحق، فكان أولى بأنْ يُسمَّى نصرًا .

وقال المظهري –رحمه الله– قوله (فذلك نصرك إياه) (ذلك) إشارة إلى المنع؛ أي: منعك أخاك من أن يظلم أحدًا نصرُك إِيَّاهُ؛ لأن النصر دفع الضَّرر عن أحد، وإذا منعت أحدًا عن الظلم، فقد دفعته عن الإثم، الذي هو سبب دخوله النار، فكأنك دفعت النار عنه، وأيُّ نُصْرَة أكمل من دفعك النار عن أخيك؟

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–: قوله (تمنعه من الظلم، فذلك نصره) لأن الظالم قد غلبته نفسه حتى ظلم؛ فتنصره أنت على نفسه حتى تمنعه من الظلم، فإذا رأيتَ شخصًا يظلم جاره بالإساءة إليه، وعدم المبالاة به، فإنه يجب عليك أنْ تنصر هذا وهذا، الظالم والمظلوم، فتذهب إلى الظالم الجار، الذي أخلَّ بحقوق جاره، وتنصحه وتبيِّن له ما في إساءة الجوار من الإثم والعقوبة، وما في حسن الجوار من الأجر والمثوبة، وتكرر عليه حتى يهديه الله، فيرتدع، وتنصر المظلوم الجار، وتقول له: أنا سوف أنصح جارك، وسوف أكلمه، فإن هداهُ الله فهذا هو المطلوب، وإن لم يهتد فأخبرني، حتى نكون أنا وأنت عند القاضي أو الحاكم سواء، نتعاون على دفع ظلم هذا الظالم.

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) .
[خ : ٢٤٦٦] .

==========

(**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ**) اللام في "المؤمن" للجنس، والمراد بعض المؤمنين للبعض.

(**كَالْبُنْيَانِ**) بضمّ الباء الموحّدة، أي كالحائط، والمراد أنّ من شأن المؤمن أن يكون على الحقّ الذي هو مقتضى الإيمان، ويلزم منه توافق المؤمنين على ذلك الحقّ، وتناصرهم، وتأييد بعضهم بعضاً .

وعند البخاري (وشبك بين أصابعه) .

١ – الحديث دليل على الحث على التعاون والتكاتف بين المؤمنين والتعاضد كالبنيان الواحد، حتى يكون المجتمع مجتمع خير، وبركة، يسوده الإخاء والمحبّة، ويكونَ يدًا واحدةً على أعدائه، فشبّهه النبيّ ﷺ وهو في تلك الحالة بالبنيان الذي يقوّي بعض أجزائه بعضه، كما شبهه في حديثه الآخر بالجسد الواحد.

كما في حديث النعمان (ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد ...).

وفي حديث ابن عمر (المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يُسْلِمُهُ، ومن كان في حاجة أخيه، كان اللَّه في حاجته).

قال ابن بطّال: والمعاونة في أمور الآخرة، وكذا في الأمور المباحة من الدنيا مندوب إليها، وقد ثبت حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (واللَّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه).

قال الحافظ ابن رجب: وهذا التشبيك من النبي ﷺ في هذا الحديث: كان لمصلحة، وفائدة، لم يكن عبثاً، فإنه لما شبَّه شد المؤمنين بعضهم بعضاً بالبنيان: كان ذلك تشبيهاً بالقول، ثم أوضحه بالفعل، فشبَّك أصابعه بعضها في بعض؛ ليتأكد بذلك المثال الذي ضربه لهم بقوله، ويزداد بياناً وظهوراً.

ويفهم من تشبيكه: أن تعاضد المؤمنين بينهم كتشبيك الأصابع بعضها في بعض، فكما أن أصابع اليدين متعددة: فهي ترجع إلى أصل واحد، ورجُل واحد، فكذلك المؤمنون وإن تعددت أشخاصهم: فهم يرجعون إلى أصل واحد، وتجمعهم أخوة النسب إلى آدم ونوح، وأخوة الإيمان.

وقال الحافظ: وقوله (ثم شبك بين أصابعه) هو بيان لوجه الشبه أيضًا، أي يشدّ بعضهم بعضًا، مثل هذا الشّدّ.

ويستفاد منه أنّ الذي يريد المبالغة في بيان أقواله يمثّلها بحركاتها؛ ليكون أوقع في نفس السامع.

٢ – وقد جاءت الأحاديث الكثيرة في فضل التعاون على الخير.

كحديث (مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا ...).

قال ابن بطَّال: قال الطَّبري: وفيه مِن الفقه أنَّ كلَّ مَن أعان مؤمنًا على عمل برٍّ فللمُعِين عليه أجر مثل العامل، وإذا أخبر الرَّسول أنَّ مَن جهَّز غازيًا فقد غزا، فكذلك مَن فطَّر صائمًا أو قوَّاه على صومه، وكذلك مَن أعان حاجًّا أو معتمرًا بما يتقوى به على حجِّه أو عمرته حتى يأتي ذلك على تمامه فله مثل أجره. ومَن أعان فإنَّما يجيء مِن حقوق الله بنفسه أو بماله حتى يغلبه على الباطل بمعونة، فله مثل أجر القائم، ثمَّ كذلك سائر أعمال البرّ، وإذا كان ذلك بحكم المعونة على أعمال البرّ فمثله المعونة على معاصي الله وما يكرهه الله، للمعين عليها مِن الوزر والإثم مثل ما لعاملها.

وقال ابن عثيمين: هذا مِن التَّعاون على البرّ والتَّقوى، فإذا جهَّز الإنسان غازيًا، يعني براحلته ومتاعه وسلاحه، إذا جهَّزه بذلك فقد غزا، أي كُتِب له أجر الغازي؛ لأنَّه أعانه على الخير، وكذلك مَن خَلَفَه في أهله بخير فقد غزا، يعني لو أنَّ الغازي أراد أن يغزو ولكنَّه أُشْكِل عليه أهله من يكون عند حاجاتهم، فانتدب رجلًا مِن المسلمين وقال: اخلفني في أهلي بخير، فإنَّ هذا الذي خلفه يكون له أجر الغازي؛ لأنَّه أعانه.

وحديث النعمان (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) .

قال النووي: ... صَرِيح فِي تَعْظِيم حُقُوق الْمُسْلِمِينَ بَعْضهمْ عَلَى بَعْض، وَحَثّهمْ عَلَى التَّرَاحُم وَالْمُلَاطَفَة وَالتَّعَاضُد فِي غَيْر إِثْم وَلَا مَكْرُوه. وَفِيهِ جَوَاز التَّشْبِيه وَضَرْب الْأَمْثَال لِتَقْرِيبِ الْمَعَانِي إِلَى الْأَفْهَام.

وحديث الباب (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) .

قال ابن بطَّال: تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا في أمور الدُّنْيا والآخرة مندوبٌ إليه بهذا الحديث.

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: ظاهره الإخبار، ومعناه الأمر، وهو تحريضٌ على التَّعاون.

وحديث ابن عمر. أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَة) رواه مسلم.

قال ابن بطَّال في شرح هذا الحديث: ... وباقي الحديث حضٌّ على التَّعاون، وحسن التَّعاشر، والألفة، والسِّتر على المؤمن، وترك التَّسمع به، والإشهار لذنوبه.

وقال ابن حجر والعيني: في الحديث حضٌّ على التَّعاون، وحسن التَّعاشر والألفة.

٣ – قال ابن عاشور: وفائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتّحاد والتناصر، حتّى يصبح ذلك خلقاً للأمّة. (التحرير والتنوير)

٤– وقد ذكر بعض العلماء فوائد التعاون على البر والتقوى:

أولاً: الاستجابة لأمر الله تعالى.

ثانياً: ثمرة من ثمرات الإيمان.

ثالثاً: نيل محبة الله.

رابعاً: نيل تأييد الله، لأن الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

خامساً: يسهل العمل وييسره.

سادساً: سبب من أهم أسباب الألفة والمحبة بين الناس.

سابعاً: إمكان إنجاز الأعمال الكبيرة التي لا يقدر عليها الأفراد.

ثامناً: دليل حبِّ الخير للآخرين

تاسعاً: ينزع الحقد من القلوب الضعيفة ويزيل أسباب الحسد

قال ابن تيمية: فإنَّ التَّعاون نوعان:

الأوَّل: تعاونٌ على البرِّ والتَّقوى: مِن الجهاد وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وإعطاء المستحقِّين؛ فهذا ممَّا أمر الله به ورسوله. ومَن أمسك عنه خشية أن يكون مِن أعوان الظَّلمة فقد ترك فرضًا على الأعيان، أو على الكفاية متوهِّمًا أنَّه متورِّعٌ. وما أكثر ما يشتبه الجبن والفشل بالورع؛ إذ كلٌّ منهما كفٌّ وإمساكٌ.

والثَّاني: تعاونٌ على الإثم والعدوان، كالإعانة على دمٍ معصومٍ، أو أخذ مالٍ معصومٍ، أو ضرب مَن لا يستحقُّ الضَّرب، ونحو ذلك؛ فهذا الذي حرَّمه الله ورسوله. نعم، إذا كانت الأموال قد أُخِذَت بغير حقٍّ، وقد تعذَّر ردُّها إلى أصحابها، ككثيرٍ مِن الأموال السُّلطانيَّة؛ فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين كسداد الثُّغور، ونفقة المقاتلة، ونحو ذلك: مِن الإعانة على البرِّ والتَّقوى.

٥ – من مجالات التعاون على البر والتقوى.

أولاً: التعاون في مجال الدعوة ونصرة الدين.

ويكون ذلك بنصرة الإسلام وأهله، فقد حضّ الله تعالى عباده المؤمنين على نصرة دينه وأوليائه، ونصرة نبيه ومؤازرته ومعاونته على إقامة الدين ونشر الدعوة بشتى الوسائل المشروعة.

قال –عز وجل– (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله) أي يساعدني في الدعوة إلى الله.

ثانياً: التعاون على إقامة العبادات.

ومن أمثلة ذلك:

التعاون على قيام الليل.

عن أبي عثمان النهدي قال (تضيفت أبا هريرة سبعا فكان هو وامرأته وخادمه يعتقبون الليل أثلاثاً يصلي هذا ثم يوقظ هذا ويصلي هذا ثم يوقظ هذا). (السير)

ثالثاً: التعاون في بناء المساجد.

وقد أورد البخاري في صحيحه بابا في التعاون في بناء المساجد، وسطر فيه أحاديثاً تبين بوضوح مدى التعاون بين النبي ﷺ وأصحابه في بناء المسجد النبوي.

فعن أَبِي سَعِيدٍ فِي ذِكْرِ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ قَالَ كُنَّا نَحْمِلُ لَبِنَةً لَبِنَةً وَعَمَّارٌ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ فَرَآهُ النَّبِيُّ ﷺ فَيَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ وَيَقُولُ وَيْحَ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ عَمَّارٌ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الْفِتَنِ) رواه البخاري.

رابعاً: التعاون في مجال طلب العلم.

وهذا باب من التعاون يكفي في معرفته مطالعة كتب السير الغاصّة بالقصص التي بلغت من التعاون أوجه.

فهذا عمر ﷺ يقول (كُنْتُ وَجَارٌ لِي مِنْ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَيَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ مِنْ خَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنْ الْأَمْرِ وَغَيْرِهِ وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ ...). الحديث رواه البخاري

خامساً: التعاون في القيام بحقوق المسلمين.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ (بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ قَالَ فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْل) رواه مسلم.

ففِي هَذَا الْحَدِيث: الْحَثّ عَلَى الصَّدَقَة وَالْجُود وَالْمُوَاسَاة وَالإِحْسَان إِلَى الرُّفْقَة وَالأَصْحَاب، وَالاعْتِنَاء بِمَصَالِح الأَصْحَاب، وَأَمْر كَبِير الْقَوْم أَصْحَابه بِمُوَاسَاتِ الْمُحْتَاج، وَأَنَّهُ يُكْتَفَى فِي حَاجَة الْمُحْتَاج بِتَعَرُّضِهِ لِلْعَطَاءِ، وَتَعْرِيضه.

٦ – الحديث دليل على جواز تشبيك الأصابع.

وتشبيك الأصابع ينقسم إلى أقسام:

أولاً: أن يكون في الصلاة، فهذا مكروه.

لما روي عن كعب بن عجرة ﷺ (أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد شبك أصابعه في الصلاة، ففرج رسول الله ﷺ بين أصابعه). رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد

ثانياً: أن يكون في المسجد منتظراً لها. وهذا أيضاً مكروه.

وبهذا قال الحنفية، والشافعية، والحنابلة.

لأن انتظار الصلاة هو في حكم الصلاة. لحديث الصحيحين (لا يزال أحدكم في صلاة ما دامت الصلاة تحبسه).

لحديث كَعْبَ بْنَ عُجْرة. أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ثُمَّ خَرَجَ عَامِدًا إِلَى الْمَسْجِدِ فَلا يُشَبِّكَنَّ يَدَيْهِ، فَإِنَّهُ فِي صَلاةٍ) رواه أبو داود.

فهذا الحديث دليل على النهي عن تشبيك الأصابع حال المشي إلى المسجد للصلاة؛ لأن هذا العامد إلى المسجد في حكم المصلي.

قال الخطابي رحمه الله: تشبيك اليد هو إدخال الأصابع بعضها في بعض، والاشتباك بهما ، وقد يفعله بعض الناس عبثاً، وبعضهم ليفرقع أصابعه عندما يجده من التمدد فيها، وربما قعد الإنسان فشبك بين أصابعه واحتبى بيديه، يريد به الاستراحة، وربما استجلب به النوم، فيكون ذلك سبباً لانتقاض طهره، فقيل لمن تطهر وخرج متوجهاً إلى الصلاة: لا تشبك بين أصابعك؛ لأن جميع ما ذكرناه من هذه الوجوه على اختلافها لا يلائم شيءٌ منها الصلاة ولا يشاكل حال المصلي.

ثالثاً: أن يكون بعد الفراغ من الصلاة ولو كان في المسجد.

فهذا لا يكره.

لحديث ذي اليدين.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِحْدَى صَلاَتَيِ الْعَشِيِّ- قَالَ ابْنُ سِيرِينَ سَمَّاهَا أَبُو هُرَيْرَةَ وَلَكِنْ نَسِيتُ أَنَا- قَالَ فَصَلَّى بِنَا رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ فَقَامَ إِلَى خَشَبَةٍ مَعْرُوضَةٍ فِي الْمَسْجِدِ فَاتَّكَأَ عَلَيْهَا كَأَنَّهُ غَضْبَانُ وَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ وَوَضَعَ خَدَّهُ الأَيْمَنَ عَلَى ظَهْرِ كَفِّهِ الْيُسْرَى وَخَرَجَت ...) متفق عليه.

رابعًا: في غير المسجد.

فهو أولى بالإباحة وعدم الكراهة. .

لحديث أبي موسى –حديث الباب– .

قال الحافظ ابن حجر عن الجمع بين هذه الأحاديث وأحاديث النهي: وجمع الإِسْمَاعِيلِيّ بِأَنَّ النَّهْيَ مُقَيَّد بِمَا إِذَا كَانَ فِي الصَّلاةِ أَوْ قَاصِدًا لَهَا، إِذْ مُنْتَظِر الصَّلاةِ فِي حُكْمِ الْمُصَلِّي، وأحاديث الباب الدالة على الجواز خالية من ذلك، أما الأولان فظاهران، وأما حديث أبي هريرة فلأن تشبيكه إنما وقع بعد انقضاء الصلاة في ظنه، فهو في حكم المنصرف من الصلاة.

فائدة:

اختلف في الحكمة في النّهي عن التّشبيك في المسجد.

فقيل: إنّ النّهي عنه لما فيه من العبث.

وقيل: لما فيه من التّشبّه بالشّيطان.

وقيل: لدلالة الشّيطان على ذلك.

وقيل: لأنّه يجلب النّوم، والنّوم من مظانّ الحدث.

ولما نبّه عليه في حديث ابن عمر –رضي الله عنهما– في الّذي يصلّي وهو يشبّك أصابعه: (تلك صلاة المغضوب عليهم)، فكره ذلك لما هو في حكم الصّلاة حتّى لا يقع في المنهيّ عنه، وكراهته في الصّلاة أشد.

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) .

[خ : ٦٠١١] .

==========

(فِي تَراحُمِهم وتَوَادِّهم وتَعاطُفِهم) قال العيني –رحمه الله– : قيل: هذه الألفاظ الثلاثة متقاربة في المعنى، لكن بينها فرق لطيف، أما التراحم: فالمراد به أنْ يرحم بعضهم بعضًا بأخوَّة الإيمان، لا بسبب شيء آخر، وأما التوادد: فالمراد به التواصل الجالب للمحبة، كالتزاور والتهادي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضًا، كما يُعطف طرف الثوب عليه ليُقَوِّيه .

١-الحديث دليل على أن المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ففي هذا الحديث : يُمثِّل رسولُ الله ﷺ المؤمنين في هذه الخلال الثلاث بالجسد الواحد، فكما أنَّ الجسد إذا مرض منه عضو تألم له الباقي، فلم يذق نومًا، وسارت إليه حرارة الحمَّى فآلمته، فكذلك المؤمنون حقيقة إذا ناب واحدًا منهم نائبةٌ شَعَرَ بألمها الباقون، فسَعَوْا بما فيهم من العواطف لدفع الألم عنه، وجلب الخير إليه. ... فالمسلمون في مجموعهم كشخص واحد، وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص، فالخير يصيب الواحد منهم، كأنَّما أصاب كلهم، والشر ينوبه كأنَّما ناب جميعهم، فليعتبر بهذا الحديث بعض الأمم الإسلامية التي لا تألم لما يصيب جارتها، بل ربما ساعدت عدوها على القضاء عليها؛ وليعتبر به أولئك الأفراد الذين جدُّوا في اصطياد مصالحهم الشخصية، وإن أَضَرَّت بآخرين، وإذا ما طَلب منهم مواساة إخوانهم ولوا على أدبارهم نفورًا، أولئك لم يتوطَّن الإيمان بعد نفوسهم.

قال ابن حجر : ... فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب للفهم وإظهار للمعاني في الصور المرئية، وفيه تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضاً.

قال العيني -رحمه الله- قوله (كمَثَل الجسد) أي: بالنسبة إلى جميع أعضائه، ووجه التشبيه: التوافق في التعب والراحة. .

وقال القاضي عياض -رحمه الله- تمثيله عليه السلام ... بالجسد إذا شكا بعضه شكا سائره كله، تمثيل صحيح، وتقريب للأفهام في إظهار المعاني في الصور المرتبة، فيجب على المسلمين امتثال ما حضَّ عليه السلام عليه من ذلك والتخلق به.

المجتمع الإسلامي وحدة متكاملة في الرحمة والتواصل والتعاون.

٢-قوله (**تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**)

قال النووي -رحمه الله-: قوله ﷺ (تداعى لها سائر الجسد) أي: دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في ذلك، ومنه قوله: تداعت الحيطان، أي: تساقطت أو قَرُبَت من التساقط. .

وقال ابن حجر –رحمه الله–: قوله (تداعى) أي: دعا بعضه بعضًا إلى المشاركة في الألم.

وقال الكوراني –رحمه الله–: أي: كل عضو يدعو العضو الآخر إلى الموافقة، وكذا شأن المؤمن إذا أصاب أخاه المؤمن شيء تألَّم، وهذا شأن المؤمن الكامل .

٣–ينبغي تعظيم حقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضا .

٤–من مقتضيات الإيمان العمل بما تستلزمه الأخوَّة بين المؤمنين من التراحم والتوادد والتعاطف، وأن التقصير في ذلك و التهاون فيه ضعف في الإيمان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– ولهذا كان المؤمن يسره ما يسر المؤمنين ويسوءه ما يسوؤهم ومن لم يكن كذلك لم يكن منهم .

٤– أن على المسلم أن يجتهد في تطهير قلبه نحو إخوانه المسلمين؛ فيفرح بوصول الخير إليهم، ويتألم أن أصابهم ما يضرهم أو يؤلمهم، ويقف معهم في مصائبهم وما ينزل بهم، فيغيث المحتاج، وينصر المظلوم، ويعين ذا الحاجة، ويتعاون معهم على الخير والبر.

٥– عظمة هذا الدين وكماله، بحثه على التآلف والتراحم، فيعيش المسلم بين إخوانه وفي كنفهم معززاً مكرماً في عسره ويسره، وقوته وضعفه، وفي سائر أحواله.

٦–الحث على المحبة والمودة بين المسلمين، والبعد عن البغضاء والقطيعة.

٧–الحث على الرحمة، وخاصة تجاه الضعفاء والمحتاجين وأصحاب البلاء.

٨–الحث على التعاطف والتعاون؛ فالمؤمن يتألم لألم أخيه ويسعى في مساعدته.

٩–تشبيه المجتمع المؤمن بالجسد الواحد؛ فإذا أصيب عضو تأثر به سائر الجسد، وكذلك ينبغي أن يكون حال المسلمين.

١٠–المواساة عند المصائب من صور الأخوة الصادقة، بالكلمة الطيبة، والدعاء، والمساعدة، وتفريج الكرب.

١١–أن الأخوة بين المؤمنين تقوم على ثلاثة معانٍ عظيمة: التوادّ، والتراحم، والتعاطف؛ فالتوادّ في المحبة، والتراحم في الرحمة، والتعاطف في التناصر والمواساة.

١٢–أن سلامة المجتمع مرتبطة بسلامة علاقات أفراده؛ فكلما قويت المحبة والرحمة بينهم قلّت أسباب النزاع والقطيعة.

١٣-أن المسلم لا ينبغي أن يفرح بمصيبة أخيه، بل يحزن لحزنه ويسعى في تخفيفها عنه.

١٤-أن تفريج كرب الآخرين من مقتضيات الأخوة، وليس مجرد تفضل أو إحسان زائد.

١٥-أن المشاعر ينبغي أن تتحول إلى عمل؛ فالتعاطف الحقيقي يظهر في السؤال عن المريض، وإعانة المحتاج، ونصرة المظلوم، ومواساة المصاب.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالاَ فَعَلَى الْبَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ).

==========

(**الْمُسْتَبَّانِ**) أي: المتشاتمان، وهما اللذان سب كل منهما الآخر.

(**مَا قَالاَ**) أي: إثم قولهما من السب والشتم.

(**مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُوم**) أي: مدة عدم اعتداء المظلوم، فإذا اعتدى المظلوم صار عليه الإثم، والمراد باعتدائه: تجاوزه حد الانتصار.

١ - معنى الحديث: أَنَّ إِثْم السِّبَاب الْوَاقِع مِنْ اِثْنَيْنِ مُخْتَصّ بِالْبَادِئِ مِنْهُمَا كُلّه إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَز الثَّانِي قَدْر الِانْتِصَار، فَيَقُول لِلْبَادِئِ أَكْثَر مِمَّا قَالَ لَهُ.

٢ - تحريم سباب المسلم.

٣ - وَفِي هَذَا جَوَاز الِانْتِصَار، وَلَا خِلَاف فِي جَوَازه، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَيْهِ دَلَائِل الْكِتَاب وَالسُّنَّة.

قَالَ اللَّه تَعَالَى (وَلَمَنْ اِنْتَصَرَ بَعْد ظُلْمه فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيل).

وَقَالَ تَعَالَى (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْي هُمْ يَنْتَصِرُونَ).

وقال تعالى (فمن اعتدى عليكم ...).

٤ - أن العفو أفضل.

قَالَ اللَّه تَعَالَى (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْم الْأُمُور).

وقال تعالى (فمن عفا وأصلح ...) وقال تعالى (ولئن صبرتم ...) وقال تعالى (والعافين عن الناس).

ولقوله ﷺ (مَا زَادَ اللَّه عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ...).

٥ - إذا زاد المجيب المنتصر في مجازاته وآذى الظالم بأكثر مما قاله صار ظالماً ويتحمل إثم زيادته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ) .

==========

١-في هذا الحديث ثلاث أمور :

الأول : قوله (**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**) .

فيه فضل الصدقة .

فائدة : ١

فضائل الصدقة :

أولاً: أنها برهان على صحة الإيمان.

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ. وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ - أَوْ تَمْلأُ - مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاَةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ...) رواه مسلم.

قال ابن رجب: وأما الصدقة فهي برهان، ... فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان.

ثانياً: أنها تطهير للنفس.

قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ).

ثالثاً: أنها تغفر الذنوب.

قال ﷺ (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) رواه الترمذي.

رابعاً: أن الصدقة تزيد المال.

قال ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم.

خامساً: أنها تظلل صاحبها يوم القيامة.

قال ﷺ (العبد في ظل صدقته يوم القيامة) رواه أحمد.

وقال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

سادساً: أنها وقاية من النار.

قال ﷺ (النار ولو بشق تمرة) متفق عليه.

وقال ﷺ للنساء (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ). متفق عليه

سابعاً: دعاء الملائكة.

كما قال ﷺ (ما من صباح إلا وينزل ملكان: يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً). متفق عليه

ثامناً: أن فيها علاجاً من الأمراض.

روي عنه ﷺ أنه قال (داووا مرضاكم بالصدقة).

قال ابن شقيق (سمعت ابن المبارك وسأله رجل: عن قرحةٍ خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال: اذهب فاحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء، فإني أرجو أن ينبع هناك عين ويمسك عنك الدم، ففعل الرجل فبرأ).

تاسعاً: أن الله يدفع بالصدقة أنواعاً من البلاء.

كما في وصية يحيى عليه السلام لبني إسرائيل (وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم).

فالصدقة لها تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجرٍ أو ظالمٍ، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض مقرون به لأنهم قد جربوه. (الوابل الصيب)

عاشراً: أنه لا يبقى لصاحب المال من ماله إلا ما تصدق به.

كما في قوله تعالى (ومَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُم).

ولما سأل النبي ﷺ عائشة عن الشاة التي ذبحوها ما بقي منها: قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال (بقي كلها غير كتفها). رواه الترمذي

الحادي عشر: أن يضاعف للمتصدق أجره.

كما في قوله عز وجل (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيم).

وقوله سبحانه (مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون).

الثاني عشر: أن فيها انشراحاً للصدر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدَيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا، فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا) متفق عليه.

فالمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح بها صدره، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه، فكلمَّا تصدَّق اتسع وانفسح وانشرح، وقوي فرحه، وعظم سروره، ولو لم يكن في الصَّدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبدُ حقيقياً بالاستكثار منها والمبادرة إليها وقد قال تعالى (ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُون).

الثالث عشر: الفضل الكبير.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ. لِلاِسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتاً فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَه) رواه مسلم

الرابع عشر: صاحب الصدقة موعود بالخلف.

كما قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

الخامس عشر: أن الله يربي الصدقة.

كما قال تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ – وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ) متفق عليه.

فائدة : ٢

قال السمرقندي : عليك بالصدقة بما قلّ أو كثر، فإن في الصدقة عشر خصال محمودة خمس في الدنيا وخمس في الآخرة:

أما التي في الدنيا:

فأولها: تطهير المال كما قال النبي ﷺ (ألا إن البيع يحضره اللغو والحلف والكذب، فشوبوه بالصدقة).

والثاني: أن فيها تطهير البدن من الذنوب، كما قال الله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ...).

والثالث: أن فيها دفع البلاء والأمراض، كما قال النبي ﷺ (داووا مرضاكم بالصدقة).

والرابع: أن فيها إدخال السرور على المساكين، وأفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمنين.

والخامس: أن فيها بركة في المال وسعة في الرزق، كما قال تعالى (ومَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ).

وأما الخمس التي في الآخرة:

فأولها: أن تكون الصدقة ظلاً لصاحبها في شدة الحر.

والثاني: أن فيها خفة الحساب.

والثالث: أنها تثقل الميزان.

والرابع: جواز على الصراط.

والخامس: زيادة الدرجات في الجنة.

فائدة : ٣

معنى قوله (**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ**) .

قال القاضي عياض -رحمه الله- (مَا نَقَصَتْ صَدقةٌ مِن مَالٍ) فيه وجهان:

أحدهما: أنَّه بِقَدر ما نَقص منه يزيده الله فيه ويُنَمِّيْهِ وَيُكَثِّرُهُ.

والثاني: أنَّه وإن نَقص في نفسه ففي الثواب والأجر عنها ما يجبر ذلك النقص بإضعافه.

وقال ابن عبد البر -رحمه الله-: معنى قوله: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ» أي: لا تُنقِصُ الصَّدقةُ المالَ؛ لأنَّه مالٌ مباركٌ فيه، إذا أُدِّيَتْ زكاتُهُ، وتطَوَّع منه صاحبُهُ؛ لأنَّ الصدقة تُضَاعَف إلى سبعِمَائَةِ ضِعفٍ، ويجدها صاحبُها وقت الحاجة إليها كجَبَل أحُدٍ مُضاعفةً أضْعَافًا كثيرةً؛ فأيُّ نقصانٍ مع هذا؟.

وقال النووي -رحمه الله- (ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مالٍ) ذَكروا فيه وجهين:

أحدهما: معناه: أنَّه يُبَارَك فيه، ويَدفع عنه المِضَرَّات؛ فَينجَبِر نَقص الصورةِ بالبركةِ الخَفِيَّةِ، وهذا مُدرَكٌ بالحِسِّ والعادة.

والثاني: أنَّه وإن نَقصَت صُورته كان في الثَّواب المرَتَّب عليه جَبرٌ لِنَقصه، وزيادةٌ إلى أضعافٍ كثيرةٍ.

وقال الباجي -رحمه الله- قوله: (ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مالٍ) يريد -والله أعلم-: أنَّ الصَّدقة لا تُنقِص المال؛ لأن ما يُنفَق في الصَّدقة فالعِوَض عنه مِن الأجر، وهو مع ذلك سَبَبٌ لِتنميةِ المالِ وحفظه.

وقال الصنعاني -رحمه الله-: فَسَّر العُلماء عدم النَّقص بمعنيين:

الأول: أنَّه يُبَارك له فيه ويُدفع عنه الآفات، فيجبَر نَقص الصورة بالبركة الخفية.

والثاني: أنَّه يَحصُل بالثَّواب الحاصِل عن الصَّدقة جُبرَان نَقص عَينِها، فكأنَّ الصَّدقة لم تُنقِص المالَ؛ لِمَا يَكتُب الله من مضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها إلى أضعَافٍ كثيرةٍ.

قلتُ: والمعنى الثالث: أنَّه تعالى يُخلِفُها بِعِوَضٍ يظهر به عدم نَقص المال، بل ربما زادته، ودليله: قوله تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) وهو مجرَّبٌ مَحسوسٌ.

وقال صفي الرحمن المباركفوري -رحمه الله- قوله (ما نَقَصَتْ صدقةٌ من مالٍ) لأن ما نقص بالصدقة يخلفه الله ببدل من عنده، قال تعالى: (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) ولأن ما يبقى بعد الصدقة يبارك الله فيه؛ حتى يقوم القليل مقام الكثير، فينجبر النقص الظاهر بالبركة الخفية، يضاف إلى ذلك الأجر المرتَّب على الصدقة في الدنيا؛ من احترام الناس وإكرامهم وتقديرهم للمُتصدِّق، والذي يترتَّب في الآخرة من الأضعاف المضاعفة في الثواب، فالصدقة بجنب كل هذا الكسب كأنها ليست بشيء، وأنَّ العائد أكثر مما أنفق وتصدَّق.

فائدة : ٤

معنى قوله ﷺ (كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ) رواه أحمد.

قال المناوي -رحمه الله- (كُل امرئ في ظل صدقته) يوم القيامة حين تدنو الشمس من الرؤوس «حتى يُقضى» لفظ رواية الحاكم: «حتى يفصل بين الناس» يعني: أن المتصدق يُكفى المخاوف، ويصير في كنفِ الله وسَتره، يقال: أنا في ظل فلان، أي: في داره وحِماه، أو المراد الحقيقة بأن تجسد الصدقة فيصير بها في ظل بخلق الله وإيجاده كما قيل فيه، وفي نظائره المعروفة كذبح الموت ووزن الأعمال (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وكان بعض السلف لا يأتي عليه يوم إلا تصدق ولو ببصلة أو لقمة.

وقال المغربي -رحمه الله- الحديث فيه دلالة على فَضْل الصدقة. وكون المرْء في ظلها؛ إما مجاز عن مدافعتها عنه أهوال القيامة، أو أن ذلك على حقيقته، وإن الصدقة تأتي أعيانها يوم القيامة، فيظله عن حر الموقف .

وقال الشيخ ابن عثيمين: ففي هذا الحديث دليل على فضيلة الصدقة، وعلى أنها تكون يوم القيامة ظلًّا لصاحبها، وأنها تكون ظلًّا في جميع يوم القيامة حتى يفصل بين الناس.

فائدة : ٥

من أقوال ابن القيم في فضل الصدقة :

قال ابن القيم: فالصدقة لها تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجرٍ أو ظالمٍ، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض مقرون به لأنهم قد جربوه. (الوابل الصيب)

وقال رحمه الله: الصدقة والإحسان ما أمكنه فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به. ... فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق. (بدائع الفوائد)

وقال رحمه الله: والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه وانفسح بها صدره ... ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها. (الوابل الصيب)

وقال رحمه الله: وفى الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها الا الله: فمنها انها تقى مصارع السوء – وتدفع البلاء حتى انها لتدفع عن الظالم، وتطفئ الخطيئة – وتحفظ المال – وتجلب الرزق – وتفرح القلب – وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به – وترغم الشيطان – وتزكى النفس وتنميها – وتحبب العبد الى الله والى خلقه – وتستر عليه كل عيب – وتزيد في العمر – وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم – وتدفع عن صاحبها عذاب القبر –وتكون عليه ظلا يوم القيامة – وتشفع له عند الله – وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة – وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك. (عدة الصابرين)

وقال رحمه الله : فإن الصدقة تفدي من عذاب الله، فإن ذنوب العبد وخطاياه تقتضي إهلاكه، فتجاء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما خطب النساء يوم العيد (يا معشر النساء تصدقن ... فإني رأيتكن أكثر أهل النار. (الوابل الصيب)

وقال رحمه الله : ... وأفضل الصدقة ما صادفت حاجة من المتصدق عليه وكانت دائمة مستمرة ومنه قول النبي أفضل الصدقة سقى الماء وهذا في موضع يقل فيه الماء ويكثر فيه العطش وإلا فسقى الماء على الأنهار والقنى لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة. (الروح)

فائدة : ٦

وقد أمر الله تعالى بالصدقة قبل قيام القيامة الصغرى وقبل الكبرى:

فقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ).

والموت القيامة الصغرى.

وقبل يوم القيامة: فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

فائدة : ٧

وقد جاء الأمر بالصدقة والحرص عليها والمبادرة بها قبل أن لا يوجد من يقبلها.

عن حَارِثَة بْن وَهْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (تَصَدَّقُوا فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ فَلاَ يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهَا يَقُولُ الرَّجُلُ لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا فَأَمَّا الْيَوْمَ فَلاَ حَاجَةَ لِي بِهَا) متفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ لاَ أَرَبَ لِي) متفق عليه.

وعَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَطُوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بِالصَّدَقَةِ مِنَ الذَّهَبِ ثُمَّ لاَ يَجِدُ أَحَدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْنَ بِهِ مِنْ قِلَّةِ الرِّجَالِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ) متفق عليه.

فائدة : ٨

ينبغي للمسلم ألا يحتقر القليل من الصدقة .

ففي حديث أبي هريرة. قال: قال ﷺ (من تصدق بعدل تمرة، من كسب طيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، فتربو في كف الرحمن، حتى تكون أعظم من الجبل) متفق عليه .

وعن عدي بن حاتم . قال : قال ﷺ (اتقوا النار ولو بشق تمرة) متفق عليه .

فائدة : ٩

الأفضل في صدقة التطوع أن تكون سراً.

لقوله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلع : ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه

وقال تعالى (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ).

قال السعدي: قوله تعالى (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ) قال السعدي: أي: فتظهروها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله (فنعما هي) أي: فنعم الشيء (هي) لحصول المقصود بها.

وقال ابن القيم: قوله تعالى (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) أي فنعم شيء هي وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاء فتفوت أو تعترضه الموانع ويحال بينه وبين قلبه أو بينه وبين إخراجها فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر وهذه كانت حال الصحابة (وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) أي: وإن تسروها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأنه أبعد عن الرياء.

وقال ابن كثير: فيه دلالة على إن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية.

فالأصل أن الإسرار أفضل، لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وجاء في الحديث (صدقة السر تطفئ غضب الرب).

وقال القرطبي: قوله تعالى (فَنِعِمَّا هِيَ) ثناء على إبداء الصدقة، ثم حكم على أن الإخفاء خير من ذلك.

ولذلك قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطُنع إليك فانشره.

ثانياً : قوله (**وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا**) .

فيه فضل العفو وأنه سبب للعـزة .

فائدة : ١

فضائل العفو :

أولاً: أن فيه استجابة لأمر الله تعالى وطاعة لله ورسوله.

قال تعالى (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ).

وقال تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ).

وقال تعالى (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

ثانياً: وهو يورث العز في الدنيا والآخرة.

كما في حديث الباب (وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً).

ثالثاً: وهو يورث محبة الله عزوجل.

قال تعالى (الذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

رابعاً: يجلب الأجر الجزيل من الله تعالى.

قال تعالى (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ).

قال السعدي: وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

خامساً: يوجب عفو الله عن العبد يوم القيامة.

ففي الحديث (كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا فلقي الله فتجاوز عنه). متفق عليه

سادساً: وهو من صفات الرسول ﷺ .

كما قال عبد الله بن عمرو: إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة (أنه ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح) رواه البخاري.

سابعاً: سبب لمغفرة الذنوب.

قال تعالى (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

ثامناً: من صفات المتقين.

قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

فائدة : ٢

قال النووي: من عرف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب وزاد عزة وكرامة.

فائدة : ٣

قال ابن تيمية: ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذلاً يجده في نفسه، فإذا عفا أعزه الله مصداقاً لقول النبي ﷺ : وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً.

فائدة : ٤

من أقوال السلف :

عن أيوب قال: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عنهم.

وهذا زين العابدين بن علي ﷺ أتت جاريته تصب الماء عليه فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه فقالت: والكاظمين الغيظ فقال: كظمت غيظي، قالت: والعافين عن الناس قال: عفوت عنك، قالت: والله يحب المحسنين، قال: أنت حرة لوجه الله.

قال الحسن: كانوا يقولون أفضل أخلاق المؤمن العفو.

قال ابن حبان: الواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة! إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسنُ من الإحسان، ولا سبب لنماءِ الإساءة وتهييجها أشدُّ من الاستعمال بمثلها.

وقال عمر بن عبد العزيز: أحب الأمور إلى الله ثلاثة: العفو في القدرة، والقصد في الجدة، والرفق في العبادة، وما رفق أحد بأحد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة.

وراحت النفس في العفو: فقد قال أحد الشعراء:

لما عفوت، ولم أحقد على أحدٍ ... أرحت قلبي من غم العداوات

إني أحي عدوي عند رؤيته ... لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه ... كأنما قد حشى قلبي محبات

فائدة : ٥

أعظم سبب يقود للعفو عن الناس، ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته النفيسة (قاعدة في الصبر) الأسباب التي تُعين المسلم على الصبر على أذى الناس قال: الثالث: أنْ يَشْهَدَ العبدُ حُسْنَ الثواب الذي وعده الله لمن عفى وصبر، كما قال تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ).

الثالث : قوله (**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ**) .

فيه فضل التواضع وأنه سبب للرفعـة .

فائدة : ١

فضائل التواضع :

سبب للرفعة.

لقوله ﷺ (ما تواضع لله رفعه الله) .

وهو من صفات عباد الرحمن.

قال تعالى (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا).

قال ابن كثير: هذه صفات عباد الله المؤمنين (الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا) أي: بسكينة ووقار من غير جَبَرية ولا استكبار، كما قال (وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا). فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر.

قال السعدي: فوصفهم بأنهم (يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا) أي: ساكنين متواضعين لله والخلق فهذا وصف لهم بالوقار والسكينة والتواضع لله ولعباده.

وهو من صفات من يحبهم الله.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ).

قال ابن كثير: هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليه، متعززًا على خصمه وعدوه.

ويورث المحبة.

قيل: التواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة.

قال ابن حبان: ... والتواضع يكسب السلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويذهب الصد، وثمرة التواضع المحبة، كما أن ثمرة القناعة الراحة، وإن تواضع الشريف يزيد في شرفه، كما أن تكبر الوضيع يزيد في ضعته.

والتواضع من أخلاق الأنبياء وشِيَم النبلاء.

فهذا موسى عليه السلام رفع الحجرَ لامرأتين أبوهما شيخٌ كبير.

وداود عليه السلام كان يأكل من كَسب يده.

وزكريّا عليه السلام كان نجّارًا.

وعيسى عليه السلام يقول (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا).

وما مِن نبيّ إلاّ ورعى الغنم، ونبيّنا ﷺ .

والتواضعُ سبَب العدلِ والأُلفة والمحبّة في المجتمع.

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (إِنَّ اَللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

فائدة : ٢

معنى قوله ﷺ (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) .

قال النووي: قوله ﷺ (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) فيه وجهان:

أحدهما: يرفعه في الدنيا، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس، ويجل مكانه.

والثاني: أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورفعه فيها بتواضعه في الدنيا.

قال العلماء: وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة، والله أعلم. (شرح نووي)

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- وقوله (وما تواضع أحدٌ لله إلَّا رفعهُ اللهُ) أي: رَفَعَ قَدْرَه في القُلوب؛ لإخلاصه في التواضع.

وقال القاضي عياض -رحمه الله-: فيه وجهان:

أحدهما: أنَّ الله تعالى يَمنحه ذلك في الدنيا جزاءً على تواضعه له، وأنَّ تَواضعه يُثبِت له في القُلوب مَحبَّةً ومكانةً وعِزَّةً.

والثاني: أن يكون ذلك ثَوابه في الآخرة على تَواضعه.

وهذه الوجوه كُلها في الدنيا ظاهرةً موجودةً، وقد صدق ﷺ فيما أخبر منها، وقد يكون جَمَع الوجهين في جميعِها، وكان هذا كله تنبيهًا على رَدِّ قولِ مَن يقول: الصَّبر والحِلْم الذُّلُّ .

وقال الصنعاني -رحمه الله- وفي قوله «وما تواضعَ أحدٌ للهِ» أَي: لأجل ما أعدَّه الله للمتواضعين، «إلَّا رَفَعَهُ اللهُ» دليلٌ على أنَّ التواضع سبب للرِّفعةِ في الدَّارين لإطلاقه.

فائدة : ٣

من أقوال السلف في التواضع :

وقال إبراهيم بن شيبان: الشَّرف في التَّواضُع، والعزُّ في التَّقوى، والحرِّية في القناعة

قال أبو بكر : رضي الله عنهوجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع .

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "إنكم لمغفلون، أفضل العبادة: التواضع" .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظرٍ *** على صفحات الماء وهو رفيعُ

ولا تك كالدخان يعلو بنفسه *** إلى طبقات الجو وهو وضيعُ

قال ابن الحاج رحمه الله: من أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى؛ فإن العزة لا تقع إلا بقدرِ النزولِ، ألا ترى أن الماءَ لما نزلَ إلى أصلِ الشجرةِ صعدَ إلى أعلاها فكأن سائلاً سأله: ما صعدَ بِكَ هنا - أعني في رأس الشجرة- وأنت تحت أصلها؟ فكأن لسان حاله يقول: من تواضع لله رفعه.

قال ابن قتيبة: ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة.

قال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها إلا التواضع.

قال بعض الحكماء: إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبّر.

قال الشافعي : التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام، والتواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة

وقال عامر بن عبد الله: من تواضع تخشعاً رفعه الله ومن تكبر تعظماً وضعه الله.

قال بعض الحكماء: البلية التي لا يؤجر عليها المبتلى بها: العجب، والنعمة التي لا يحسد عليها: التواضع.

قال الغزالي: يقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه.

وقال الذهبي في السير وإيثار الخمول والتواضع، وكثرة الوجل من علامات التقوى والفلاح.

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ---- فإن رفيعَ القوم من يتواضع

قال ابن حبان: الواجب على العاقل لزوم التواضُع ومجانبة التكبُّر، ولو لم يكن في التواضُع خصلة تُحمَد إلا أن المرء كلما كثر تواضُعه، ازداد بذلك رفعة، لكان الواجب عليه ألَّا يتزيَّا بغيره، والتواضُع يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيده نُبْلًا.

وقال الذهبي في السير وإيثار الخمول والتواضع، وكثرة الوجل من علامات التقوى والفلاح.

قال الشاعر :

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة ---- فإن رفيعَ القوم من يتواضع.

فائدة : ٤

قال ابن حبان: الواجب على العاقل لزوم التواضُع ومجانبة التكبُّر، ولو لم يكن في التواضُع خصلة تُحمَد إلا أن المرء كلما كثر تواضُعه، ازداد بذلك رفعة، لكان الواجب عليه ألَّا يتزيَّا بغيره، والتواضُع يرفع المرء قدرًا، ويعظم له خطرًا، ويزيده نُبْلًا.

فائدة : ٥

قال ابن القيم: من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زِيدَ في علمه، زِيدَ في تواضعه ورحمته، وكلما زِيدَ في عمله، زِيدَ في خوفه وحذره، وكلما زِيدَ في ماله، زِيدَ في سخائه وبذله، وكلما زِيدَ في قدره وجاهه، زِيدَ في قربه من الناس وقضاء حوائجهم، والتواضع لهم.

فائدة : ٦

وجوب الإخلاص في التواضع .

قال ابن الجوزي –رحمه الله– قوله: (وما تواضع أحدٌ لله إلَّا رفعهُ اللهُ) أي: رَفَعَ قَدْرَه في القُلوب؛ لإخلاصه في التواضع.

وقال السعدي –رحمه الله– (وما تواضعَ أحدٌ للهِ) تَنبيهٌ على حسنِ القَصد والإخلاص لله في تواضعه؛ لأن كثيرًا من النَّاس قد يُظهِر التواضع للأغنياء ليُصيب من دنياهم، أو للرؤساء لينال بسببهم مَطلوبه، وقد يُظهر التواضع رياءً وسُمعةً، وكل هذه أغراض فاسدةٌ، لا ينفع العبد إلا التواضع لله تقربًا إليه، وطلبًا لثوابه، وإحسانًا إلى الخلق؛ فَكمال الإحسان وروحه: الإخلاص لله.

فائدة : ٧

أمور تعين على التواضـع :

التفكر في أصل خلْقة الإنسان:

إن تفكُّرَ الإنسان في أصْلِ نَشْأتِهِ، يُعِينهُ على أن يكون مِنَ المتواضعين، ولقد ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى في كتابه العزيز أصْلَ خِلْقَةِ الإنسان، ومراحل تكوينه في رَحِمِ أمه .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا) .

التفكر في مصير الإنسان بعد موته:

قَالَ جَلَّ شَأْنَهُ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّار) .

وقال سُبْحَانَهُ (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

قال أَبُو الْأَحْوَصِ رَحِمَهُ اللهُ: افْتَخَرَتْ قُرَيْشٌ عِنْدَ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ ﷺ، فَقَالَ سَلْمَانُ: لَكِنِّي خُلِقْتُ مِنْ نُطْفَةٍ قَذِرَةٍ، ثُمَّ أَعُودُ جِيفَةً مُنْتِنَةً، ثم يؤتى بالميزان، فإن ثقلت موازيني، فأنا كريم، لكني وَإِنْ خَفَّتْ فَأَنَا لَئِيمٌ .

معرفة الإنسان قدرته الحقيقية:

إنَّ مَعْرِفَةَ الإِنْسَانِ قَدْرَ عَظَمَةِ رَبِّهِ وَمَعْرِفَتِهِ قَدْرَ نَفْسِهِ، وَأَنَّهُ شَخْصٌ ضَعِيفٌ فَانٍ، وَأَنَّ كُلَّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْمُوجِبَةِ لِلرَّفْعَةِ وَالْكِبْرَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لا ثَبَاتَ لَهَا، بَلْ هِيَ أَعْرَاضٌ زَائِلَةٌ، وَيُدْرِكُ أَنَّ رَبَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْعَظِيمُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْبَقَاءِ وَالْكِبْرِيَاءِ، فَهَذَا لا يَتَمَرَّدُ عَلَى خَالِقِهِ بِاقْتِرَافِ الْجَرَائِمِ وَالآثَامِ،

وَعِنْدَ ذَلِكَ يُعَامِلُ النَّاسَ مُعَامَلَةٌ حَسَنَةٌ بِلُطْفٍ وَرَحْمَةٍ وَرِفْقٍ وَلِين جَانِبٍ، وَلا يَتَكَبَّرُ عَلَى أَحَدٍ، وَلا يُبَالِي بِمَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ الْكَاذِبَةِ، وَلا يَتَرَفَّعُ عَنْ مُجَالَسَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَشْي مَعَهُمْ، وَإِجَابَةِ دَعَوَتِهِمْ وَمُخَاطَبَتِهِمْ بِالْكَلامِ اللَّينِ، وَلا يَأْنَفُ مِن اسْتِمَاعِ نَصِيحَةِ مَنْ هُوَ دُونَهُ .

والله لو عرفت قدر نفسك يا عبد الله ما تكبرت، ولو عرفت يا عبد الله من أنت؟ وممَّ أنت؟ ومن أين خرجت؟ وما الذي تحمله الآن في بطنك؟ ما تكبرت!

قال بعضهم: عجبت لمن يدخل الحمام في اليوم مرتين، كيف يتكبر!

يا مدعي الكبر إعجابًا بصورته انظر خلاك فإن النتن تثريب

لو فكر الناس فيما في بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

يابن التراب ومأكول التراب غدًا أقصر فإنك مأكول ومشروب

معرفة ثواب التواضع:

إنَّ معرفةَ الثواب الذي أَعَدَّهُ اللهُ تَعَالَى للمتواضعين المخلصين مِنِ الوسائل التي تُعِينُ المسلمَ عَلى التواضع .

وقد تقدمت فضائل التواضع وأنه سبب للرفعـة .

قال الصنعاني (... إلَّا رَفَعَهُ اللهُ) في الدنيا والآخرة، والتكبر سبب لضِدِّ ذلك، وكذا من تواضع لأوامر الله واتبعها؛ بل هو أعلى أنواع التواضع.

فائدة : ٨

قال الطبري –رحمه الله–: في التَّواضع مصلحةُ الدِّين والدنيا، فإن النَّاس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء، ولاستراحوا من تعب الْمُباهاة والمفاخرة.

فائدة : ٩

التواضع خلق حميد، وجوهر لطيف، يستهوي القلوب، ويستثير الإعجاب والتقدير، وهو من أخص خصال المؤمنين المتقين، ومن كريم سجايا العاملين الصادقين، ومن شيم الصالحين المخبتين.

التواضع هدوء وسكينة ووقار واتزان، التواضع بشاشة وجه، ولطافة خلق، وحسن معاملة، بتمام التواضع وصفائه يتميز الخبيث من الطيب، والأبيض من الأسود، والصادق من الكاذب، وما تواضع أحد لله تعالى، إلا رفعه الله سبحانه.

المتواضع يبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه، كريم الطبع، جميل العشرة، طلق الوجه، رقيق القلب، متواضع من غير ذلة، جواد من غير إسراف .

فائدة : ١٠

قال تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض؛ أي: ترفُّعًا على خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبُّرًا بهم، ولا فسادًا فيهم .

فائدة : ١١

قال الإمام ابن القيم: لا تصحُّ لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحبُّ، وممن تُبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك... ومن أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته، حقًّا كانت أو باطلًا، وتكلُ سريرته إلى الله تعالى.

٢-**قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي** -رحمه الله- هذا الحديث: احتوى على فضل الصَّدقة، والعَفو والتَّواضع، وبيان ثمراتها العاجلة والآجلة، وأنَّ كل ما يَتوهَّمه الْمُتوهِّم من نقص الصدقة للمال، ومنافاة العفو للعِزِّ، والتواضع للرفعة، وهْمٌ غالط، وظنٌّ كاذب، فالصَّدقة لا تُنقِص المال؛ لأنه لو فُرِض أنَّه نَقصَ من جهة، فقد زاد من جهاتٍ أُخَر؛ فإن الصدقة تُباركُ المال، وتَدفع عنه الآفات وتُنَمِّيْه، وتفتح للمتصدِّق من أبواب الرزق، وأسباب الزِّيادة أمورًا ما تُفْتَح على غيره، فهل يقابل ذلك النَّقص بعض هذه الثمرات الجليلة؟

وهذه الثلاث المذكورات في هذا الحديث: مُقدمات صفات المحسنين، فهذا محسنٌ في ماله، ودفع حاجة المحتاجين، وهذا محسنٌ بالعفو عن جنايات المسيئين، وهذا محسنٌ إليهم بحلمه وتواضعه،

وحسن خُلُقه مع الناس أجمعين. وهؤلاء قد وَسِعوا النَّاس بأخلاقهم وإحسانهم، ورفعهم الله، فصار لهم المِحل الأشرف بين العباد، مع ما يَدَّخر الله لهم من الثواب .

٣-**قال الصنعاني** : في الحديثٍ حثٌّ على الصَّدقة، وعلى العفو، وعلى التواضع، وهذه من أمهات مكارم الأخلاق .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ » قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ » قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ) .

==========

١ – الحديث فيه تعريف للغيبة من النبي ﷺ وهي قوله: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ.

فكل قول أو فعل ذكرته في أخيك وهو يكرهه وهو غائب فإنه غيبة.

كأن يتكلم فيه بجرح وذم، أو يقلده في حركاته ومشيه مستهتراً به.

قال النووي رحمه الله: فأما الغيبة: فهي ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه، أو دينه، أو دنياه، أو نفسه، أو خَلقه، أو خُلقه، أو ماله، أو ولده، أو والده، أو زوجه، أو خادمه، أو مملوكه، أو عمامته، أو ثوبه، أو مشيته، وحركته وبشاشته وخلاعته، وعبوسه، وطلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو رمزت، أو أشرت إليه بعينك، أو يدك، أو رأسك أو نحو ذلك.

أما البدن، فكقولك: أعمى، أعرج، أعمش، أقرع، قصير، طويل، أسود، أصفر.

وأما الدين، فكقولك: فاسق، سارق، خائن، ظالم، متهاون بالصلاة، متساهل في النجاسات، ليس بارا بوالده، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة.

وأما الدنيا: فقليل الأدب، يتهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقا، كثير الكلام، كثير الأكل أو النوم، ينام في غير وقته، يجلس في غير موضعه.

وأما المتعلق بوالده، فكقوله: أبوه فاسق، أو هندي، أو زنجي، نجار، حداد.

وأما الخُلُق، فكقوله: سيئ الخلق، متكبر، مراء، عجول، جبار، عاجز، ضعيف القلب، متهور، عبوس، خليع، ونحوه.

وأما الثوب: فواسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثوب ونحو ذلك، ويقاس الباقي بما ذكرناه.

وضابطه: ذكره بما يكره. (الأذكار)

٢ – لقد جاءت النصوص الكثيرة التي تدل على حرمة الغيبة وأنها من الكبائر.

قال تعالى (وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ).

ينهى تعالى عن الغيبة، وهي ذكرك أخاك بما يكره، ثم ذكر مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) تمثيلاً لشناعة الغيبة وقبحها بما لا مزيد عليه من القبيح، أي هل يحب الواحد منكم أن يأكل لحم أخيه المسلم وهو ميت (فكرهتموه) أي فكما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا الغيبة شرعاً، فإن عقوبتها أشد من هذا.

شبه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتاً، وهذا أمر مستقبح.

وهذا التشبيه التمثيلي من أروع الأساليب القرآنية وأشدها تأثيراً في نفس المكلف، ولهذا التشبيه أوجه عدة بين المشبه والمشبه به:

أولها: أن الذي يُغتاب لا يعلم أن أخاه يغتابه تماماً، كما أن الميت لا يعلم من يأكل لحمه.

ثانياً: أن الذي يَغتاب أخاه الحي قد هتك حرمة أخيه تماماً كما أن آكل لحم أخيه ميتاً قد هتك حرمته.

ثالثها: أن الغيبة أمر مستقذر في الطبائع السليمة تماماً كما أن أكل لحم الميت أمر مستقذر طبعاً وقال تعالى (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً).

وقال النبي ﷺ (من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال). رواه أبو داود

(ردغة الخبال: عصارة أهل النار من صديد وقيح والعياذ بالله).

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال (من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه يوم القيامة، فيقال له كله ميتاً كما أكلته حياً فيأكله فيكلح ويصيح). رواه أبو يعلي وابن حبان بسند صحيح

وقال ﷺ (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا). متفق عليه

فإنها تأكل الحسنات:

كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ («أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ» قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ») رواه مسلم.

وهي من أسباب عذاب القبر.

كما جاء في حديث ابن عباس قال (مر النبي ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستنزه من بوله وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة وجاء في رواية: بالغيبة).

وهي ذنب عظيم كبير.

عن عائشة. قالت (قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة: تعني قصيرة: فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته) رواه أبو داود.

وهي سبب من أسباب دخول النار.

كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَال (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِى بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ).

وفي رواية (وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغَ ما بلغت، يكتبُ الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه). رواه مالك

وهي سبب للعذاب قبل الآخرة.

كما في حديث أنس. قال: قال رسول الله ﷺ (لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم! فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم) رواه أبو داود.

وهي سبب للفضيحة.

قال ﷺ (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته).

الْمُغتابُون لَهُم رِيحٌ خَبيثةٌ مُنتنةٌ .

عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ قالَ (كُنَّا معَ رسولِ اللهِ ﷺ وارْتَفَعَتْ رِيحٌ خَبيثَةٌ مُنْتِنَةٌ، فقالَ: أَتَدْرُونَ ما هذهِ؟ هذهِ رِيحُ الذينَ يَغْتَابُونَ الْمُؤْمِنِينَ) رواه البخاري في الأدب المفرد وحسَّنه ابنُ حجر.

٣-من أقوال السلف :

قال يحيي بن معاذ: ليكن حظ المؤمن منك ثلاثاً: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تفرحه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

واغتاب رجل عند معروف الكرخي فقال له: اذكر القطن إذا وضع على عينيك.

وقيل للربيع بن خثيم: ما نراك تغتاب أحداً؟ فقال: لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لذم الناس.

وقال الإمام مالك: أدركت بهذه البلدة - يعني المدينة - أقواماً ليس لهم عيوب فعابوا الناس فصارت لهم عيوب، وأدركت بهذه البلدة أقواماً كانت لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب الناس فنسيت عيوبهم.

وقال محمد بن سيرين: إن أكثر الناس خطايا أكثرهم ذكراً لخطايا الناس.

وعن الشّعبيّ -رحمه الله- أنّ العبّاس بن عبد المطّلب قال لابنه عبد الله: يا بنيّ، أرى أمير المؤمنين يدنيك، فاحفظ منّي خصالاً ثلاثاً: لا تغتب من له سرّ، ولا يسمعنّ منك كذباً، ولا تغتابنّ عنده أحداً.

وقال البخاري: ما اغتبت أحداً منذ علمت أن الغيبة حرام.

وقال ابن المبارك: لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والديّ لأنهما أحق بحسناتي.

وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلاً قال له: إنك تغتابني، فقال: ما بلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

ذكر أن عيسى قال لأصحابه: أرأيتم لو أتيتم على رجل نائم، قد كشف الريح عن بعض عورته؟ كنتم تسترون عليه؟ قالوا: نعم؟ قال: بل كنتم تكشفون البقية، قالوا: سبحان الله؟!! كيف نكشف البقية؟ قال: أليس يُذكر عندكم الرجل فتذكرونه بأسوأ ما فيه، فأنتم تكشفون بقية الثوب عن عورته.

وقَالَ بَعْضُ العلماءِ : أَدْرَكْنَا السَّلَفَ وَهُمْ لَا يَرَوْنَ الْعِبَادَةَ فِي الصَّوْمِ وَلَا فِي الصَّلَاةِ، وَلَكِنْ فِي الْكَفِّ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ .

٤ – إن اللسان لا يسكت البتة، فإما لسان ذاكر وإما لسان لاغٍ ولا بد من أحدهما.

فهي النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وهو القلب إن لم تسكنه محبة الله سكنتْه محبة المخلوقين ولا بد.

وهو اللسان إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو ولا بد.

٥–متى تجوز الغيبة ؟

قال النووي: اعْلَمْ أنَّ الغِيبَةَ تُبَاحُ لِغَرَضٍ صَحيحٍ شَرْعِيٍّ لا يُمْكِنُ الوُصُولُ إِلَيْهِ إِلاَّ بِهَا، وَهُوَ سِتَّةُ أسْبَابٍ:

الأَوَّلُ: التَّظَلُّمُ، فَيَجُوزُ لِلمَظْلُومِ أنْ يَتَظَلَّمَ إِلَى السُّلْطَانِ والقَاضِي وغَيرِهِما مِمَّنْ لَهُ وِلاَيَةٌ، أَوْ قُدْرَةٌ عَلَى إِنْصَافِهِ مِنْ ظَالِمِهِ، فيقول: ظَلَمَنِي فُلاَنٌ بكذا.

الثَّاني: الاسْتِعانَةُ عَلَى تَغْيِيرِ المنْكَرِ، وَرَدِّ العَاصِي إِلَى الصَّوابِ، فيقولُ لِمَنْ يَرْجُو قُدْرَتهُ عَلَى إزالَةِ المنْكَرِ: فُلانٌ يَعْمَلُ كَذا، فازْجُرْهُ عَنْهُ ونحو ذَلِكَ ويكونُ مَقْصُودُهُ التَّوَصُّلُ إِلَى إزالَةِ المنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ كَانَ حَرَاماً.

الثَّالِثُ: الاسْتِفْتَاءُ، فيقُولُ لِلمُفْتِي: ظَلَمَنِي أَبي، أَوْ أخي، أَوْ زوجي، أَوْ فُلانٌ بكَذَا، فَهَلْ لَهُ ذَلِكَ؟ وَمَا طَرِيقي في الخلاصِ مِنْهُ، وتَحْصيلِ حَقِّي، وَدَفْعِ الظُّلْمِ؟ وَنَحْو ذَلِكَ، فهذا جَائِزٌ لِلْحَاجَةِ، ولكِنَّ الأحْوطَ والأفضَلَ أنْ يقول: مَا تقولُ في رَجُلٍ أَوْ شَخْصٍ، أَوْ زَوْجٍ، كَانَ مِنْ أمْرِهِ كذا، فَإِنَّهُ

يَحْصُلُ بِهِ الغَرَضُ مِنْ غَيرِ تَعْيينٍ وَمَعَ ذَلِكَ، فالتَّعْيينُ جَائِزٌ كَمَا سَنَذْكُرُهُ في حَدِيثِ هِنْدٍ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الرَّابعُ: تحذير المسلمين مِنَ الشَّرِّ وَنَصِيحَتُهُمْ، وذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

مِنْهَا: جَرْحُ المجْرُوحينَ مِنَ الرُّواةِ والشُّهُودِ، وذلكَ جَائِزٌ بإجْمَاعِ المسْلِمينَ، بَلْ وَاجِبٌ للْحَاجَةِ.

ومنها: المشَاوَرَةُ في مُصاهَرَةِ إنْسانٍ، أو مُشاركَتِهِ، أَوْ إيداعِهِ، أو معاملته، أو غير ذَلِكَ، أَوْ مُجَاوَرَتِهِ، ويجبُ عَلَى المشاوَر أنْ لا يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة.

ومنها: إذَا رأى مُتَفَقِّهاً يَتَرَدَّدُ إلَى مُبْتَدِعٍ، أَوْ فَاسِقٍ يَأَخُذُ عَنْهُ العِلْمَ، وخَافَ أنْ يَتَضَرَّرَ المتَفَقِّهُ بِذَلِكَ، فَعَلَيْهِ نَصِيحَتُهُ بِبَيانِ حَالِهِ، بِشَرْطِ أنْ يَقْصِدَ النَّصِيحَةَ، وَهَذا مِمَّا يُغلَطُ فِيهِ. وَقَدْ يَحمِلُ المتَكَلِّمَ بِذلِكَ الحَسَدُ، وَيُلَبِّسُ الشيطان عَلَيْهِ ذَلِكَ، ويُخَيِّلُ إلَيْهِ أنَّهُ نَصِيحَةٌ فَليُتَفَطَّنْ لذلك.

ومنها: أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها، إما بأن لا يكون صَالِحاً لَهَا، وإما بِأنْ يكونَ فَاسِقاً، أَوْ مُغَفَّلاً، وَنَحوَ ذَلِكَ فَيَجِبُ ذِكْرُ ذَلِكَ لِمَنْ لَهُ عَلَيْهِ ولايةٌ عامَّةٌ لِيُزيلَهُ، وَيُوَلِّيَ مَنْ يُصْلحُ، أَوْ يَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ لِيُعَامِلَهُ بِمُقْتَضَى حالِهِ، وَلاَ يَغْتَرَّ بِهِ، وأنْ يَسْعَى في أنْ يَحُثَّهُ عَلَى الاسْتِقَامَةِ أَوْ يَسْتَبْدِلَ بِهِ.

الخامِسُ: أنْ يَكُونَ مُجَاهِراً بِفِسْقِهِ أَوْ بِدْعَتِهِ كالمجَاهِرِ بِشُرْبِ الخَمْرِ، ومُصَادَرَةِ النَّاسِ، وأَخْذِ المكْسِ؛ وجِبَايَةِ الأمْوَالِ ظُلْماً وَتَوَلِّي الأمُورِ الباطِلَةِ، فَيَجُوزُ ذِكْرُهُ بِمَا يُجَاهِرُ بِهِ؛ وَيَحْرُمُ ذِكْرُهُ بِغَيْرِهِ مِنَ العُيُوبِ، إلاَّ أنْ يكونَ لِجَوازِهِ سَبَبٌ آخر مما ذكرناه.

السَّادِسُ: التعرِيفُ، فإذا كَانَ الإنْسانُ مَعْرُوفاً بِلَقَبٍ، كالأعْمَشِ، والأعرَجِ، والأَصَمِّ، والأعْمى، والأحْوَلِ، وغَيْرِهِمْ جاز تعريفهم بذلك، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفهم بِغَيرِ ذَلِكَ كَانَ أوْلَى.

فهذه ستَّةُ أسبابٍ ذَكَرَهَا العُلَمَاءُ وأكثَرُها مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَدَلائِلُهَا مِنَ الأحادِيثِ الصَّحيحَةِ مشهورَةٌ.

فائدة :

ما حكم غيبة الكافر؟

الكافر على نوعين:

الكافر المحارب للإسلام.

وهذا لا حرمة له فيجوز ذكر نقائصه للتحذير منه وإضعاف هيبته

قال الله تعالى: (ولا ينالون من عدو نيلا) يقال: نال منه إذا أصابه برزء ويدخل فيه كل ما يصيبهم وينقص من قوتهم وعزيمتهم ويزيد من قوة المسلمين عليهم حساً ومعنى ويدخل في ذلك ذكر نقائصهم وعيوبهم لعموم اللفظ.

وفي البخاري عن البراء بن عازب (سمعت رسول الله (يقول لحسان يوم قريظة: " اهجهم أو هاجهم وجبريل معك.

ومعنى (اهجهم) فعل أمر من هجا يهجو هجوا وهو الذم ومعنى (هاجهم) من المهاجاة أي جازهم بهجوهم.

الكافر المعاهد بعقد ذمة أو أمان:

مثاله:

الكافر الذي يدخل إلى بلاد المسلمين بعقد وقانون يحفظ له حقوقه.

الكفار الذين يعيش المسلم بينهم في بلادهم أو يفد إليهم بعقد وقانون عمل أو دراسة أو علاج ونحو ذلك.

وأحكام غيبة هذا النوع من الكفار كأحكام غيبة المسلم وإن كان المسلم أشد حرمة من غيره على الصحيح لفضل الإسلام عليه.

وقيل: تجوز غيبته، لأنه لا حرمة له.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ يَسْتُرُ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ فِي الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

==========

١-معنى الحديث : أنَّ اللَّهَ إذا سَتَرَ على عَبدِه في الدُّنيا ذُنوبَه وما اقتَرَفه ولَم يَفضَحْه بَينَ النَّاسِ، إلَّا سَتَرَه اللهُ يَومَ القيامةِ، أي: فإنَّ اللَّهَ تعالى أيضًا سيَستُرُه يَومَ القيامةِ، وذلك بأن يَستُرَ مَعاصيَه وعُيوبَه عن إذاعَتِها في أهلِ الموقِفِ، فيَغفِرَها له ولا يُعاقِبَه عليها؛ ففي رِوايةٍ: أنَّ اللَّهَ تعالى يُقَرِّرُ

عَبدَه بذُنوبِه ويَقولُ له: عَمِلتَ ذَنبَ كذا وكذا؟ فيُقِرُّ العَبدُ بكُلِّ تلك الذُّنوبِ، ثُمَّ يَقولُ اللهُ تعالى له: سَتَرتُها عليك في الدُّنيا وأنا أغفِرُها لك اليَومَ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى ما سَتَرَ عَبدَه في الدُّنيا إلَّا كَرَمًا مِنه ورِفقًا به ورَحمةً له. وقيلَ: يَكونُ السَّترُ بتَركِ مُحاسَبتِه عليها وتَركِ ذِكرِها.

قال صفي الرحمن المباركفوري -رحمه الله- معنى الحديث: أنَّ العبد إذا أذنب ذنبًا، فلم يفضحه الله في الدُّنيا، فإنه لا يفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، بل يستر ذنبه، ويغفر له.

قال القاضي عياض -رحمه الله- يكون ستره له ستر عيوبه ومعاصيه عن إذاعتها على أهل المحشر، وقد يكون ترك محاسبته عليها، وذكرها له، والأَوَّل أظهر؛ لِمَا جاء في الحديث الآخر: «سترك بذنوبه» يقول: «سترتها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفرها لك اليوم».

وقال ابن رسلان -رحمه الله- قلت: ويجوز الأمران: فلا يُذيع معاصيه وعيوبه لأهل الموقف، ويَترك محاسبته عليها

وقال ابن رجب -رحمه الله- : قد وردت أحاديث تدلُّ على أنَّ مَن ستر الله عليه في الدُّنيا، فإن الله يستر عليه في الآخرة، كحديث ابن عمر في النَّجوى، وقد خرَّجه البخاري في التَّفسير، وخرَّج الترمذي وابن ماجه عن علي مرفوعًا: «مَن أذنب ذنبًا في الدُّنيا، فستره الله عليه، فالله أكرم أنْ يعود في شيء قد عفا عنه» وفي المسند عن عائشة مرفوعًا: «لا يستر الله على عبد ذنبًا في الدُّنيا إلَّا ستره عليه في الآخرة» وروي مثله ذلك عن علي وابن مسعود من قولهما، وقد يحمل ذلك كُلُّه على التَّائب من ذنبه، جمعًا بين هذه النُّصوص.

٢-قال الطحاوي -رحمه الله- (لا يستر الله على عبد في الدُّنيا إلَّا ستر عليه في الآخرة) وهو ما يجب أنْ يكون العباد من حسن ظنونهم بربِّهم -عزَّ وجلَّ- فيما يتولَّاه من أمورهم في الآخرة؛ لأنه أهل التَّقوى، وأهل المغفرة، فيكون المرجو منه فيما ستر عليهم في الدُّنيا، مما لم يخرجوا به عن الإسلام، أنْ يكون لا يؤاخذهم به في الآخرة.

٣-الحثُّ على سَترِ الإنسانِ نفسَه إذا وقع في المعاصي؛ رجاءَ نيلِ هذا الفضلِ العظيمِ.

٤-وفيهِ: أن من سترَهُ اللهُ في الدنيا، فكرمُهُ يقتضي ألا يفضحهُ في الآخرة.

٥- بشارةٌ عظيمةٌ لأهلِ المعاصي إذا استتروا بسترِ اللهِ.

٦-فضل الله تعالى على عباده؛ فمن ستره الله في الدنيا ستره يوم القيامة.

٧-الحث على التوبة وعدم المجاهرة بالمعاصي؛ فإذا ستر الله على العبد ذنبًا، فليستره وليبادر إلى التوبة.

٨-فضل الستر على المسلمين، وعدم تتبع عوراتهم أو نشر أخطائهم.

٩-أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن ستر مسلمًا ولم يفضحه، كان جديرًا بأن يستره الله تعالى.

١٠-بيان رحمة الله تعالى بعباده؛ إذ لا يقتصر ستره على الدنيا، بل يمتد أثره إلى الآخرة.

عن عَائِشَةَ (أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ « ائْذَنُوا لَهُ فَلَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ أَوْ بِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ » فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَلاَنَ لَهُ الْقَوْلَ قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ لَهُ الَّذِى قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ قَالَ « يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَدَعَهُ أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ) .

[خ : ٦١٣١] .

==========

(**أَنَّ رَجُلاً اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ**) **قال ابن بطال** رحمهُ اللهُ: هو عُيينة بن حِصْن بن حُذيفة بن بدر الْفَزاريّ، وكان يقال له: الأحمق المطاع، ورجا النبيّ ﷺ بإقباله عليه تألّفه؛ لِيُسْلِم قومه؛ لأنه كان رئيسهم، وكذا فسَّره به عياض، ثم القرطبيّ، والنوويّ جازمين بذلك.

(**فَلَمَّا رَآهُ قَالَ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ**) قال عياض: المراد بالعشيرة الجماعة، أو القبيلة، وقال غيره: العشيرة: الأدنى إلى الرجل من أهله، وَهُمْ وَلَد أبيه وجدّه.

وقال في "العمدة" أي: بئس هذا الرجل منها، وهو كقولك: يا أخا العرب لرجل منهم، وهذا الكلام من أعلام النبوة؛ لأنه ارتدّ بعده ﷺ وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر.

(**فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَلاَنَ لَهُ الْقَوْلَ**) وعند البخاري (فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ) و(تطلّق) بفتح الطاء المهملة، وتشديد اللام-؛ أي: أبدى له طَلاقة وجهه، يقال: وَجْهُهُ طَلْق، وطَلِيق؛ أي: مسترسِل، منبسِط، غير عَبوس. ووقع في رواية ابن عامر (بَشّ في وجهه).

ولأحمد من وجه آخر، عن عائشة (واستأذن آخر، فقال: نِعْم أخو العشيرة، فلما دخل لم يهشّ له، ولم ينبسط كما فعل بالآخر، فسألته ...) فذكر الحديث.

(قَالَتْ عَائِشَةُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتَ لَهُ الَّذِى قُلْتَ ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ) وعند البخاري (فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللهِ حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا) يعني (بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ).

(ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْه) وفي رواية (ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ).

(فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَا عَائِشَةُ) وعند البخاري (مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا) وفي رواية (فاحشاً).

(إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) استئناف كلام؛ كالتعليل لِتَرْكه ﷺ مواجهته بما ذَكَره في غيبته.

(مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّه) أي: قبح كلامه.

١ – الحديث دليل على ذم الفحش، وأن شر الناس من تركه الناس لفحشه وقبح كلامه.

ففي هذا الحديث بيان خطورة فحش الكلام، وأن من أكثر منه حتى تحاشاه الناس خوفاً من شر لسانه فهو بشر المنازل عند الله.

فشر الناس منزلة عند الله من تركه الناس اتقاء فحشه، لا تراه إلا متلبساً بجريمة، ولا تسمعه إلا ناطقاً بالأقوال الأثيمة.

وجاء عند أبي داود بإسناد صحيح بلفظ (يَا عَائِشَةُ، إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ الَّذِينَ يُكْرَمُونَ اتِّقَاءَ أَلْسِنَتِهِم).

وإن الله جل جلاله ليبغض من هذه صفته .

كما قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ) رواه الترمذي.

قال الصنعاني –رحمه الله– أيضًا (اتقاءَ فُحْشِهِ) لأجل فحش لسانه بذمِّه للعباد، وبذاءة نطقه.

وقال القسطلاني –رحمه الله– (إنَّ شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة مَن تركه الناس اتقاء شره) أي: قبيح كلامه؛ لأن المذكور كان من جفاة الأعراب .

وأخرج البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال (لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ، ولا متفحشًا) .

وأخرج الترمذي في سننه عن أبي عبدالله الجدلي قال (سألت عائشة عن خُلق رسول الله ﷺ، فقالت: لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، ولا صخابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح).

وثبت في "صحيح مسلم" عن أبي هريرة رضي الله عنه قال (قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: إني لم أُبعَثْ لعانًا، وإنما بعثت رحمة).

فالمؤمن –كما وصفه النبي ﷺ– (ليس بالطعَّان، ولا باللعَّان، ولا بالفاحش، ولا بالبذيء).

والله لا يحب الفحش .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (... وإياكم والفحش؛ فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش...) .

وكما أنه سبحانه لا يحب هذا الخلق الذميم، فإنه لا يحب صاحب هذا الخلق .

عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ (إن الله لا يحب كل فاحش متفحش) وفي رواية (إن الله يُبغِض الفاحش المتفحش).

وانتشار الفحش من علامات الساعة .

فقد أخرج الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش، وقطيعة الرحم، وسوء المجاورة) .

وأخرج الطبراني في "الأوسط" من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إن من أشراط الساعة الفحش، وقطيعة الرحم، وتخوين الأمين، وائتمان الخائن) .

وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه) .

٢–**قال النووي**: وَفِي هَذَا الْحَدِيث مُدَارَاة مَنْ يُتَّقَى فُحْشه ... وَلَمْ يَمْدَحهُ النَّبِيّ ﷺ، وَلَا ذَكَرَ أَنَّهُ أَثْنَى عَلَيْهِ فِي وَجْهه وَلَا فِي قَفَاهُ، إِنَّمَا تَأَلَّفَهُ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا مَعَ لِين الْكَلَام.

وَوَصْف النَّبِيّ ﷺ لَهُ بِأَنَّهُ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَة مِنْ أَعْلَام النُّبُوَّة: لِأَنَّهُ ظَهَرَ كَمَا وَصَفَ، وَإِنَّمَا أَلَانَ لَهُ الْقَوْل تَأَلُّفًا لَهُ وَلِأَمْثَالِهِ عَلَى الْإِسْلَام" انتهى.

قال ابن بطال: المداراة: خفض الجناح للناس، ولين الكلام وترك الإغلاظ لهم في القول.

وقال ابن حجر: المراد به الدفع برفق.

وقال المناوي: المداراة: الملاينة والملاطفة.

وضابط المداراة: أن لا يكون فيها قدح في الدين -- والمداهنة المذمومة: أن يكون فيها تزيين القبيح، وتصويب الباطل، ونحو ذلك.

قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة.

وقد أنشأ البخاري رحمه الله في صحيحه بابا بعنوان: (باب المداراة مع الناس) وقال فيه "ويُذكَرُ عن أبي الدرداء: إِنَّا لنُكَشِّرُ في وجوهِ أقوامٍ وإنَّ قُلوبَنا لَتَلعَنُهُم".

ومعنى "لنكشر": من الكشر، وهو ظهور الأسنان، وأكثر ما يكون عند الضحك، وهو المراد هنا.

وأسند في هذا الباب حديث عائشة رضي الله عنها هذا.

قال ابن مفلح الحنبلي: وقول أبي الدرداء هذا ليس فيه موافقة على محرَّم، ولا في كلام، وإنما فيه طلاقة الوجه خاصة للمصلحة وهو معنى ما في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها: يَا عَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَدَعَهُ النَّاسُ أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ.

وقال النووي: فيه مداراة من يتقى فحشه، ولم يمدحه النبي ﷺ ولا أثنى عليه في وجهه، ولا في قفاه، إنما تألفه بشيء من الدنيا مع لين الكلام.

الفرق بين المداهنة والمداراة:

قال الحافظ ابن حجر: ... وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغَلِطَ؛ لأن المداراة مندوبٌ إليها، والمداهنةَ محرَّمة، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها: معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة: هي

الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وتركُ الإغلاظِ عليه حيث لا يُظهِر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك. (الفتح)

وقال القرطبي في الفرق بينهما: أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معا وهي مباحة وربما استحبت والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا.

وقال الغزالي: الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن.

المداراة في السنة :

أ–حديث الباب.

وهو واضح الدلالة كما تقدم عن النووي.

ب– وقال ﷺ (استوصوا بالنساء خيرا، فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً) متفق عليه.

قال ابن حجر: وفي الحديث الندب إلى المداراة لاستمالة النفوس وتألف القلوب وفيه سياسة النساء بأخذ العفو منهن والصبر على عوجهن وأن من رام تقويمهن فإنه الانتفاع بهن مع أنه لا غنى للإنسان عن امرأة يسكن إليها ويستعين بها على معاشه فكأنه قال الاستمتاع بها لا يتم إلا بالصبر عليها.

من أقوال السلف:

قال أبو هريرة: رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس.

قال الحسن البصري: كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول هي العقل كله .

وعنه أيضاً: المؤمن يداري ولا يماري، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله.

وعن حميد بن هلال قال: أدركتُ الناس يَعُدُّون المداراة صدقة تُخرج فيما بينهم.

وعن الحسن قال: التودد إلى الناس نصف العقل.

وقال حنبل إنه سمع أبا عبد الله –أي: أحمد بن حنبل– يقول: والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق، وأمر بمعروف بلا غلظة، إلا رجل معلن بالفسق فقد وجب عليك نهيه وإعلامه. (الآداب الشرعية)
قال محمد بن السماك: من عرف الناس داراهم، ومن جهلهم ماراهم، ورأس المداراة ترك المماراة.
قال أبو بكر الطرطوشي: المداراة أن تداري الناس على وجه يسلم لك دينك.

٣–**قال الخطابي** –رحمه الله:–وفيه أن النبي ﷺ قد ذكره بالعيب الذي عرفه به قبل أن يدخل، وهذا من النبي ﷺ لا يجري مجرى الغِيبة، وإنما فيه تعريف الناس أَمْرَه، وزجرهم عن مثل مذهبه، ولعله قد تَجَاهَر بسوء فعاله ومذهبه، ولا غِيبة لِمُجَاهِرٍ، والله أعلم .

٤–**قال البغوي** –رحمه الله– فيه: دليل على أنَّ ذِكْرَ الفاسق بما فيه ليُعرف أمرُه فيُتقى، لا يكون من الغِيبة، ولعل الرَّجل كان مجاهرًا بسوء أفعاله، ولا غِيبة لمجاهر.

٥–وفي الحديث: استعمال حُسْن العِشرة، حيث لم يواجِه الرجل بما أسَرَّهُ عنه، وعدم استقبال الرجل بعيوبه.

فائدة :

يقول القاضي عياض: "هذا من المداراة، وهو بذل الدنيا لصلاح الدنيا والدين. وهى مباحة مستحسنة في بعض الأحوال، خلاف
المداهنة المذمومة المحرمة، وهو بذل الدين لصلاح الدنيا، والنبي عليه السلام هنا بذل له من دنياه حسن عشيرته، ولا سيما كلمته وطلاقة وجهه، ولم يمدحه بقول، ولا رُوي ذلك في حديث، فيكون خلاف قوله فيه لعائشة.
فلا يعترض على هذا بالمداهنة، ولا بحديث ذي الوجهين، والنبي عليه السلام منزه عن هذا كله، وحديثه أصل في المداراة وغيبة أهل الفسوق والكفار وأهل البدع والمجاهرة. (إكمال المعلم)

يقول ابن الملقن –رحمه الله– في شرح حديث (إن من شر الناس ذا الوجهين).
لا ينبغي لمؤمن أن يثني على سلطان أو غيره في وجهه، وهو عنده مستحق للذم، ولا يقول بحضرته خلاف ما يقوله إذا خرج من عنده؛ لأن ذلك نفاق، كما قال ابن عمر رضي الله

عنهما، وقال فيه عليه السلام: (شر الناس ذو الوجهين) لأنه يظهر لأهل الباطل الرضا عنهم، ويظهر لأهل الحق مثل ذلك؛ ليرضي كل فريق منهم، ويريد أنه منهم، وهذِه المداهنة المحرمة على المؤمنين.

فإن قلت: إن حديث ابن عمر وحديث أبي هريرة يعارضان قوله عليه السلام للذي يستأذن عليه: (بئس ابن العشيرة) ثم يلقاه بوجه طلق وترحيب.

قلت: لا تعارض؛ لأنه عليه السلام لم يقل خلاف ما قاله عنه، بل أبقاه على التجريح عند السامع، ثم تفضل عليه بحسن اللقاء والترحيب، لما كان يلزمه عليه السلام من الاستئلاف، وكان يلزمه التعريف لخاصته بأهل التخليط، والتهمة بالنفاق.

وقد قيل: إن تلقيه له بالبشر إنما كان لاتقاء شره، وليكف بذلك أذاه عن المسلمين، فإنما قصد بالوجهين جميعًا إلى نفع المسلمين؛ بأن عرفهم بسوء حاله، وبأن كفاهم ببشره له أذاه وشره... وذو الوجهين بخلاف هذا؛ لأنه لا يقول الشيء بالحضرة ، وقد قال ضده في غير الحضرة، وهذا تناقض. فالذي فعله عليه السلام محكم مبين، لا تناقض فيه ؛ لأنه لم يقل لابن العشيرة عند لقائه: إنه فاضـــل ولا صالح؛ بخلاف ما قال فيه في غير وجهــه. (التوضيح)

عَنْ جَرِيرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ) .

عَنْ عَائِشَةَ . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِى عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِى عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِى عَلَى مَا سِوَاهُ) .

[خ : ٦٠٣٠] .

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ . عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ).

==========

(**الرفق**) **قال ابن حجر**: الرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف.

وقال المناويّ رحمه الله: "الرفق "- بكسر الراء، وسكون الفاء-: لِيْنُ الجانب بالقول، والفعل، والأخذُ بالأسهل، والدفع بالأخف.

وقال الزرقاني –رحمه الله–: الرفق –بالكسر– لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بأيسر الوجوه وأحسنها .

١–هذه الأحاديث فيها فضل الرفق في الأمور كلها ، فمن فضائل الرفق :

أولاً : أن الله رفيقٌ يُحِبُّ الرفق

لقوله ﷺ (إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرفق) .

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– (يُحب الرفق) أي: يَأمر به، ويحض عليه، وقد تقدم أنَّ حُبَّ الله للطاعة شَرْعُه لها، وترغيبه فيها، وحُبَّ الله لمن أحبه من عباده: إكرامه له.

وقال ابن رسلان –رحمه الله– (يحب الرفق) وهو اللين والتسهيل في الأمور، أي: يأمر به ويحض عليه، وحب الله للطاعة شرعه لها وترغيبه فيها.

ثانياً : وَيُعْطي عَلَى الرِّفق، مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ

لقوله ﷺ (... وَيُعْطي عَلَى الرِّفق، مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ) .

قيل : أن الله تعالى يعطي عليه في الدنيا من الثناء الجميل، وفي الآخرة من الثواب الجزيل ما لا يعطي على العنف .

وقيل : أن الرفق يتأتى به من الأغراض ما لا يتأتى بغيره، ويسهل به ما لا يسهل بغيره من المطالب .

ثالثاً : إنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ في شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ

لقوله ﷺ (إنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ في شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ ...) .

إذ هو سبب لكل خير .

قال المناوي –رحمه الله– لأن به تسهل الأمور، وبه يتصل بعضها ببعض، وبه يجتمع ما تشتت، ويأتلف ما تنَافَر وتبدَّد، ويرجع إلى المأوى ما شذَّ، وهو مُؤَلِّف للجماعات، جامع للطاعات ... ومنه أُخِذَ أنه ينبغي للعالم إذا رأى مَن يُخِلُّ بواجب، أو يفعل محرمًا أن يترفَّقَ في إرشاده، ويتلطَّف به .

قال القرطبي -رحمه الله- وبيان هذا: بأن يكون أمرٌ ما من الأمور سَوَّغَ الشرع أن يُتوصل إليه بالرفق وبالعنف، فسُلوك طريق الرفق أولى؛ لما يحصل عليه من الثناء على فاعله بحسن الخُلق، ولما يترتب عليه من حسن الأعمال، وكمال منفعتها؛ ولهذا أشار ﷺ بقوله: «ما كان الرفق في شيء إلا زَانَهُ».

وضِدُّه: الخَرَقُ (أي: الجهل) والاستعجال، وهو مفسد للأعمال، وموجب لسوء الأحدوثة، وهو المعبَّر عنه بقوله: «ولا نُزِعَ من شيء إلا شَانَه» أي: عَابَه، وكان له شَينًا.

وأما الخَرَقُ والعنف: فمُفَوِّتَان مصالح الدنيا، وقد يفْضِيَان إلى تفويت ثواب الآخرة؛ ولذلك قال ﷺ: مَن يُحْرَم الرفق يُحرم الخير، أي: يفضي ذلك به إلى أن يُحرم خير الدنيا والآخرة . (المفهم)

رابعاً : ودعاء النبي ﷺ لمن رفق بأمته

عن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ في بيتي هَذَا (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِي مِنْ أَمْرِ أُمتي شَيْئاً فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئاً فَرَفَقَ بِهِمْ فَارفُقْ بِه) رواه مسلم.

قال النووي: هَذَا مِنْ أَبْلَغ الزَّوَاجِر عَنْ الْمَشَقَّة عَلَى النَّاس، وَأَعْظَم الْحَثّ عَلَى الرِّفْق بِهِمْ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ الْأَحَادِيث بِهَذَا الْمَعْنَى.

قال ابن القيم -رحمه الله- مَن رَفَقَ بعباد الله رَفَقَ الله به...، ومَن عامَل خلقه بصفةٍ عامله الله بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة؛ فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه .

خامساً : من علامات الخير في البيت دخول الرفق فيها

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا، أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ) رواه أحمد

قال الزبيدي -رحمه الله- قال ﷺ (إذا أحبَّ الله أهل بيت أدْخَلَ عليهم الرفق) بأن يرفق بعضهم ببعض، فيستد أمرهم.

سادساً : من أعطي الرفق فقد أريد به خيراً

عن عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا (إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ) رواه أحمد.

وقال ابن الجوزي –رحمه الله– وهذا لأن عموم الأشياء لا تتم إلا بالرفق، فإذا حُرمه الإنسان لم يكد غرضه يتم .

وقال الصنعاني –رحمه الله– (من أعْطي حظَّه) نصيبه (من الرفق) في أموره كلها (فقد أُعطي حظَّه من الخير) فإن الرفق خير كله، ولذا ورد أن الرفق ما كان في شيء إلا زانه.

وقال المناوي : إذ به تُنال المطالب الدنيوية والأخروية، وبفوته يفُوتان.

وقال السندي –رحمه الله– من جعله الله تعالى محرومًا من الرفق، ممنوعًا منه، فقد جعله محرومًا من الخير كله؛ إذ الخير لا يُكتسب إلا بالرفق والتأني وترك الاستعجال في الأمور .

سابعاً : وأخبر النبي ﷺ أن من يحرم الرفق فهو المحروم

لقوله ﷺ (مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرِمِ الخيْرَ كُلَّه) .

وذلك أنَّ الرفق به انتظام خير الدارين، واتِّساق أمرهما، وفي العنف ضد ذلك، قال الله تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ).

قال ابن الجوزي –رحمه الله– قوله (مَن يُحرم الرفق يُحرم الخير) وهذا لأن عموم الأشياء لا تتمُّ إلا بالرِّفْقِ، فإذا حُرِمَهُ الإنسان لم يَكَدْ غرضه يَتِمُّ.

وقال ابن عثيمين: يعني أن الإنسان إذا حرم الرفق في الأمور فيما يتصرف فيه لنفسه، وفيما يتصرف فيه مع غيره، فإنه يحرم الخير كله أي فيما تصرف فيه، فإذا تصرف الإنسان بالعنف والشدة فإنه يحرم الخير فيما فعل وهذا شيء مجرب ومشاهد أن الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشدة؛ فإنه يحرم الخير ولا ينال الخير، وإذا كان يتعامل بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر؛ حصل على خيرٍ كثير، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائماً رفيقاً حتى ينال الخير.

قال القاضي عياض : قوله (مَن يُحرم الرفق يُحرم الخير) دلَّ أنَّ الرِّفْقَ خير كله، ودليل على فضله؛ لأنه سبب كل خير، وجالب كل نفع، بضدِّ الْخُرْق والعنف .

وقال ابن رسلان -رحمه الله- (... يُحْرَمِ الخيرَ) أي: يفضي ذلك به إلى أن يُحْرَم خير الدّنيا والآخرة، فإن مدار الأفعال كلها على التسهيل والتيسير من الآدمي ومن غيره من الدواب ومن غيرهم.

ثامناً : وأوصى النبي ﷺ من بعثهم بالتيسير والتبشير

عن أبي موسى (أَنَّ النَّبِي ﷺبَعَثَهُ وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا) متفق عليه.

تاسعاً : والرفق من هدي وصفات النبي ﷺ

قال تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين).

٢-هذه النصوص التي مرت معنا تدل على أن الرفق في الأمور والرفق بالناس واللين والتيسير من جواهر عقود الأخلاق الإسلامية، وأنها من صفات الكمال، وأن الله تعالى من صفاته أنه رفيق، وأنه يحب من عباده الرفق، فهو يوصيهم به ويرغبهم فيه، ويعدهم عليه عطاءً لا يعطيه على شيءٍ آخر. ويفهم من النصوص أن العنف شَيْن خلقي، وأنه ظاهرة قبيحة، وأن الله لا يحبه من عباده.

٣ - من أقوال السلف:

قال عروة بن الزبير قال: كان يقال: الرفق رأس الحكمة.

قال وهب بن منبه: الرفق ثني الحلم.

وعن قيس بن أبي حازم قال كان يقال: الرفق يمن، والخرق شؤم.

وقال ابن القيم: من رَفَقَ بعبادِ الله رَفَقَ الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد الله عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن عامل خلقه بصفةٍ عامله الله بتلك الصِّفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه.

قال ابن حجر: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب.

وقال أَبُو حاتم: الواجب على العاقل لزوم الرفق في الأمور كلها وترك العجلة والخفة فيها إذ الله تعالى يحب الرفق في الأمور كلها ومن منع الرفق منع الخير كما أن من أعطي الرفق أعطي الخير ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الذي يحب إلا بمقارنة الرفق ومفارقة العجلة.

٤-**قال النووي** -رحمه الله-: وفي هذه الأحاديث: فضل الرفق، والحث على التخلق، وذم العنف، والرفق سبب كل خير.

٥-**قال ابن حبان** -رحمه الله-: الواجب على العاقل لزوم الرفق في الأمور كلها، وترك العجلة، والخفة فيها؛ إذ الله تعالى يحب الرفق في الأمور كلها، ومن مُنع الرفق مُنع الخير، كما أنَّ من أُعطي الرفق أُعطي الخير، ولا يكاد المرء يتمكَّن مِن بُغْيَته في سلوك قصده في شيء من الأشياء على حسب الذي يحب، إلا بمقارنة الرفق، ومفارقة العجلة.

٦-**وقال ابن حبان** -رحمه الله- أيضًا: العاقل يلزم الرفق في الأوقات، والاعتدال في الحالات؛ لأن الزيادة على المقدار في الْمُبْتَغَى عَيْبٌ، كما أن النقصان فيما يجب من المطلب عَجْزٌ، وما لم يصلحه الرفق لم يصلحه العُنف، ولا دليل أَمْهَر مِن رِفْقٍ، كما لا ظهير أَوْثَقَ من العقل، ومِن الرفق يكون الاحتراز، وفي الاحتراز تُرجى السلامة، وفي ترك الرفق يكون الخَرَق، وفي لزوم الخَرَق تُخاف الهلكة. ٧-**وقال الغزالي** -رحمه الله- الرِّفْقُ محمود، ويُضَادُّه العنف والحِدَّة، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة، والرفق واللين نتيجة حُسن الخُلق والسلامة، وقد يكون سببُ الحِدَّةِ الغَضَب، وقد يكون سببُها شدة الحرص واستيلاءه، بحيث يدهش عن التفكر، ويمنع من التثبُّت؛ فالرفق في الأمور ثمرة لا يُثمرها إلا حسن الخُلق، ولا يحسن الخُلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة، وحِفْظُهما على حدِّ الاعتدال؛ ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق، وبالغ فيه.

وقال الغزَّالي -رحمه الله- أيضاً: لَمَّا كانت الطِّباع إلى العُنف والحِدَّة أمْيَل، كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرِّفق أكثر، فلذلك كَثُر ثناءُ الشَّرع على جانب الرِّفق دون العُنف، وإنْ كان العُنف في محلِّه حَسَنًا، كما أنَّ الرِّفق في محله حَسَن .

٨-**قال الشيخ ابن سعدي** -رحمه الله- ومن أسمائه (الرفيق) في أفعاله وشرعه، وهذا قد أُخِذَ من قوله ﷺ في الحديث الصحيح (إنَّ الله رفيق يحب أهل الرفق، وإنَّ الله يعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف) ... فالله تعالى رفيق في أفعاله، خَلَق المخلوقات كلها بالتدريج شيئًا فشيئًا بحسب حكمته ورِفْقِهِ، مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة ... والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقًا في أموره متأنيًا، ومع ذلك لا يُفوِّت الفُرَص إذا سنحت، ولا يهملها إذا عَرَضت .

٩-**قال القاضي عياض** -رحمه الله- الرفق خير كُله، ودليل على فضله؛ لأنه سبب كُل خير، وجالِب كل نفع، بضد الخُرْق (الحُمْق والجهل) والعنف .

١٠-**قال السندي** -رحمه الله- مَن جعله الله تعالى محرومًا من الرِّفق ممنوعًا منه فقد جعله محرومًا من الخير كله؛ إذ الخير لا يُكتسب إلا بالرفق والتأني وترك الاستعجال في الأمور .

١١-من دلالات الأحاديث السابقة في الرفق نستنبط :

كون الرِّفق خُلُقاً إسلاميًّا أصيلاً، حثَّ عليه النبيُّ ﷺ ودعا إليه، ورغَّب فيه.

حبُّ الله تعالى للرِّفق ومجازاته لمن اتَّخذه سلوكاً له في حياته؛ يدل على احتفاء الله تعالى بهذا الخُلُق، وتلك النِّعمة العظيمة.

الرفق من الأخلاق المتعدِّية الأثر إلى الغير، إذ أنَّ الإنسان لا يصدق عليه وصف الرَّفيق إلاَّ إذا رَفَقَ بغيره؛ سواء من الأبناء أو الأزواج أو الأقارب أو غيرهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا) .

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ اللَّعَّانِينَ لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ : إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً) .

========

(**لِصِدِّيقٍ**) الصِّدِّيق: كثير الصِّدْق، ومنه قيل ليوسف بن يعقوب -عليهما السلام-: الصِّدِّيق، ولأبي بكر ﷺ: الصِّدِّيق، قال علي ﷺ: إنَّ الله -عز وجل- سمَّى أبا بكر صديقًا.

(**أن يكون لعاناً**) قال ابن علان -رحمه الله-: أي لا ينبغي لمن هذه صفته أن يجعل اللعنة شعارًا له.

(**إِنَّ اللَّعَّانِينَ**) اللعَّانُ: صيغة مبالغة، والمراد باللعانين: كثيرو اللعان، يعني: الذي يلعن دائمًا، لسانه رطب من اللعان، والعياذ بالله.

(**لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ**) سيأتي معناها إن شاء الله .

(**وَلاَ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي: لا يُشَفِّعُهُمْ اللَّهُ في أحدٍ من أحبابهم من المؤمنين يوم القيامة .

١-هذا الأحاديث فيها خطر اللعن وتحريمه .

فاللعن حرام .

قال الإمام النووي : اعلم أن لعن المسلم المصون حرام بإجماع العلماء .

وقال ابن تيمية : الإجماع منعقد على تحريم لعن المعين من أهل الفضل .

وقد جاءت الأدلة الكثيرة على تحريمه :

فنهى النبي ﷺ عنه .

عن سمرة بن جندب ﷺ أن النبي ﷺ قال (لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا بِغَضَبِهِ، وَلَا بِالنَّارِ). رواه أبو داود

ولعن المؤمن كقتله :

عن ثابت بن الضحاك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (... وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيءٍ فِي الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، **وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهُوَ كَقَتْلِهِ**، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ) متفق عليه .

ومعناه : أي في الإثم .

وليس هو من صفات المؤمن.

قال ﷺ (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء) رواه الترمذي.

وسباب المسلم فسوق.

قال ﷺ (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) متفق عليه.

وكثرة اللعن من أسباب دخول النار.

قال ﷺ (مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ! فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ).

واللعن ليس من صفات أهل الصدق والتقى.

لحديث الباب (لا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّاناً).

ولا يكونون شهداء ولا شفعاء .

كما في حديث الباب (إِنَّ اللَّعَّانِينَ لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ) .

وبين النبي ﷺ أن اللعنة إذا لم تجد لها طريقًا رجعت إلى صاحبها .

عن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا) رواه أبو داود .

وبيَّن النبي ﷺ أن لعن العاصي يعين الشيطان عليه .

عن عمر بن الخطاب ﷺ (أن رجلًا كان على عهد النبي ﷺ اسمه عبد الله وكان يلقب حمارًا وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: لا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) .

وفي رواية (لا تَكُونُوا عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ) .

وكان النهيُ عن اللعنِ من مُهِمّ ما يَعْهَدُ به النبيُّ ﷺ في وصاياه لأصحابِه .

فقد قدمَ عليه جابرُ بنُ سُليمٍ ﷺ فقال: أنْتَ رسولُ اللهِ؟ قَالَ (أنَا رسولُ اللهِ الَّذِي إِذَا أصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَإِذَا أصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَهَا لَكَ، وَإِذَا كُنْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ أَوْ فَلَاةٍ فَضَلَّتْ رَاحِلَتُكَ، فَدَعَوْتَهُ رَدَّهَا عَلَيْكَ» قَالَ: قُلْتُ: اعْهَدْ إِلَيَّ. قَالَ: «لَا تَسُبَّنَ أحَدًا» قَالَ: فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ حُرًّا، وَلَا عَبْدًا، وَلَا بَعِيرًا، وَلَا شَاةً) رواه الترمذي .

لما استوصاه جَرْمُوزٌ الْهُجَيْمِيُّ، فقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي قَالَ (أُوصِيكَ أَنْ لَا تَكُونَ لَعَّانًا). رواه أحمد

وفُشُوُّ اللعنِ في المجتمعِ علامةُ هلكةٍ ونذيرُ عذابٍ مُخيف .

قال حذيفةُ بنُ اليَمانِ -رضيَ اللهُ عنهما- (مَا تَلَاعَنَ قَوْمٌ قَطُّ إِلَّا حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ) رواه عبدُالرزاقِ .

٢-معنى أحاديث الباب :

قوله (**لاَ يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أَنْ يَكُونَ لَعَّانًا**) .

قال ابن الجوزي -رحمه الله- (لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعَّانًا) الصدِّيق: من تكرر منه الصدق، واللعان: من تكرر منه اللعن، فلا تصلح هذه الحال لصاحب هذه الحال .

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله-قوله (لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعَّانًا) صِدِّيق: فعيل: وهو الكثير الصدق والتصديق، كما قد تقرر في صفة أبي بكر ﷺ، واللَّعَّان: الكثير اللعن، ومعنى هذا الحديث: أنَّ من كان صادقًا في أقواله وأفعاله، مصدِّقًا بمعنى اللعنة الشرعية، لم تكن كثرة اللعن مِن خُلقه؛ لأنه إذا لَعَنَ من لا يستحق اللعنة الشرعية، فقد دَعا عليه بأن يبعد من رحمة الله وجنَّته، ويدخل في ناره وسُخطه، والإكثار من هذا يناقض أوصاف الصدِّيقين، فإنَّ من أعظم صفاتهم الشفقة والرحمة للحيوان مطلقًا، وخصوصًا بني آدم، وخصوصًا المؤمن؛ فإن المؤمنين كالجسد الواحد، وكالبنيان لما تقدم، فكيف يليق أن يُدعى عليهم باللعنة التي معناها: الهلاك

والخلود في نار الآخرة، فمَن كثر منه اللعن فقد سُلب منصب الصدِّيقِيَّة، ومَن سُلِبَه فقد سُلب منصب الشفاعة والشهادة الأخروية .

وقال الشيخ موسى شاهين –رحمه الله– (لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعَّانًا) أي: لا ينبغي لمؤمن قوي الإيمان، بلغ فيه مبلغ الصِّدِّيق أن يكون كثير اللعن، فلعَّان صيغة مُبالغة، تدل على الكثرة، فكثرة اللعن من صفات ضعيف الإيمان، ولا يضر قوي الإيمان أنْ يصدر منه اللعن مرة ونحوها لمن يستحق اللعن .

قوله (**لا يكونون شهداء**) .

قال النووي : قوله (ولا شهداء) فيه ثلاثة أقوال:

أصحها وأشهرها: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رُسُلِهِم إليهم الرسالات.

والثاني: لا يكونون شهداء في الدنيا، أي: لا تُقبل شهادتهم لفسقهم.

والثالث: لا يرزقون الشهادة، وهي القتل في سبيل الله .

قال السيوطي –رحمه الله–:قوله (ولا شُهَدَاء يوم القيامة) أي: على الأمم بتبليغ رُسُلِهِم إليهم الرسالات، وقيل: معناه: لا يُرْزقُونَ الشَّهادة، وهي: القَتْل في سبيل الله. .

وقال الملا علي القاري –رحمه الله– (لا يكونون شهداء) أي: على الناس، وهم الأمم السالفة، بأنَّ رُسُلَهم بلَّغُوا الرسالة إليهم، فيُحْرَمُون عن هذه المرتبة الشريفة المختصة بهذه الأمة، كما قال تعالى (وَكَذَلكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) .

وقال الطيبي –رحمه الله–:قوله (لا يكونون شهداء) يعني: في قوله تعالى (وَكَذَلكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) والمراد بالوسط العدل، واللعنة سالبة للعدالة.

وقال المظهري : ... والمراد بهذا الحديث: أنَّ اللَّعَّانينَ ليس لهم منزلةٌ عند الله تعالى حتى تُقبلَ شهادتُهم في جملة مَن يَشْهدُ للأنبياء.

قوله (ولا شفعاء) .

قال النووي –رحمه الله– أما قوله ﷺ (إنَّهم لا يكونون شفعاء...) فمعناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار.

وقال ابن رسلان –رحمه الله– (شفعاء) أي: لا يشفعون يوم القيامة، ولا حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار، ويحتمل أنَّ المشفوع إليه إذا كان الشافع لعَّانًا لا تُقبل شفاعته؛ لأنَّ قبول شفاعته إكرام له، واللعَّان لا يُكرم .

وقال الطيبي –رحمه الله– (ولا شفعاء) أي: لا تكون لهم مرتبة الشفاعة؛ لأنَّهم باللعنة أسقطوا مرتبتهم تلك من (مراتب) الأنبياء (والشهداء).

قال ابن القيم –رحمه الله– قول النبي ﷺ (لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة) لأنَّ اللعن إساءة، بل مِن أبلغ الإساءة، والشفاعة إحسان، فالمسيء في هذه الدار باللعن سَلَبَه اللهُ الإحسان في الأخرى بالشفاعة، فإنَّ الإنسان إنَّما يحصد ما يزرع، والإساءة مانعة من الشفاعة التي هي إحسان ... وأما منْع اللعن من الشهادة: فإنَّ اللعن عداوة، وهي منافية للشهادة؛ ولهذا كان النبي ﷺ سيد الشفعاء، وشفيع الخلائق؛ لكمال إحسانه ورأفته، ورحمته بهم.

٣– هناك أمور نهيَ عن لعنها :

فقد نهى النبي ﷺ عن لعن أي شيء من الدواب، أو الحيوانات .

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال (بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: "خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا، فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ).

ونهى عن سب الريح .

عن ابن عباس رضي الله عنه (أن رجلًا لعن الريح، وقال مسلم: أن رجلًا نازعته الريح رداءه على عهد النبي ﷺ فلعنها، فقال النبي ﷺ : لَا تَلْعَنْهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، وَإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ) رواه أبوداود .

عن أبي كعب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ (لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به) .

قال بعض العلماء : والسب: الشتم واللعن والعيب والقدح وما أشبه ذلك، وإنما نهي عن سبها؛ لأن سب المخلوق سب لخالقه .

ونهى عن سب الدهر .

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (قال الله عز و جل: يؤذيني بن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار). متفق عليه

ومعنى هذا: أن سب الإنسان للدهر إيذاء لخالقه ومدبره سبحانه، وهذا محذور أول، والمحذور الآخر: أن من سب الدهر على أنه هو الذي يأتي بالسوء والكدر فقد نسب الفعل لغير الله وقدره، وهذا شرك بالله تعالى.

ونهى عن سب الحمى والمرض .

وتقدم الحديث في قوله ﷺ (لا تسبي الحمى ، فإنها تنفي خطايا بني آدم) .

٤-**قال النووي** -رحمه الله -: وإنما قال ﷺ (لا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعَّانًا...) بصيغة التَّكثير، ولم يقل: لاعنًا واللَّاعِنُون؛ لأن هذا الذم في الحديث إنما هو لمن كَثُر منه اللعن، لا لِمَرَّة ونحوها؛ ولأنه يَخرج منه -أيضًا- اللعن المباح، وهو الذي وردَ الشرع به، وهو لعنة الله على الظالمين، لعن الله اليهود والنصارى، لعن الله الواصلة والواشمة، وشارب الخمر، وآكل الربا ومُوكله وكاتبه وشاهديه، والمصورين، ومن انتمى إلى غير أبيه، وتولى غير مَواليه، وغيَّر منار الأرض، وغيرهم ممن هو مشهور في الأحاديث الصحيحة.

٥-**قال ابن بطال** -رحمه الله- فينبغي بالمؤمن ألا يكون سبابًا ولا لعَّانًا للمؤمنين، ويقتدي في ذلك بالنبي عليه السلام؛ لأن السب سبب الفرقة والبغضة، وقد منَّ الله على المؤمنين بما جمعهم عليه مِن الألفة والسلام، فقال: (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكم) وقال (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فكما لا ينبغي سبُّ أخيه في النسب، كذلك لا ينبغي سبُّ أخيه في الإسلام ولا مُلاحَاتِهِ، ألا ترى أن الله تعالى رفع معرفة ليلة القدر عن عباده، وحَرَمَهم عِلمها؛ عقوبة لِتَلاحِي الرَّجُلين بحضرة النبي ﷺ .

٦-قال ابن رسلان -رحمه الله- فاللعنة خطرة؛ لأنه حُكم بأنه أبعد الملعون؛ وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله، ويطَّلع عليه رسوله إذا أَطْلَعه الله عليه، ويَقْرُب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر، كقولك: لا صحح الله جسمه، ولا سلَّمه الله، فإنه مذموم أيضًا.

٧-**قال القاضي عياض** -رحمه الله- قد يكون هذا في اللعَّانين عقابًا لهم، ونقصًا من منازلهم؛ لأنَّ الشفاعة في الآخرة والشهادة إنَّما هي من الشفقة على المذنبين، والرحمة لهم، فحُرِمها هؤلاء بفعلهم ضدها من اللعنة لهم، المقتضية للقسوة عليهم .

٨-**قال ابن الجوزي** -رحمه الله-: اللعن في اللغة البُعد، واللعَّان: الذي يتكرَّر منه اللعن، كالمدَّاح، ولا يتكرَّر هذا إلا ممن لا يُراعي كلامه، ولا ينظر فيما يقول، والشهادة تقتضي العدالة، وهذا مما ينافيها، وكذلك الشفاعة تقتضي منزلة، وهذا اللاعن نازل عن المنزلة، كيف وقد بولغ في الزجر عن اللعن حتى إنَّ رسول الله ﷺ أَمَرَ بناقةٍ لُعنت أنْ تُسَيَّب على ما ذكرنا في مسند عِمْران بن حصين، كل ذلك زجر للاعن .

٩-التحذير من كثرة اللعن.

١٠-أنَّ اللَّعَّانين يُحْرَمُون مِن مَنْصِبَي الشفاعة والشهادة يوم القيامة .

١١- اللعن ينقسم إلى أقسام:

أ- لعن المسلم الصالح: هذا حرام ومن الكبائر.

للأحاديث السابقة.

ب- اللعن بالأوصاف العامة: مثل لعنة الله على الظالمين، لعنة الله على الفاسقين.

هذا جائز لا خلاف فيه.

قال تعالى (لعنة الله على الظالمين).

وقال تعالى (لعنة الله على الكاذبين).

ج- اللعن بالأوصاف الخاصة: مثل: لعن الله آكل الربا، لعن الله السراق.

هذا جائز بالإجماع.

د- لعن الكافر المعين الذي مات على الكفر، مثل: فرعون، وأبي جهل وغيرهم.

هذا جائز لعنه بلا خلاف.

هـ- لعن الكافر المعين الحي: فهذا مما وقع فيه خلاف بين العلماء:

فقيل: لا يلعن.

قالوا: ربما يسلم.

وممن ذهب إلى هذا الغزالي، وذكره الإمام النووي.

وقيل: جواز لعنه.

لحديث عمر بن الخطاب (أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حماراً، وكان يُضحك رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ : لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله) رواه البخاري.

قالوا: فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن.

والذي يظهر الجواز خاصة إذا كان ممن يؤذي المسلمين.

و- لعن المسلم الفاسق.

لا يجوز لعنه.

للحديث السابق، حيث نهى النبي ﷺ عن لعن عبد الله الذي كان يشرب الخمر.

٤ - أن الرسول ﷺ رحمة للعالمين.

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ).

وقال تعالى (لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ).

قال ابن القيم: وأصح القولين في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أنه على عمومه وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا به كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه فالمحاربون له عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيره وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم لكن لم يقبلوها كما يقال هذا دواء لهذا المرض فإذا لم يستعمله المريض لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض.

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ (بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ فَضَجِرَتْ فَلَعَنَتْهَا فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ ». قَالَ عِمْرَانُ فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ) .

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِي . قَالَ (بَيْنَمَا جَارِيَةٌ عَلَى نَاقَةٍ عَلَيْهَا بَعْضُ مَتَاعِ الْقَوْمِ إِذْ بَصُرَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَتَضَايَقَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَقَالَتْ حَلْ اللَّهُمَّ الْعَنْهَا. قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ : ﷺلاَ تُصَاحِبُنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ) .

==========

(**بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ**) لم يتم تعيين تلك السفرة .

(**وَامْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَى نَاقَةٍ**) وفي حديث أبي برزة (جارية على ناقتها) .

(**فَضَجِرَتْ**) منها وتعبت ، وكسلت عن السير ، وكأنّ الناقة كانت بطيئة السير .

(**فَلَعَنَتْهَا**) قالت : لعنكِ الله .

(**فَقَالَ**) ﷺ .

(**خُذُوا مَا عَلَيْهَا**) من المتاع والمرأة .

(**وَدَعُوهَا**) أي : اتركوها مطلقة .

(**فَإِنَّهَا**) أي : هذه الناقة .

(**مَلْعُونَةٌ**) لعنتها صاحبتها لا أنها ملعونة من الله .

(**قَالَ عِمْرَانُ فَكَأَنِّي أَرَاهَا الآنَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ**) لعلمهم أنها مهجورة بأمر النبي ﷺ .

(**فَقَالَتْ حَلْ**) (حَلْ) كلمة تقال لزجر الإبل حتى تسرع المشي.

١-تحريم لعن الحيوان .

ومن الأدلة :

عن أنس رضي الله عنه قال (سار رجلٌ مع النبي ﷺ، فلعن بعيره، فقال النبي ﷺ: يا عبد الله، لا تسِرْ معنا على بعير ملعون). رواه أبو يعلى

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال (كان رسول الله ﷺ في سفر يسير، فلعن رجلٌ ناقةً – وفي رواية: ناقته –، فقال النبي ﷺ : أين صاحب الناقة؟ ، فقال الرجل: أنا، فقال: أخِّرْها؛ فقد أجيب فيها) رواه أحمد .

٢-ما المراد بقوله (**لاَ تُصَاحِبُنَا نَاقَةٌ عَلَيْهَا لَعْنَةٌ**) .

قال النووي: قَوْله ﷺ فِي النَّاقَة الَّتِي لَعَنَتْهَا الْمَرْأَة: (خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَدَعُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَة) وَفِي رِوَايَة: (لَا تُصَاحِبنَا نَاقَة عَلَيْهَا لَعْنَة) إِنَّمَا قَالَ هَذَا زَجْرًا لَهَا وَلِغَيْرِهَا، وَكَانَ قَدْ سَبَقَ نَهْيهَا، وَنَهْي غَيْرهَا عَنْ اللَّعْن، فَعُوقِبَتْ بِإِرْسَالِ النَّاقَة. وَالْمُرَاد النَّهْي عَنْ مُصَاحَبَته لِتِلْكَ النَّاقَة فِي الطَّرِيق، وَأَمَّا بَيْعهَا وَذَبْحهَا وَرُكُوبهَا فِي غَيْر مُصَاحَبَته ﷺ، وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ التَّصَرُّفَات الَّتِي كَانَتْ جَائِزَة قَبْل هَذَا: فَهِيَ بَاقِيَة عَلَى الْجَوَاز: لِأَنَّ الشَّرْع إِنَّمَا وَرَدَ بِالنَّهْيِ عَنْ الْمُصَاحَبَة، فَبَقِيَ الْبَاقِي كَمَا كَانَ". انتهى

وقال الخطابي: قلت: زعم بعض أهل العلم أن النبي ﷺ إنما أمرهم بذلك فيها لأنه قد استجيب لها الدعاء عليها باللعن: واستدل على ذلك بقول: فإنها ملعونة، وقد يحتمل أن يكون إنما فعل ذلك عقوبة لصاحبتها، لئلا تعود إلى مثل قولها" انتهى.

وقال ابن القيم : وَالصَّوَاب أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ عُقُوبَة لَهَا، لِئَلَّا تَعُود إلى مِثْل قَوْلهَا، وَتَلْعَن مَا لَا يَسْتَحِقّ اللَّعْن .

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- حَمَلَهُ بعضُ الناس على ظاهره، فقال: أَطْلَعَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ على أن هذه الناقة قد لعَنَها الله تعالى، وقد استُجِيب لصاحبتها فيها؛ فإن أراد هذا القائل

أن الله تعالى لعن هذه الناقة كما يَلعن مَن استحقَّ اللعنة مِن المكلَّفين، كان ذلك باطلًا؛ إذ الناقة ليست بمكلفة، وأيضًا فإن الناقة لم يَصْدُر منها ما يُوجب لَعْنَها.

وإن أراد أنَّ هذه اللعنة: إنما هي عبارةٌ عن إبعادِ هذه الناقة عن مَالِكَتِها، وعن استخدامها إياها، فتلك اللعنة إنما ترجع لصاحبتها؛ إذ قد حيل بينها وبين مالها، ومُنعت الانتفاع به، لا للناقة؛ لأنها قد استراحت مِن ثِقَلِ الحَمل وكَدِّ السَّير.

فإن قيل: فلعل معنى لعنة الله الناقة أن تُتْرَك ألا يَتَعَرَّض لها أحدٌ، فالجواب: أن معنى تَرْك الناس لها إنما هو أنهم لم يُؤْوُوهَا إلى رحالهم، ولا استعملوها في حمل أثقالهم، فأمَّا أنْ يتركوها في غير مَرْعى ومِن غير علفٍ حتى تَهْلك فليس في الحديث ما يدل عليه، ثم هو مخالِفٌ لقاعدة الشرع في الأمر بالرفق بالبهائم والنهي عن تعذيبها.

وإنما كان هذا منه ﷺ تأديبًا لصاحبتها، وعقوبة لها فيما دعت عليها بما دعت به . (المفهم)

٣-وبالجملة: فالنبي ﷺ نهى عن لعن الدواب؛ ليتعود المسلمين على حلاوة الألفاظ، وطيب الأقوال، وتجنب السخط، وبذاءة الكلام، وكان هذا هو حال السلف رحمة الله عليهم يقول عمرو بن مالك: سمعت أبا الجوزاء يقول: "ما لعنت شيئًا قط، ولا أكلت شيئًا ملعونًا قط، ولا آذيت أحدًا قط .

٤-لا يترتب على اللعن تحريم أكل لحم الحيوان المأكول، ولا خروجه من ملك صاحبه، ولا تحريم بيعه والانتفاع به في غير مصاحبة تلك الرفقة .

٥-إدراك خطورة اللعن؛ فإذا كان محظوراً ومغلظاً في حق بهيمة لا تعقل ولا تملك دفعاً عن نفسها، فمنعه وزجره في حق المسلم من باب أولى وأعظم .

٦-التحذير من الغضب وسوء الخلق؛ فالمرأة لعنت الناقة بسبب ضجرها، فأنكر النبي ﷺ ذلك.

٧-رحمة النبي ﷺ ورفقه؛ فلم يكتفِ بالنهي عن اللعن، بل أمر بألا تُستعمل الناقة بعد أن لُعنت.

٨-أن اللعن أمر خطير، ولذلك قال ﷺ عن الناقة (فإنها ملعونة) وأمر أن يُترك ما عليها.

٩-جواز التأديب بالهجر أو ترك الانتفاع بالشيء عند وجود المصلحة؛ فقد أمر النبي ﷺ بترك الناقة زجرًا وتأديبًا لصاحبتها.

١٠-حرص الصحابة على نقل التفاصيل؛ فعمران بن حصين رضي الله عنه ذكر أثر ذلك فقال : فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد .

١١-أن من الخطأ مقابلة الضيق والابتلاء بالسخط واللعن، بل ينبغي للمسلم أن يضبط لسانه عند الغضب.

١٢-أن المسلم ينبغي أن يصون لسانه عن الألفاظ السيئة، حتى في حال الغضب أو المشقة.

فائدة :

جاء في غذاء الألباب : وَيُحَرَّمُ لَعْنُ الدَّابَّةِ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: قَالَ الصَّالِحُونَ: لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ قَالَ فِي الْفُرُوعِ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِيمَنْ شَتَمَ دَابَّةً: قَالَ الصَّالِحُونَ: لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ إذا كانت هَذِهِ عَادَتُهُ.

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً) .

[خ : ٦٣٦١] .

==========

(**اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ**) أمرض كما تمرض وأغضب كما تغضبون

(**فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ**) أي : شتمته .

(**أَوْ جَلَدْتُهُ**) ضربته بيدي أو رجلي .

(**فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً**) أي : طهارة له من الذنوب ، ونماء وبركة في الأعمال .

(**وَرَحْمَةً**) له .

١-هذه الأحاديث مبيّنة ما كان عليه ﷺ مِن الشفقة على أمَّته، والاعتناء بمصالحهم، والاحتياط لهم، والرغبة في كلِّ ما ينفعهم، وهذه الرِّواية المذكورة آخِرًا تبيّن المرادَ بباقي الرِّوايات المطلقة، وأنَّه

إنما يكون دعاؤه عليه رحمةً وكفَّارة وزكاة، ونحو ذلك إذا لم يكُن أهلاً للدُّعاء عليه والسب واللعن ونحوه، وكان مسلمًا.

٢-**فإن قيل**: كيف يدْعو على مَن ليس هو بأهلٍ للدُّعاء عليه، أو يسبُّه أو يلعنه ونحو ذلك؟

فالجواب ما أجاب به العلماءُ، ومختصره وجهان:

أحدهما: أنَّ المراد ليس بأهلٍ لذلك عندَ الله تعالى في باطِن الأمْر، ولكنَّه في الظاهر مستوجِبٌ له، فيظهر له ﷺ استحقاقه لذلك بأمارةٍ شرعيَّة، ويكون في باطن الأمْر ليس أهلاً لذلك، وهو ﷺ مأمورٌ بالحُكم بالظاهر، والله يتولَّى السرائر.

والثاني: أنَّ ما وقع مِن سبِّه ودُعائه ونحوه ليس بمقصودٍ، بل هو مما جرَتْ به عادةُ العرَب في وصْل كلامها بلا

قال الإمام النووي رحمه الله : هَذِهِ الْأَحَادِيث مُبَيِّنَة مَا كَانَ عَلَيْهِ ﷺ مِنْ الشَّفَقَة عَلَى أُمَّته ، وَالِاعْتِنَاء بِمَصَالِحِهِمْ ، وَالِاحْتِيَاط لَهُمْ ، وَالرَّغْبَة فِي كُلّ مَا يَنْفَعهُمْ .

وَهَذِهِ الرِّوَايَة الْمَذْكُورَة آخِرًا تُبَيِّن الْمُرَاد بِبَاقِي الرِّوَايَات الْمُطْلَقَة، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَكُون دُعَاؤُهُ عَلَيْهِ رَحْمَة وَكَفَّارَة وَزَكَاة وَنَحْو ذَلِكَ، إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لِلدُّعَاءِ عَلَيْهِ وَالسَّبّ وَاللَّعْن وَنَحْوه، وَكَانَ مُسْلِمًا، وَإِلَّا فَقَدْ دَعَا ﷺ عَلَى الْكُفَّار وَالْمُنَافِقِينَ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُمْ رَحْمَة.

فَإِنْ قِيلَ : كَيْف يَدْعُو عَلَى مَنْ لَيْسَ هُوَ بِأَهْلِ الدُّعَاء عَلَيْهِ أَوْ يَسُبّهُ أَوْ يَلْعَنهُ وَنَحْو ذَلِكَ ؟ فَالْجَوَاب مَا أَجَابَ بِهِ الْعُلَمَاء ، وَمُخْتَصَره وَجْهَانِ :

أَحَدهمَا : أَنَّ الْمُرَاد لَيْسَ بِأَهْلٍ لِذَلِكَ عِنْد اللَّه تَعَالَى ، وَفِي بَاطِن الْأَمْر ، وَلَكِنَّهُ فِي الظَّاهِر مُسْتَوْجِب لَهُ ، فَيَظْهَر لَهُ ﷺ اِسْتِحْقَاقه لِذَلِكَ بِأَمَارَةٍ شَرْعِيَّة ، وَيَكُون فِي بَاطِن الْأَمْر لَيْسَ أَهْلًا لِذَلِكَ ، وَهُوَ ﷺ مَأْمُور بِالْحُكْمِ بِالظَّاهِرِ ، وَاَللَّه يَتَوَلَّى السَّرَائِر .

وَالثَّانِي : أَنَّ مَا وَقَعَ مِنْ سَبّه وَدُعَائِهِ وَنَحْوه لَيْسَ بِمَقْصُودٍ، بَلْ هُوَ مِمَّا جَرَتْ بِهِ عَادَة الْعَرَب فِي وَصْل كَلَامهَا بِلَا نِيَّة، كَقَوْلِهِ: تَرِبَتْ يَمِينك، عَقْرَى حَلْقَى وَفِي هَذَا الْحَدِيث (لَا كَبِرَتْ سِنّك) وَفِي حَدِيث مُعَاوِيَة (لَا أَشْبَعَ اللَّه بَطْنك) وَنَحْو ذَلِكَ، لَا يَقْصِدُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَقِيقَة الدُّعَاء،

فَخَافَ ﷺ أَنْ يُصَادِف شَيْء مِنْ ذَلِكَ إِجَابَة، فَسَأَلَ رَبّه سُبْحَانه وَتَعَالَى وَرَغِبَ إِلَيْهِ فِي أَنْ يَجْعَل ذَلِكَ رَحْمَة وَكَفَّارَة، وَقُرْبَة وَطَهُورًا وَأَجْرًا.

وَإِنَّمَا كَانَ يَقَع هَذَا مِنْهُ فِي النَّادِر وَالشَّاذّ مِنْ الْأَزْمَان، وَلَمْ يَكُنْ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا لَعَّانًا وَلَا مُنْتَقِمًا لِنَفْسِهِ، وَقَدْ سَبَقَ فِي هَذَا الْحَدِيث أَنَّهُمْ قَالُوا: اُدْعُ عَلَى دَوْس، فَقَالَ: (اللَّهُمَّ اِهْدِ دَوْسًا) وَقَالَ : (اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) . (شرح مسلم)

والأقرب إلى ظاهر النصوص : أن ذلك اللعن ، أو السب ، أو الجلد والضرب ، المذكور في هذه النصوص : قد صدر في حق من ليس أهلا له ، إما باجتهاد منه ﷺ ، وحكم على ظاهر الشخص ، وهو في باطن الأمر غير مستحق لذلك ، لكن النبي ﷺ ، بما أنه بشر: لا يعلم الغيب ، وإما بحكم غلبة الطباع البشرية ، فيغضب . في هذه الحال . على من لا يستحق غضبه وسبه ، ولأجل ذلك اقترنت هذه النصوص بقوله ﷺ : (إنما أنا بشر) غير أن ذلك مأمون العاقبة منه ﷺ ، فلا يتحقق مقتضى اللعن والسب فيمن ليس أهلا له ، بل وعد الله نبيه أن يكون الأمر بعكس ذلك ، فيكون له كفارة وقربة من الله ، ولا يبقى لهذا الشخص مظلمة ولا حق عند النبي ﷺ، بل ربما كانت نعمة في حقه ، أن ينال تلك الدرجة والكفارة .

٣- دلَّ الحديثُ على أنَّ ما وقَع للنبي ﷺ مِن ذلك إنَّما هو النادِر والشاذ مِن الأزمان، ولم يكُن ﷺ فاحشًا ولا متفحِّشًا، ولا لعَّانًا ولا منتقمًا لنفسه .

٤- الأحاديث دليلٌ أنَّ الإنسان إنما يُحاسَب بظاهر حاله، والله يتولَّى السرائر.

٥- قوله ﷺ (أغْضَب كما تغضَب البشَر) خرَج مخرج الإشفاق، وتعليم أمَّته الخوفَ مِن تعدِّي حدود الله، فكأنَّه أظهر الإشفاق مِن أن يكونَ الغضب يحمله على زِيادة في عقوبة الجاني لولا الغضبُ ما وقعتْ، أو إشفاقًا مِن أن يكون الغضبُ يحمله على زيادةٍ يسيرة في عقوبة الجاني، لولا الغضب ما زادتْ، ويكون مِن الصغائر على قولِ مَن يُجوِّزها، أو يكون الزجر يحصُل بدونها. السبُّ والشَّتْم إذا كان مِن غير قصد، فلا يكون في ذلك كاللعنة الواقِعة رغبةً إلى الله وطلبًا للاستجابة، وأشار عياضٌ إلى ترجيح هذا الاحتمال.

٦- وفي الحديث دليلٌ على كمال شفَقتِه ﷺ على أمَّته وجميل خُلُقه، وكرم ذاته، حيث قصَد مقابلةَ ما وقَع منه بالجبْر والتكريم، وهذا كلُّه في حقٍّ معيَّن في زمنه واضح، وأمَّا ما وقَع منه بطريق التعميم لغيرِ معيَّن حتى يتناول مَن لم يدرِكْ زمنه - صلَّى الله عليه وسلَّم - فما أظنُّه يشمله .

٧- فيه أدَب النبي ﷺ مع الله - عزَّ وجلَّ - حيث مهَّد تمهيدًا لعذره؛ حيث إنَّه يصدُر منه ما هو مِن لوازم البشريَّة من الغضب، ثم شَرَع يبيِّن ويفصِّل ما التمسه بقوله: (فأيّما مؤمن) .

٨- وهذه الرأفة التي أكْرم الله بها وجهَه حتى حظِي بها المسيءُ فما ظنُّك بالمحسِن، وإنَّما وضع الاتِّخاذ موضعَ السؤال تحقيقًا للرَّجاء بأنَّه حاصلٌ؛ إذ كان موعودًا بإجابةِ الدُّعاء .

٩- سؤال النبي ﷺ مِن الله أن يحوِّل سبَّه وشتْمَه يومَ القيامة شفاعةً وقُربةً إليه دليلٌ على أنَّ اللعن منافٍ للشفاعة؛ لأنَّ اللعن يَقتضي الطَّرْدَ والإبعاد .

١٠- سؤال النبيِّ ﷺ من الله أن يحوِّل سبه وشتمه يوم القيامة شفاعة وقربة إليه دليلٌ أنَّ النبي ﷺ قد يكون اطَّلع على عاقبةِ الملعون؛ ولذا طلَب مِن الله ذلك.

فهذا يَقتضي أنَّه كان يخاف أن يكونَ لعنُه بما يحتاج أن يستدركَ بما يقابله مِن الحسنات فإنَّه معصوم، والاستدراك بهذا الدُّعاءِ يَدْفع ما يخافه مِن إصابة دعائه لِمَن لا يستحقُّه، وإنْ كان باجتهاد، إذ هو باجتهادِه الشرعي معصومٌ لأجْل التأسِّي به

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَوَارَيْتُ خَلْفَ بَابٍ - قَالَ - فَجَاءَ فَحَطَأَنِي حَطْأَةً وَقَالَ « اذْهَبْ وَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ ». قَالَ فَجِئْتُ فَقُلْتُ هُوَ يَأْكُلُ - قَالَ - ثُمَّ قَالَ لِي : اذْهَبْ وَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ ». قَالَ فَجِئْتُ فَقُلْتُ هُوَ يَأْكُلُ فَقَالَ : لاَ أَشْبَعَ اللَّهُ بَطْنَهُ) .

==========

(**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ أَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَوَارَيْتُ**) أي : اختفيت .

(**خَلْفَ بَابٍ**) وكأنه استحيى من النبيّ ﷺ وهابَه .

(**فَجَاءَ**) النبي ﷺ .

(**فَحَطَأَنِي حَطْأَةً**) بفتح الحاء، وإسكان الطاء، بعدها همزة، وهو الضرب باليد مبسوطة بين الكتفين، وإنما فَعَل ﷺ هذا بابن عباس – رضي الله عنهما – ملاطفةً، وتأنيسًا .

(**قَالَ : اذْهَبْ وَادْعُ لِي مُعَاوِيَةَ**) بن أبي سفيان الصحابي الجليل، مات في رجب سنة: ٦٠هـ.

(**قَالَ**) ابن عباس .

(**فَجِئْتُ**) إلى معاوية لأدعوه له ﷺ ، فوجدته يأكل، فرجعت إليه ﷺ .

(**فَقُلْتُ هُوَ يَأْكُلُ**)

(**قَالَ**) ابن عباس .

(**ثُمَّ قَالَ لِي**) رسول الله ﷺ .

(**فَقَالَ : لاَ أَشْبَعَ اللَّهُ بَطْنَهُ**) سيأتي شرحها إن شاء الله .

١–هل هذا الحديث منقصة للصحابي معاوية ؟

قد بيّن أهل العلم والشارحون أن هذا الحديث ليس فيه مطعن أو ذم لمعاوية رضي الله عنه، ووجّهوا قوله ﷺ : لا أشبع الله بطنه على عدة أوجه معتبرة ، ذكرها النووي بقوله :

قال رحمه الله : أَمَّا دُعَاؤُهُ عَلَى مُعَاوِيَة أَنْ لَا يَشْبَع حِين تَأَخَّرَ فَفِيهِ الْجَوَابَانِ السَّابِقَانِ :

أَحَدهمَا : أَنَّهُ جَرَى عَلَى اللِّسَان بِلَا قَصْد .

وَالثَّانِي أَنَّهُ عُقُوبَة لَهُ لِتَأَخُّرِهِ . وَقَدْ فَهِمَ مُسْلِم رَحِمَهُ اللَّه مِنْ هَذَا الْحَدِيث أَنَّ مُعَاوِيَة لَمْ يَكُنْ مُسْتَحِقًّا لِلدُّعَاءِ عَلَيْهِ ، فَلِهَذَا أَدْخَلَهُ فِي هَذَا الْبَاب ، وَجَعَلَهُ غَيْره مِنْ مَنَاقِب مُعَاوِيَة لِأَنَّهُ فِي الْحَقِيقَة يَصِير دُعَاء لَهُ . (شرح مسلم)

ولهذا قال الذهبي : قُلْتُ: لَعَلَّ أَنْ يُقَالْ هَذِهِ مَنْقَبَةٌ لِمُعَاوِيَةَ لِقَوْلِهِ ﷺ (اللَّهُمَّ مَنْ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً .

ولهذا قال الحافظ ابن عساكر : إنه أصح ما ورد في فضل معاوية .

قال الشيخ الألباني في السلسلة: وقد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعنا في معاوية رضي الله عنه، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك، كيف وفيه أنه كان كاتب النبي ﷺ؟! ولذلك قال الحافظ ابن عساكر: إنه أصح ما ورد في فضل معاوية، فالظاهر أن هذا الدعاء منه ﷺ غير

مقصود، بل هو ما جرت به عادة العرب في وصل كلامها بلا نية؛ كقوله ﷺ في بعض نسائه (عقرى حلقى) و (تربت يمينك) ويمكن أن يكون ذلك منه ﷺ بباعث البشرية التي أفصح عنها هو نفسه عليه السلام في أحاديث كثيرة متواترة. منها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان، فكلماه بشيء لا أدري ما هو فأغضباه، فلعنهما وسبهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله؛ من أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان؟ قال: وما ذاك؟ قالت: لعنتهما وسببتهما ، قال: "أو ما علمت ما شارطت عليه ربي؟ قلت: اللهم إنما أنا بشر، فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً. (الألباني)

وبعض العلماء جعل هذا الدعاء لمعاوية فانتفع به في دنياه وآخرته .

قال ابن كثير : وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة في دنياه وأخراه :

أما في دنياه : فإنه لما صار إلى الشام أميراً، كان يأكل في اليوم سبع مرات يجاء بقصعة فيها لحم كثير وبصل فيأكل منها، ويأكل في اليوم سبع أكلات بلحم، ومن الحلوى والفاكهة شيئا كثيراً، ويقول والله ما أشبع وإنما أعيا، وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك.

وأما في الآخرة : فقد أتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الّذي رواه البخاري وغيرهما من غير وجه عن جماعة من الصحابة. أن رسول الله ﷺ قال (اللهمّ إنما أنا بشر فأيما عبد سببته أو جلدته أو دعوت عليه وليس لذلك أهلا فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة) فركب مسلم من الحديث الأول وهذا الحديث فضيلة لمعاوية، ولم يورد له غير ذلك . (البداية والنهاية)

تنبيه :

قال الإمام الذهبي: وفسره بعض المحبين قال: (لا أشبع الله بطنه) حتى لا يكون ممن يجوع يوم القيامة؛ لأن الخبر عنه أنه قال: (أطول الناس شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة) لكن رده الذهبي رحمه الله .

٢-معاوية بن أبي سفيان :

هو معاوية بن أبي سفيان -واسم أبي سفيان : صخر- بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي.

ولد ﷺ قبل البعثة بخمس سنين، وأسلم قبل أبيه في عمرة القضاء بعد الحديبية، ولم يظهر إسلامه إلا يوم الفتح سنة ٨ هـ.

وهو أخو أم المؤمنين ، أم حبيبة رضي الله عنهما.

قال الإمام الذهبي: معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين، ملك الإسلام، أبو عبد الرحمن، القرشي، الأموي، المكي.

قال عنه عبد الله بن عباس –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما–: ما رأيتُ رجلًا كان أَخْلَقَ للمُلْك من معاوية.

قال ابن تيمية: واتفق العلماء أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك، كان ملكه ملكًا ورحمة.

من مناقبه: أنه مِنْ كُتَّابِ الوَحْيِ، ومِنْ رُواةِ الأحاديث، وهو خَالُ المؤمنين، وخليفةُ المسلمين، والمِلِكُ القائِدُ، صاحِبُ الفُتوحاتِ الإسلامية، وداهِيَةُ زمانِه، شَهِدَ حُنَينًا، واليمامَةَ، وكان حَسَنَ التَّدْبِيرِ، عاقِلًا حَكِيمًا، فَصِيحًا بليغًا، وكان كريمًا بَاذِلًا للمال، وكان يُضْرَبُ بِحِلْمِه المثَلُ.

من مناقبه : دَعَا لَهُ النبيُّ ﷺ :

فعن عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ، وَقِهِ الْعَذَابَ). رواه أحمد

ومن دعائه ﷺ لِمُعَاوِيَةَ (اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا، وَاهْدِ بِه) رواه الترمذي.

وعَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلاَنِيّ قَالَ: (لَمَّا عَزَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عُمَيْرَ بْنَ سَعِيدٍ عَنْ حِمْصَ وَلَّى مُعَاوِيَةَ؛ فَقَالَ النَّاسُ: "عَزَلَ عُمَيْرًا، وَوَلَّى مُعَاوِيَةَ!" فَقَالَ عُمَيْرٌ: "لاَ تَذْكُرُوا مُعَاوِيَةَ إِلاَّ بِخَيْرٍ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اهْدِ بِهِ) رواه الترمذي.

ومِنْ مَناقِبِه: أنَّ عُمَرَ ﷺ وَلَّاهُ على الشَّامِ، وأَقَرَّهُ عُثْمَانُ ﷺ أيضًا مُدَّةَ خِلافَتِه كُلِّها .

قال الذَّهَبِيُّ رحمه الله: (حَسْبُكَ بِمَنْ يُؤَمِّرُهُ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ عَلَى إِقْلِيْمٍ – وَهُوَ ثَغْرٌ – فَيَضْبِطُهُ، وَيَقُوْمُ بِهِ أَتَمَّ قِيَامٍ، وَيُرْضِي النَّاسَ بِسَخَائِهِ وَحِلْمِهِ.. فَهَذَا الرَّجُلُ سَادَ وَسَاسَ العَالَمَ بِكَمَالِ عَقْلِهِ، وَفَرْطِ حِلْمِهِ، وَسَعَةِ نَفْسِهِ، وَقُوَّةِ دَهَائِهِ.. وَكَانَ مُحَبَّباً إِلَى رَعِيَّتِهِ، عَمِلَ على نِيَابَةِ الشَّامِ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَالخِلاَفَةِ عِشْرِيْنَ سَنَةً؛ بَلْ دَانَتْ لَهُ الأُمَمُ، وَحَكَمَ عَلَى العَرَبِ وَالعَجَمِ).

ومن فضائله أيضًا: أنه أول من غزا مجاهدًا في سبيل الله على البحر أميرًا، وقد أثنى النبي ﷺ عليهم، فقال: (أول جيشٍ من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا) قال المهلب: وفي هذا الحديث منقبةٌ لمعاوية؛ لأنه أول من غزا البحر، وكان ذلك في وقت إمَارَتِه على الشام في خلافة عثمان رضي الله عنه.

لم يُعرف عنه قبل الإسلام أذًى للنبي ﷺ، لا بيد، ولا بلسان.

وهو من مشاهير الصحابة وفضلائهم رضي الله عنهم جميعًا .

ومعاوية خال المؤمنين، أخو أمِّ المؤمنين أمِّ حَبيبة رَمْلة بنت أبي سفيان رضي الله عنها؛ ولذلك قال الإمام أحمد: أقول: معاوية خال المؤمنين، وابن عمر خال المؤمنين.

قال ابن تيمية : ... فإن معاوية ثبت بالتواتر أنه أمَّره النبيُّ ﷺ كما أمَّر غيره، وجاهد معه، وكان أميناً عنده يكتب له الوحي، وما اتهمه النبيُّ ﷺ في كتابة الوحي، وولاَّه عمر بن الخطاب الذي كان من أخبر الناس بالرجال، وقد ضرب الله الحق على لسانه وقلبه، ولم يتهمه في ولايته .

٢- جواز إرسال الصبي المميز في قضاء الحوائج ودعوة الرجال وإيصال الرسائل والاعتماد على خبره.

٣- جواز ترك الصبيان يلعبون بالألعاب المباحة التي لا محظور فيها شرعًا .

٤-تعليم الصغار وتحميلهم بعض المهام المناسبة لأعمارهم؛ فقد طلب النبي ﷺ من أنس أن يدعو معاوية رضي الله عنه.

٥-جواز ممازحة الصبي وتأديبه تأديبًا يسيرًا؛ فقوله (فحطأني حطأة) يدل على ملاطفته وتعليمه، ولا يدل على الإيذاء.

٦-بيان حلم النبي ﷺ وحسن معاشرته؛ فلم يغضب من انشغال معاوية بالطعام وعدم مجيئه سريعًا.

٧-أن الكلام قد يخرج أحيانًا على سبيل الدعاء أو الملاطفة، ولا يلزم أن يكون المقصود منه حقيقة الدعاء على الشخص.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِى يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ).

[خ : ٦٠٥٨] .

==========

(**تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ**) وفي رواية (تجدون شر الناس) وأخرجه الترمذيّ بلفظ (إن من شر الناس) وأخرجه أبو داود بلفظ (من شر الناس ذو الوجهين) وهذه الألفاظ متقاربة، والروايات التي فيها (شرّ الناس) محمولة على الرواية التي فيها (من شر الناس) ووصفه بكونه شرّ الناس، أو من شر الناس مبالغة في ذلك.

(**ذَا الْوَجْهَيْنِ**) تفسير ذلك (الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلاَءِ بِوَجْه).

١ – الحديث دليل على أن من شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

وقد جاءت أخرى تحذر منه:

عَنْ عَمَّارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَار) رواه أبو داود.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ يَنْبَغِي لِذِي الْوَجْهَيْنِ أَنْ يَكُونَ أَمِيناً) رواه البخاري في الأدب المفرد.

وقال ابن مسعود: إن ذا اللسانين له لسانان من نار يوم القيامة. رواه ابن أبي شيبة في المصنف بسند صحيح.

وقال الحافظ ابن حبان: العاقل لا يكون ذا لونين بل يُوافق سره علانيته وقوله فعله.

٢–قوله (**من شر الناس** ...) .

سبب ذلك : أن شبيه بالمنافقين .

قال النووي: قوْله ﷺ فِي ذِي الْوَجْهَيْنِ (إِنَّهُ مِنْ شِرَار النَّاس) فَسَبَبه ظَاهِر لِأَنَّهُ نِفَاق مَحْض، وَكَذِب وَخِدَاع، وَتَحَيُّل عَلَى اِطِّلَاعه عَلَى أَسْرَار الطَّائِفَتَيْنِ، وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي كُلّ طَائِفَة بِمَا يُرْضِيهَا، وَيَظْهَر لَهَا أَنَّهُ مِنْهَا فِي خَيْر أَوْ شَرّ، وَهِيَ مُدَاهَنَة مُحَرَّمَة.

وقال القرطبيّ رحمه الله: إنما كان ذو الوجهين شرّ الناس؛ لأن حاله حال المنافق؛ إذ هو متملّق بالباطل، وبالكذب، مُدخل للفساد بين الناس.

وقال القاضي عياض –رحمه الله– وأما قوله (إنه من شرار الناس) فكما قال؛ لأنه نفاق محض وكذب، ومخادعة.

وقال القسطلاني –رحمه الله– وإنما كان شر الناس؛ لأن حاله حال المنافق؛ إذ هو يتملق بالباطل، ويدخل الفساد بين الناس، نعم لو أتى كل قوم بكلام فيه صلاح، واعتذر عن كل قوم للآخرين، ونقل ما أمكنه من الجميل، وستر القبيح، كان محمودًا.

وقال الصنعاني –رحمه الله– والمراد المنافق، يلاقي كل قوم بما يوافقهم، كما قال تعالى في صفاتهم (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) ومرادهم بذلك أن يأمنوهم، ويأمنوا قومهم.

٣–وهذا فيما ليس طريقه الإصلاح والخير، بل في الباطل والكذب وتزيينه لكل طائفة عملها، وتقبيحه عند الأخرى، وذم كل واحدة عند الأخرى، بخلاف المداراة والإصلاح المرغَّب فيه، وإنما يأتي لكل طائفة بكلام فيه صلاح الأخرى، ويعتذر لكل واحدة عن الأخرى، وينقل لها الجميل عنه . (القاضي عياض)

وقال في الفتح : وَالْمَحْمُودُ أَنْ يَأْتِيَ لِكُلِّ طَائِفَةٍ بِكَلَامٍ فِيهِ صَلَاحُ الْأُخْرَى وَيَعْتَذِرُ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَنِ الْأُخْرَى وَيَنْقُلُ إِلَيْهِ مَا أَمْكَنَهُ مِنَ الْجَمِيلِ وَيَسْتُرُ الْقَبِيحَ وَيُؤَيِّدُ هَذِهِ التَّفْرِقَةَ رِوَايَةُ الْإِسْمَاعِيلِيِّ من طَرِيق بن نُمَيْرٍ عَنِ الْأَعْمَشِ (الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِحَدِيثِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاء بِحَدِيث هَؤُلَاءِ).

٤–قوله (مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا، كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَار) كما كان في الدنيا له لسان عند كل طائفة .

عن أمّ كُلْثُومٍ بِنْت عُقْبَة بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ –وَكَانَتْ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ الأُوَلِ اللاَّتِي بَايَعْنَ النَّبِيَّ– أنها سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ (لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِى يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِى خَيْرًا) .

[خ : ٢٦٩٢] .

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ الْحَرْبُ وَالإِصْلاَحُ بَيْنَ النَّاسِ وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.

==========

١–الأصل في الكذب أنه محرَّم وهو علامة من علامات المنافقين؛ لقوله ﷺ (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان).

ولكن توجد حالات جاء الشرع بجواز الكذب فيها تحقيقاً للمصلحة العظيمة أو دفعاً للمضرة:

فمن تلك الحالات:

أن يتوسط إنسان للإصلاح بين فريقين متخاصمين.

وحديث الرجل لامرأته، وحديث المرأة لزوجها في الأمور التي تشدّ أواصر الوفاق والمودّة بينهما.

وفي الحرب.

أ– كما في حديث الباب.

ب– وعن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله ﷺ (لا يصلح الكذب إلا في ثلاث يحدث الرجل امرأته ليرضيها والكذب في الحرب والكذب ليصلح بين الناس) رواه الترمذي.

ج– وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلأَنْ أَخِرَّ مِنَ السَّمَاءِ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ عَلَيْهِ، وَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ) متفق عليه.

قال ابن حزم: وَاتَّفَقُوا على تَحْرِيم الْكَذِب فِي غير الْحَرْب، وَغير مداراة الرجل امْرَأَته، واصلاح بَين اثْنَيْنِ وَدفع مظْلمَة. (مراتب الإجماع)

وقَالَ الْقَاضِي: لَا خِلَاف فِي جَوَاز الْكَذِب فِي هَذِهِ الصُّوَر. ... (نقله النووي عنه)

٢ – وَاخْتَلَف العلماء فِي الْمُرَاد بِالْكَذِبِ الْمُبَاح فِيهَا مَا هُوَ؟ على قولين:

القول الأول: المراد بالكذب المباح التورية والتعريض.

وهذا قول الحنفية، وقال به الطبري، ورجحه الشوكاني.

أ- لقوله تعالى (وكونوا مع الصادقين).

فأمر بالصدق ونهى عن الكذب.

ب- قال ﷺ (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ...) رواه البخاري.

والمراد أنه تكلم بالمعاريض، إذ الأنبياء معصومون من الكذب المحض.

ج- ولحديث عمران بن حصين. قال: قال ﷺ (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) رواه البيهقي في شعب الإيمان [وقال: هَذَا هُوَ الصحِيحُ مَوْقُوفاً، وَرُوِيَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ضَعِيفٍ مَرْفُوعًا].

د- جاء عن عمر أنه قال (إن في المعاريض ما يكف أو يعِف الرجل عن الكذب) رواه البيهقي.

فهذا صريح في أن الإذن إنما هو في المعاريض دون الكذب الصريح.

القول الثاني: المراد به التصريح بالكذب بإرادة خلاف الواقع.

وهذا قول المالكية، والشافعية، والحنابلة.

أ- لحديث الباب (لَيْسَ الكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ...).

قالوا: فهذا الحديث صريح في أن الكذب في هذه المواضع جائز.

ب- ولحديث أسماء بنت يزيد -وقد تقدم- قالت: قال رسول الله ﷺ (لا يحل الكذب إلا في ثلاثٍ: يحدثُ الرجلُ امرأتَه ليرضيَها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس). رواه الترمذي

فهذا الحديث صريح في الدلالة.

ج- ولحديث أبي هريرة. قال: قال ﷺ (لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلُهُ (إِنِّي سَقِيمٌ) وَقَوْلُهُ: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) ...). رواه البخاري

وهذا القول الراجح.

لكنى ينبغي على المسلم أن لا يصار إليه، وأن يتقي الكذب مهما أمكن بالمعاريض.

قال الغزالي: ... إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة.

وقال النووي: قَالَ الطَّبَرِيُّ: إِنَّمَا يَجُوز مِنْ الْكَذِب فِي الْحَرْب الْمَعَارِيض دُون حَقِيقَة الْكَذِب، فَإِنَّهُ لَا يَحِلّ، هَذَا كَلَامه، وَالظَّاهِر إِبَاحَة حَقِيقَة نَفْس الْكَذِب لَكِنْ الِاقْتِصَار عَلَى التَّعْرِيض أَفْضَل. وَاَللَّه أَعْلَم.

وقال ابن الجوزي: إلا أنه ينبغي أن يحترز عنه ويورّي بالمعاريض ما أمكن.

٣ – المواطن التي يجوز فيها الكذب:

أولاً: الكذب في دفع الظلم.

اتفق العلماء على جواز الكذب عند الاضطرار، كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختف عنه، فله أن ينفي كونه عنده، ويحلف على ذلك ولا يأثم.

وقد نقل الإجماع في ذلك ابن حزم، والنووي.

الثاني: في الحرب.

وفي الحديث (الحرب خدعة).

إلا إذا كان هناك عهد أمان فلا يجوز.

قال النووي: وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاء عَلَى جَوَاز خِدَاع الْكُفَّار فِي الْحَرْب، وَكَيْف أَمْكَنَ الْخِدَاع إِلَّا أَنْ يَكُون فِيهِ نَقْضُ عَهْد أَوْ أَمَان فَلَا يَحِلّ.

وقال القرطبي: ... وأما إذا لم يكن للعدو عهد ينبغي أن يتحيل عليه بكل حيلة، وتدار عليه كل خديعة.

وقال الشنقيطي: ... أَوْ يَكُونُ عَلَى وَجْهِ التَّحْذِيلِ، وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ جُمُوعِ الْكَفَرَةِ، فَهَذَا أَمْرٌ مَطْلُوبٌ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ» وَكَمَا فَعَلَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ فِي تَفْرِيقِهِ بَيْنَ كَلِمَةِ الْأَحْزَابِ وَبَيْنَ قُرَيْظَةَ، جَاءَ إِلَى هَؤُلَاءِ وَنَمَّى إِلَيْهِمْ عَنْ هَؤُلَاءِ، وَنَقَلَ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَى أُولَئِكَ شَيْئًا آخَرَ، ثُمَّ لَأَمَ بَيْنَ ذَلِكَ فَتَنَاكَرَتِ النُّفُوسُ وَافْتَرَقَتْ. وَإِنَّمَا يَحْذُو عَلَى مِثْلِ هَذَا الذَّكَاءِ ذُو الْبَصِيرَةِ النَّافِذَةِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الثالث: الكذب في الإصلاح.

كما في حديث الباب.

قال العيني: ... لأن فيه دفع المفسدة وقمع الشرور ومعناه أن هذا الكذب لا يعد كذباً بسبب الإصلاح مع أنه لا يخرج من حقيقته.

وقال النووي: وَمَعْنَاهُ لَيْسَ الْكَذَّاب الْمَذْمُوم الَّذِي يُصْلِح بَيْن النَّاس، بَلْ هَذَا مُحْسِن.

الرابع: الكذب على الزوجة.

اتفقوا على أن الكذب على الزوجة لا يدخل فيه ما كان من المخادعة في منع حقه عليه أو عليها، أو أخذ ما ليس له أو لها، فهذا حرام بالإجماع.

وإنما المراد الكذب لاستجلاب محبتها وتقريب قلبها.

قال النووي: ... أَمَّا كَذِبه لِزَوْجَتِهِ وَكَذِبهَا لَهُ فَالْمُرَاد بِهِ فِي إِظْهَار الْوُدّ وَالْوَعْد بِمَا لَا يَلْزَم وَنَحْو ذَلِكَ، فَأَمَّا الْمُخَادَعَة فِي مَنْع مَا عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا، أَوْ أَخْذ مَا لَيْسَ لَهُ أَوْ لَهَا فَهُوَ حَرَام بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. وَاَللَّه أَعْلَم.

وقال السفاريني: والكذب للزوجة هو أن يعدها ويمينها ويظهر لها من المحبة أكثر مما في نفسه ليستديم بذلك صحبتها ويصلح به خلقها. قاله البغوي في شرح السنة.

وهل يجوز كذب الزوجة على زوجها؟ على قولين للعلماء:

أنه جائز.

عن أُمِّ كُلْثُوم بِنْت عُقْبَةَ، قَالَتْ (مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُرَخِّصُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكَذِبِ إِلاَّ فِي ثَلاَثٍ، كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: لاَ أَعُدُّهُ كَاذِبًا، الرَّجُلُ يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، يَقُولُ: الْقَوْلَ وَلاَ يُرِيدُ بِهِ إِلاَّ الإِصْلاَحَ، وَالرَّجُلُ يَقُولُ: فِي الْحَرْبِ، وَالرَّجُلُ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ، وَالْمَرْأَةُ تُحَدِّثُ زَوْجَهَا) رواه أبو داود.

وقيل: لا يجوز.

والراجح الأول.

فائدة:

قال النووي: واعلم أن التورية والتعريض معناهما: أن تطلق لفظًا هو ظاهر في معنى، وتريد به معنى آخر يتناوله ذلك اللفظ، لكنه خلاف ظاهره، وهذا ضرب من التغرير والخداع.

قال العلماء: فإن دعت إلى ذلك مصلحة شرعية راجحة على خداع المخاطب، أو حاجة لا مندوحة عنها إلا بالكذب، فلا بأس بالتعريض، وإن لم يكن شيء من ذلك فهو مكروه وليس بحرام، إلا أن يتوصل به إلى أخذ باطل أو دفع حقٍّ، فيصير حينئذ حرامًا، هذا ضابط الباب. (الأذكار)

وذهب بعض العلماء إلى تحريم التعريض لغير حاجة أو مصلحة، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

· وهناك حالات أرشد النبي ﷺ فيها إلى استخدام التورية، فعلى سبيل المثال:

– إذا أحدث الرجل في صلاة الجماعة فماذا يفعل في هذا الموقف المحرج؟.

الجواب: عليه أن يأخذ بأنفه فيضع يده عليه ثم يخرج.

والدليل: عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ (إذا أحدث أحدكم في صلاته فليأخذ بأنفه ثم لينصرف) رواه أبو داود.

قال الطيبي: أمر بالأخذ ليخيل أنه مرعوف (والرعاف هو النزيف من الأنف)، وليس هذا من الكذب، بل من المعاريض بالفعل، ورُخِّص له في ذلك لئلا يسوِّل له الشيطان عدم المضي استحياء من الناس.

وهذا من التورية الجائزة والإيهام المحمود رفعاً للحرج عنه، فيظن من يراه خارجاً بأنه أصيب برعاف في أنفه .

– وكذلك إذا واجه المرء المسلم ظروفاً صعبة محرجة يحتاج فيها أن يتكلم بخلاف الحقيقة لينقذ نفسه، أو ينقذ معصوماً، أو يخرج من حرج عظيم، أو يتخلص من موقف عصيب.

فهناك طريقة شرعية ومخرجٌ مباح يستطيع أن يستخدمه عند الحاجة ألا وهو "التورية" أو "المعاريض" وقد بوَّب البخاري –رحمه الله– في صحيحه "باب المعاريض مندوحة عن الكذب".

· وفيما يلي التوضيح بأمثلة من المعاريض التي استخدمها السلف والأئمة أوردها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه " إغاثة اللهفان: "

ذُكر عن حماد رحمه الله أنه إذا أتاه من لا يريد الجلوس معه قال متوجعاً: ضرسي، ضرسي، فيتركه الثقيل الذي ليس بصحبته خير.

وأحضر سفيان الثوري إلى مجلس الخليفة المهدي فاستحسنه، فأراد الخروج فقال الخليفة لا بد أن تجلس فحلف الثوري على أنه يعود فخرج وترك نعله عند الباب، وبعد قليل عاد فأخذ نعله وانصرف فسأل عنه الخليفة فقيل له إنه حلف أن يعود فعاد وأخذ نعله.

وكان الإمام أحمد في داره ومعه بعض طلابه منهم المروذي فأتى سائل من خارج الدار يسأل عن المروذي والإمام أحمد يكره خروجه فقال الإمام أحمد: ليس المروذي هنا وما يصنع المروذي ها هنا وهو يضع إصبعه في كفه ويتحدث لأن السائل لا يراه.

هذا مع التنبيه هنا أن لا يستخدم المسلم التورية إلا في حالات الحرج البالغ وذلك لأمور منها:

أن الإكثار منها يؤدي إلى الوقوع في الكذب.

فقدان الإخوان الثقة بكلام بعضهم بعضاً لأن الواحد منهم سيشك في كلام أخيه هل هو على ظاهره أم لا؟.

أن المستمع إذا اطلع على حقيقة الأمر المخالف لظاهر كلام الموري ولم يدرك تورية المتكلم يكون الموري عنده كذاباً وهذا مخالف لاستبراء العرض المأمور به شرعاً.

أنه سبيل لدخول العجب في نفس صاحب التورية لإحساسه بقدرته على استغفال الآخرين.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَالَ («أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ » وَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَالَ «إِنَّ الرَّجُلَ يَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا وَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا») .

عن حُذَيْفَة . قال : قال رسول الله ﷺ (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ) .

[خ : ٦٠٥٦] .

==========

(**أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ**) أي : أخبركم .

(**مَا الْعَضْهُ**) بفتح العين وتسكين الضاد ، الأصل : البهت .

(**النميمة**) نقل الكلام من شخص إلى آخر على وجه الإفساد .

(**الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**) أي : هي نَقْل أقوال الناس بينهم على وجه الإفساد، وهو من الكبائر .

١-الحديث دليل على تحريم النميمة، وأنها من كبائر الذنوب.

قال الذهبي: النَّميمة من الكبائر، وهي حرام بإجماع المسلمين، وقد تظاهرت على تحريمها الدلائل الشرعية من الكتاب والسُّنَّة .

فإن قيل : ما الجواب عن حديث ابن عباس قال (مرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ **وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ** أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ ...).

أجاب العلماء عن قوله (وما يعذبان في كبير) بأن المراد: ليس بكبيرٍ تركُه عليهما، أو ليس كبيرًا في زعمهما؛ ولهذا قيل في رواية أخرى: بلى إنه كبير.

فائدة :

قال تعالى (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ).

قال بعض المفسرين: "والمقصود بالحطب في الآية السابقة: هي النَّميمة، وإنما سُمِّيت النَّميمة حطبًا؛ لأنها سببٌ لإشعال نار العداوة بين الناس، فصارت بمنزلة الحطب الذي يوقَد به النار.

وقد نزلت هذه الآية في امرأة أبي لهب، وفي الآية إشارةٌ إلى حملها الحديث بين الناس، ومشيِها بالنَّميمة.

٢-وقد جاءت النصوص الكثيرة في تحريمها :

أولاً: لا يدخل الجنة صاحبها.

لحديث الباب.

ثانياً: من أسباب عذاب القبر.

كما في حديث ابن عباس قال (مر النبي ﷺ بقبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان بكبير: أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ...). متفق عليه

ثالثاً: نهى الله عن طاعته.

قال تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم).

٣-بعض أقوال السلف :

قال علي: يعمل النمام في ساعة فتنة شهر.

وقال الشافعي: من نم لك نم عليك.

وقال يحيي بن أكتم: النمام شر من الساحر.

وقال الحسن: من نقل إليك حديثاً، فاعلم أنه ينقل إلى غيرك حديثك.

وقال يحيي بن أبي كثير: يفسد النمام في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة.

وكان يقال: "عمل النَّمَّام أضرُّ من عمل الشيطان؛ لأن عمل الشيطان بالخيال والوسوسة، وعمل النَّمَّام بالمواجهة".

وقال أَبُو حاتم رضي الله عنه هذا وأمثاله من ثمرة النميمة لأنها تهتك الأستار، وتفشي الأسرار، وتورث الضغائن، وترفع المودة، وتجدد العداوة، وتبدد الجماعة، وتهيج الحقد، وتزيد الصد.

عن عمر بن عبد العزيز. أنه دخل عليه رجل، فذكر عنده وشاية في رجل آخر، فقال له عمر: إن شئت حققنا هذا الأمر الذي تقول فيه وننظر فيما نسبته إليه، فإن كنت كاذباً، فأنت من أهل هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا) وإن كنت صادقاً فأنت من أهل

هذه الآية (هماز مشاء بنميم) وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إلى مثل ذلك أبداً.

٤-مَا يَجِبُ عَلَى مَنْ سَمِعَ النَّمِيمَةَ:

يَجِبُ عَلَى مَنْ سَمِعَ النَّمِيمَةَ أُمُورٌ:

الأُولَى: أَنْ لاَ يُصَدِّقَهُ، لأَنَّ النَّمَّامَ فَاسِقٌ وَهُوَ مَرْدُودُ الشَّهَادَةِ .

قَال اللَّهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) .

الثَّانِي: أَنْ يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَنْصَحَ لَهُ وَيُقَبِّحَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ .

قَال اللَّهُ تَعَالَى (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) .

وَيَذْكُرَ لَهُ قَوْل الرَّسُول ﷺ أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ .

الثَّالِثُ: أَنْ يَبْغَضَهُ فِي اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ بَغِيضٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَيَجِبُ بُغْضُ مَنْ يُبْغِضُهُ اللَّهُ تَعَالَى.

الرَّابِعُ: أَنْ لاَ تَظُنَّ بِالْمَنْقُول عَنْهُ السُّوءَ .

لِقَوْلِهِ تَعَالَى (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) .

الْخَامِسُ: أَنْ لاَ يَحْمِلَكَ مَا حُكِيَ لَكَ عَلَى التَّجَسُّسِ وَالْبَحْثِ لِتَتَحَقَّقَ اتِّبَاعًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلاَ تَجَسَّسُوا).

السَّادِسُ: أَنْ لاَ تَرْضَى لِنَفْسِكَ مَا نَهَيْتَ النَّمَّامَ عَنْهُ وَلاَ تَحْكِي نَمِيمَتَهُ فَتَقُول: فُلاَنٌ حَكَى لِي كَذَا وَكَذَا فَتَكُونَ نَمَّامًا وَمُغْتَابًا، وَتَكُونَ قَدْ أَتَيْتَ مَا عَنْهُ نَهَيْتَ .

٥-مى يجوز نقل الكلام؟

قال النووي رحمه الله عن النَّمِيمَةِ: فَإِنْ دَعَتْ حَاجَةٌ إِلَيْهَا فَلَا مَنْعَ مِنْهَا وَذَلِكَ كَمَا إِذَا أَخْبَرَهُ بِأَنَّ إِنْسَانًا يُرِيدُ الْفَتْكَ بِهِ أَوْ بأهله أو بماله أو أخبر الامام أومن لَهُ وِلَايَةٌ بِأَنَّ إِنْسَانًا يَفْعَلُ كَذَا وَيَسْعَى بِمَا فِيهِ مَفْسَدَةٌ وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الْوِلَايَةِ الْكَشْفُ عَنْ ذَلِكَ وَإِزَالَتُهُ فَكُلُّ هَذَا وَمَا أشبهه لَيْسَ بِحَرَامٍ وَقَدْ يَكُونُ بَعْضُهُ وَاجِبًا وَبَعْضُهُ مُسْتَحَبًّا عَلَى حَسَبِ الْمَوَاطِنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

٦-حرص الشريعة على سد كل أمر يؤدي إلى التدابر والتقاطع بين المسلمين.

٧-حرص الشريعة على سلامة المجتمع وتكاتفه وترابطه.

٨-خطورة اللسان.

٩-وجوب الإصلاح بين الناس.

١٠-الإيمان بالجنة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِى إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا) .

[خ : ٦٠٩٤] .

==========

(يَهْدِي) أي: يرشد ويوصل.

(إِلَى البرِّ) البر كلمة جامعة لأعمال الخير، ومختلف الأعمال الصالحات، قال تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ).

(وإنَّ البر يَهدِي) أي: يقود ويوصل.

(إِلَى الجَنَّةِ) وهي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً) أي: يصير الصدق له سجية وخلقاً.

(وَإِنَّ الكَذِبَ) وهو الإخبار بخلاف الواقع.

(يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ) الفجور يشمل جميع الأعمال السيئة.

١ - الحديث دليل على فضل الصِّدْقِ وتحريم الكذب .

والكذب : الكذب: هو الإخبار بالشّيء على خلاف ما هو عليه، سواء كان عمدا أم خطأ".

قال النووي رحمه الله: هو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو، عمدا كان أو سهوا، سواء كان الإخبار عن ماض أو مستقبل.

قال العلماء: هذا الحديث فيه حثٌّ على تحرِّي الصدق، وهو قصده والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب، والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه كثُر منه، فعُرف به، وكتبه الله لمبالغته صدِّيقًا إن اعتاده، أو كذَّابًا إن اعتاده.

قال ابن تيمية: ... الصدق أَصْلُ الْخَيْرِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلَى النَّارِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا) وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) وَقَالَ (وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا).

وَلِهَذَا يُذْكَرُ أَنَّ بَعْضَ الْمَشَايِخِ أَرَادَ أَنْ يُؤَدِّبَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ ذُنُوبٌ كَثِيرَةٌ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ: أَنَا آمُرُك بِخَصْلَةٍ وَاحِدَةٍ فَاحْفَظْهَا لِي؛ وَلَا آمُرُك السَّاعَةَ بِغَيْرِهَا الْتَزِمْ الصِّدْقَ وَإِيَّاكَ وَالْكَذِبَ وَتَوَعَّدَهُ عَلَى الْكَذِبِ بِوَعِيدِ شَدِيدٍ فَلَمَّا الْتَزَمَ ذَلِكَ الصِّدْقَ دَعَاهُ إلَى بَقِيَّةِ الْخَيْرِ وَنَهَاهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْفَاجِرَ لَا حَدَّ لَهُ فِي الْكَذِبِ. (مجموع الفتاوى: ١٥/ ٢٤٦)

وقال ابن القيم: ولهذا كان أصل أعمال القلوب كلها الصدق، وأضدادها من الرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والبطر والأشر والعجز والكسل والجبن والمهانة وغيرها أصلها الكذب، فكل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤة الصدق، وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤة الكذب، والله تعالى يعاقب الكذاب بأن يقعده ويثبطه عن مصالحه ومنافعه، ويثيب الصادق بأن يوفقه للقيام بمصالح دنياه وآخرته، فما استجلبت مصالح الدنيا والآخرة بمثل الصدق؛ ولا مفاسدهما ومضارهما بمثل الكذب، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين).

وقال ابن تيمية: الصِّدْقُ أَسَاسُ الْحَسَنَاتِ وَجِمَاعُهَا وَالْكَذِبُ أَسَاسُ السَّيِّئَاتِ وَنِظَامُهَا وَيَظْهَرُ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ حَيٌّ نَاطِقٌ فَالْوَصْفُ الْمُقَوِّمُ لَهُ الْفَاصِلُ لَهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ الدَّوَابِّ هُوَ الْمَنْطِقُ وَالْمَنْطِقُ قِسْمَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ وَالْخَبَرُ صِحَّتُهُ بِالصِّدْقِ وَفَسَادُهُ بِالْكَذِبِ فَالْكَاذِبُ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ الْبَهِيمَةِ الْعَجْمَاءِ.

الثَّانِي: أَنَّ الصِّفَةَ الْمُمَيِّزَةَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّئِ هُوَ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ الصَّادِقُ الْأَمِينُ، وَمُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ. وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ).

الثَّالِثُ: أَنَّ الصِّفَةَ الْفَارِقَةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ هُوَ الصِّدْقُ فَإِنَّ أَسَاسَ النِّفَاقِ الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ الْكَذِبُ، وَعَلَى كُلِّ خُلُقٍ يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ لَيْسَ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ).

الرَّابِعُ: أَنَّ الصِّدْقَ هُوَ أَصْلُ الْبِرِّ، وَالْكَذِبَ أَصْلُ الْفُجُورِ، كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ...).

الْخَامِسُ: أَنَّ الصَّادِقَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، وَالْكَاذِبَ تَنْزِلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ).

السَّادِسُ: أَنَّ الْفَارِقَ بَيْنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَبَيْنَ الْمُتَشَبِّهِ بِهِمْ مِنْ الْمُرَائِينَ وَالْمُسْمِعِينَ وَالْمُبْلِسِينَ هُوَ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ.

السابع: أَنَّ الْمَشَايِخَ الْعَارِفِينَ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ أَسَاسَ الطَّرِيقِ إلَى اللَّهِ هُوَ الصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ كَمَا جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ) وَنُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعُ الْأُمَّةِ دَالٌّ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ).

وقَوْله تَعَالَى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ).

وقوله تعالى (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ).

٢ – الحديث دليل على فضائل الصدق، وللصدق فضائل:

أولاً: أنه سبب للطمأنينة.

كما في الحديث الحسن بن علي قال : قال ﷺ (... فإن الصدق طمأنينة) رواه الترمذي .

ثانياً: هو المميز بين المؤمن والمنافق.

قال ﷺ (آية المنافق ثلاث: ... وإذا حدث كذب ...).

ثالثاً: لا ينفع يوم القيامة إلا الصدق:

قال تعالى (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ).

رابعاً: الصدق أصل كل بر.

قال ﷺ –كما في حديث الباب– (إن الصدق يهدي إلى البر) .

خامساً: أن مجاهدة النفس على تحري الصدق توصلها إلى مرتبة الصديقية.

قال ﷺ (... ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً).

سادساً: الصدق سبب للبركة.

كما قال ﷺ (البيعان بالخيار ... فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما).

سابعاً : إنَّ الله –سبحانه وتعالى– قسَّم الناس إلى: صادِق ومُنافِق .

فقال تعالى (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ).

ثامناً : مدح أنبياءه بها .

فعندَ ذِكْر الله لإبراهيم عليه السلام مدَحَه بالصِّدِّيقيَّة التي تأتي درجةُ النبوَّة بعدها، فمدَحَه بهما؛ قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا).

وفي ذِكْره ومدْحه لإدريس عليه السلام ذَكَره بالصِّدِّيقيَّة والنبوَّة، وهي الدرجةُ التي فوق الصِّديقيَّة مباشرةً؛ (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا).

تاسعاً : الإيمان أساسُه الصِّدق، والنفاق أساسه الكَذِب، فلا يجتمع كذبٌ وإيمان .

قال تعالى (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) .

عاشراً : أمرنا الله أن نكون مع الصادقين .

قال تعالى بعد ذكره لقصة الثلاثة الذين خلفوا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ).

وذلك لأنَّ الصادقين هم الثابِتون الدائِمون على التقوى، والسائِرون في الطريقِ إلى الله؛ قال بعضُ الصالحين عن الصِّدق: "مَن لم يؤدِّ الفرْضَ الدائم لا يُقْبَل منه الفرْضُ المؤقَّت، قيل له: وما الفرض الدائم؟ قال: الصِّدق".

قال القرطبي: قوله تعالى (وَكُونُوا مَعَ الصادقين) هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذُهب بهم عن منازل المنافقين.

قال مُطرِّف: سمعت مالك بن أنس يقول: قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

قال أبو حيان: هذا خطاب للمؤمنين، أمروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق.

الحادي عشر : بالصدق تنال الدرجات العالية .

عن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ. أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ). رواه مسلم

ذكر للإمام أحمد الصدق والإخلاص، فقال: بها ارتفع القوم.

الثاني عشر : سبب للنجاة من مصارع السوء .

في حديثِ نُزولِ الوَحيِ على النبي ﷺ (فرجع بها رسولُ اللهِ ﷺ ترجُفُ بوادِرُه، حتى دخل على خديجةَ، فقال: زَمِّلوني زَمِّلوني! فزَمَّلوه، حتى ذهب عنه الرَّوعُ، قال لخديجةَ: أيْ خديجةُ، ما لي؟! لقد خَشِيتُ على نفسي! فأخبَرَها الخبَرَ، قالت خديجةُ: كلَّا، أبشِرْ، فواللهِ لا يُخزيك اللهُ أبدًا؛ فواللهِ إنَّك لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصدُقُ الحديثَ، وتحمِلُ الكَلَّ، وتَكسِبُ المعدومَ، وتَقْري الضَّيفَ، وتُعينُ على نوائِبِ الحَقِّ) متفق عليه .

قال العُلَماءُ ﷺ: معنى كلامِ خديجةَ رَضِيَ الله عنها: إنَّك لا يصيبُك مكروهٌ لِما جعل اللهُ فيك من مكارِمِ الأخلاقِ وكَرَمِ الشَّمائِلِ، وذكرَت ضُروبًا من ذلك، وفي هذا دَلالةٌ على أنَّ مكارمَ الأخلاقِ وخِصالَ الخيرِ سبَبُ السَّلامةِ من مَصارِعِ السُّوءِ) ومن ذلك خُلُقُ الصِّدقِ.

الثالث عشر : الصدق يغنيك عما فاتك من الدنيا:

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (أربعٌ إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك في الدنيا: حفظُ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعِفَّة في طُعمة). رواه أحمد

الرابع : بالصدق يكون من أفضل الناس:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما (قيل للنبي ﷺ من أفضل الناس؟ فقال ﷺ : كلُّ مخموم القلب، صدوق اللسان، فقالوا: يا رسول الله، صدوق اللسان عرفناه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقيُّ النقيُّ، الذي لا إثمَ فيه ولا بغي، ولا غلَّ فيه ولا حسد) رواه ابن ماجه .

٣-مما يدل على أهميته أن الصدق من صفات الله، وصفة أنبيائه، والمؤمنين.

فمن أدلة وصف الله به، قوله تعالى: (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) .

وقال تعالى (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) .

وقال تعالى (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) .

وقال (قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) .

واتصف به نبينا ﷺ قبل البعثة وبعدها؛ حيث عرف الناس ذلك من فعله قبل أن يدل على ذلك قوله، وشهد له أشد أعدائه بذلك.

ولذلك لما نزل عليه الوحي؛ قالت له خديجة رضي الله عنها وهي تُطمْئِنه: (كلَّا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لَتصِل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتَكسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق) .

وحينما نزل عليه قوله تعالى (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) جمع قريشًا، ثم صعِد الصفا، وقال لهم (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تُغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) .

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، عن صفة رسول الله ﷺ كان فيما سأله: أو كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان لِيدَعَ الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل .

ولما وصل إلى المدينة ﷺ مهاجرًا؛ يقول عبدالله بن سلام رضي الله عنه: فلما أن رأيت وجهه، حتى عرفت أنه ليس بوجه كذَّاب .

٤-قد قسم ابن القيم الصدق إلى ثلاثة أقسام:

الأول: صدق في الأقوال:

ومعناه: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها.

كقوله ﷺ (اصدقوا إذا حدثتم) .

والثاني: صدق في الأعمال.

ومعناه: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد.

كقوله ﷺ (البيعان بالخيار ... فإن صدقا وبيّنا ...) .

والثالث: صدق في الاعتقاد .

ومعناه: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص.

كما في حديث أصحاب الغار قال (... لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه...) .

قال ابن تيمية رحمه الله: وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ الصِّدْقَ وَالتَّصْدِيقَ يَكُونُ فِي الْأَقْوَالِ وَفِي الْأَعْمَالِ، كَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ (كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنْ الزِّنَا فَهُوَ مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْأُذُنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا السَّمْعُ وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ وَالْقَلْبُ يَتَمَنَّى وَيَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ)

وَيُقَالُ حَمَلُوا عَلَى الْعَدُوِّ حَمْلَةً صَادِقَةً إِذَا كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ لِلْقِتَالِ ثَابِتَةً جَازِمَةً، وَيُقَالُ فُلَانٌ صَادِقُ الْحُبِّ وَالْمَوَدَّةِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَلِهَذَا يُرِيدُونَ بِالصَّادِقِ؛ الصَّادِقُ فِي إِرَادَتِهِ وَقَصْدِهِ وَطَلَبِهِ وَهُوَ الصَّادِقُ فِي عَمَلِهِ، وَيُرِيدُونَ الصَّادِقَ فِي خَبَرِهِ وَكَلَامِهِ وَالْمُنَافِقُ ضِدُّ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ كَاذِبًا فِي خَبَرِهِ، أَوْ كَاذِبًا فِي عَمَلِهِ كَالْمُرَائِي فِي عَمَلِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ) الْآيَتَيْنِ.

٥ – من أقوال السلف في الصدق.

قال عمر بن الخطاب: عليك بالصدق وإن قتلك.

وقال بشر بن الحارث: مَنْ عامل الله بالصدق استوحش من الناس.

وقال جعفر بن محمد: الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك، فقال تعالى (هو اجتباكم).

وقال بعض العلماء: أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى، والصدق لله في الأعمال، وطيب المطعم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها.

قال ابن القيم: الصادق مطلوبه رضى ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابه، فهو متقلب فيها، يسير معها أينما توجهت ركائبها، ويستقل معها أينما استقلت مضاربها، فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع المنافع.

قال ابن تيمية: الصديقية: كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر ظاهراً وباطناً.

قال ابن القيم: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

وقال: كل عمل صالح ظاهر أو باطن فمنشؤه الصدق وكل عمل فاسد ظاهر أو باطن فمنشؤه الكذب.

وقال: أصل أعمال القلوب كلها: الصدق.

وقال: من ترك المألوفات والعوائد مخلصاً صادقاً من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو أم كاذب.

وقال الفضيل رحمه الله: لم يتزين الناس بشيء أفضلَ من الصدق، وطلب الحلال، فقال ابنه علي: يا أبة، إن الحلال عزيز، قال: يا بني، وإن قليله عند الله كثير .

٦ – علامات الصادق.

أولاً: طمأنينة القلب واستقراره:

إن الصدق في جميع الأحوال باطنها وظاهرها يورث الطمأنينة والسكينة في القلب، وينفي عنه التردد والريبة والاضطراب التي لا توجد إلا في حالات الشك وضعف الصدق أو عدمه، يقول ﷺ (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة).

ثانياً: الزهد في الدنيا والتأهب للقاء الله عز وجل.

فالصادق مع الله عز وجل لا تراه إلا متأهباً للقاء ربه، مستعداً لذلك بالأعمال الصالحة، والقيام بأوامر الله عز وجل والانتهاء عن نواهيه، يريد بذلك وجه الله عز وجل متبعاً في ذلك رسوله ﷺ.

ثالثاً: سلامة القلب.

إن من علامة الصدق سلامة القلب، وخلوه من الغش والحقد والحسد للمسلمين، فالعبد المؤمن الصادق في إيمانه لا يحمل في قلبه غلاً للمؤمنين ولا شراً، بل إن حب الخير والنصح للمسلمين هو طبعه وعادته.

رابعاً: حفظ الوقت وتدارك العمر.

إن الصادق في إيمانه لا تجده إلا محافظاً على وقته شحيحاً به، لا ينفقه إلا فيما يرجو نفعه في الآخرة، ينظر إلى العمر كله كأنه ساعة من نهار، وإلى الدنيا كأنها ظل شجرة نزل تحتها، ثم قام وتركها، فبادر بالأعمال الصالحة فراغه وصحته، وشبابه، وحياته، وابتعد عن كل آفة تقطع عليه طريقه، وتضيع عليه وقته، وتبدد عليه عمره القصير بما لا ينفع.

خامساً: الزهد في ثناء الناس ومدحهم بل وكراهة ذلك:

ويتبع ذلك الزهد فيما عند الناس، والقناعة بما كتب الله عز وجل، وهذه الصفة إذا وجدت فهي علامة على الصدق والإخلاص، وهي تنبع أصلاً من صحة المعتقد، وكمال التوحيد لله عز وجل، وحول هذه الصفة والوصول إليها يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار.

سادساً: إخفاء الأعمال الصالحة وكراهة الظهور.

إن من علامة صدق العبد فيما يعمله لله عز وجل، حرصه على إخفاء عمله، وكراهة اطلاع الناس عليه، كما أن كراهة الشهرة والظهور علامة من علامات الصدق الذي يبعد صاحبه عن الرياء والسمعة والتصنع للخلق، فكلما كان العبد صادقاً مع ربه عز وجل كلما كان حريصاً على إخفاء أعماله حيث لا يطلع عليها إلا الله عز وجل.

قال الحسن: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزوار وما يشعرون به.

سابعاً: الشعور بالتقصير والانشغال بإصلاح النفس ونقدها أكثر من الآخرين.

ثامناً: الاهتمام بأمر هذا الدين والجهاد في سبيل الله عز وجل.

إن الصدق في محبة الله عز وجل ومحبة دينه تقتضي أن يكون أمر هذا الدين هو شغل المؤمن الشاغل، حيث لا يقر له قرار، ولا يهدأ له بال، وهو يرى دين الله عز وجل ينتهك ويقصى من الحياة، وبالتالي يرى الفساد المستطير يدب في أديان الناس ودمائهم وأعراضهم وعقولهم وأموالهم. إن المؤمن الصادق لا يقدّم على هذا الهم الأكبر أي اهتمام من أمور الدنيا الفانية. [كتاب وفقات مع آيات للشيخ الجليل حفظه الله]

قال ابن القيم رحمه الله: إن الصادق لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه، ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه وتدنيه منه، لا لعلة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها.

٧-**قال ابن حِبَّانَ** : الصِّدقُ يرفَعُ المرءَ في الدَّارينِ كما أنَّ الكَذِبَ يهوي به في الحالينِ، ولو لم يكُنِ للصِّدقِ خَصلةٌ تحمَدُ إلَّا أنَّ المرءَ إذا عُرِف به قُبِلَ كَذِبُه، وصار صِدقًا عِندَ من يَسمَعُه؛ لكان الواجبُ على العاقِلِ أن يبلُغَ مجهودَه في رياضةِ لِسانِه حتى يستقيمَ له على الصِّدقِ، ومجانبةِ

الكَذِبِ، والعِيُّ في بعضِ الأوقاتِ خيرٌ من النُّطقِ؛ لأنَّ كُلَّ كلامٍ أخطأ صاحِبُه مَوضِعَه، فالعِيُّ خيرٌ منه.

وقال أيضًا: إنَّ اللهَ جَلَّ وعلا فضَّل اللِّسانَ على سائِرِ الجوارِحِ، ورَفَع درجتَه، وأبان فضيلتَه، بأن أنطَقَه من بَيْنِ سائرِ الجوارحِ بتوحيدِه، فلا يجِبُ للعاقلِ أن يُعَوِّدَ آلةً خَلَقها اللهُ للنُّطقِ بتوحيدِه، على الكَذِبِ، بل يجبُ عليه المداومةُ برعايتِه بلزومِ الصِّدقِ، وما يعودُ عليه نفعُه في دارَيه؛ لأنَّ اللِّسانَ يقتضي ما عُوِّد؛ إنْ صِدقًا فصِدقًا، وإنْ كَذِبًا فكَذِبًا .

٨-أن غياب الصدق دليل على فساد المجتمع .

وقد حذر النبي ﷺ من هذا الزمان الذي تقلب فيه الحقائق، وتزوَّر فيه الوقائع .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال (سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات؛ يصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّب فيها الصادق، ويُؤتَمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة). رواه ابن ماجه

٩- أن مرتبة الصديقية مستلزمة لخصال أخرى نبيلة :

كعفاف اللسان: قال ﷺ (ولا ينبغي لصدِّيق أن يكون لعَّانًا) .

وقال ﷺ في شأن الدعاء الصادق (من طلب الشهادة صادقًا، أُعطيها، ولو لم تُصبه) .

وقال (من سأل الله الشهادة بصدق، بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه) .

١٠-تحريم الكذب .

والكذب: الإخبار بخلاف الواقع، وهو محرم.

قال النووي: قد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على تحريم الكذب، وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب، وإجماع الأمة متفقة على تحريمه.

قال تعالى: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً).

١١-الأدلة على تحريمه :

هو من صفات المنافقين :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) متفق عليه .

والكذب يقود صاحبه إلى النار.

كما في حديث الباب (وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ ...).

والكذب ريبة وعدم الشعور بالطمأنينة .

عن الحسن بن علي بن أبي طالب- رضي الله عنهما- قال (حفظت من رسول الله ﷺ : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة) رواه الترمذي.

قال ابن رجب: يشير إلى أنه لا ينبغي الاعتماد على قول كل قائل كما قال في حديث وابصة (وإن أفتاك الناس وأفتوك) وإنما يعتمد على قول من يقول الصدق، وعلامة الصدق أنه تطمئن به القلوب، وعلامة الكذب أنه تحصل به الريبة، فلا تسكن القلوب إليه، بل تنفر منه.

ومن هنا كان العقلاء في عهد النبي ﷺ إذا سمعوا كلامه وما يدعو إليه، عرفوا أنه صادق، وأنه جاء بالحق، وإذا سمعوا كلام مسيلمة، عرفوا أنه كاذب، وأنه جاء بالباطل، وقد روي أن عمرو بن العاص سمعه قبل إسلامه يدعي أنه أنزل عليه: يا وبر يا وبر، لك أذنان وصدر، وإنك لتعلم يا عمرو، فقال: والله إني لأعلم أنك تكذب. (جامع العلوم)

وجاء التهديد لمن يكذب ليضحك الناس.

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ (وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَه). رواه أبو داود

قال المناوي في شرحه للحديث: كرره إيذانا بشدة هلكته؛ وذلك لأن الكذب وحده رأس كل مذموم، وجماع كل فضيحة، فإذا انضم إليه استجلاب الضحك الذي يميت القلب ويجلب النسيان ويورث الرعونة كان أقبح القبائح، ومن ثم قال الحكماء: إيراد المضحكات على سبيل السخف نهاية القباحة.

والكذب سبب لمحق البركة في البيع.

عن حَكيمِ بنِ حزامٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ (البَيِّعَانِ بالخِيَار مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإنْ صَدَقا وَبيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا في بيعِهِمَا، وإنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بركَةُ بَيعِهِما) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

ومن علامات المؤمن أنه لا يكذب.

وعن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (المسْلِمُ أخُو المسْلِمُ، لاَ يَخُونُهُ، وَلاَ يَكْذِبُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، كُلُّ المسْلِمِ عَلَى المسْلِم حَرَامٌ عِرْضُهُ وَمَالهُ وَدَمُهُ، التَّقْوى هاهُنَا، بحَسْب امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المسْلِم) رواه الترمذي .

قال أبو بكر الصديق ﷺ: الكذب يجانب الإيمان.

قال الحافظ ابن حجر: أخرجه البيهقي في "الشُّعب" بسند صحيح وأخرجه عنه مرفوعًا، وقال: الصحيح موقوف.

وقال ابن القيم: فلا يجتمع الكذب والإيمان إلا ويطرد أحدهما صاحبه، ويستقر موضعه. (زاد المعاد)

فدلَّ هذا على أن المؤمن لا يكون كذَّابًا.

والكذاب يعذب في قبره قبل يوم القيامة.

ففي صحيح البخاري عن سمرة قال (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟ قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ ... الحديث وفيه: فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ، فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، (قَالَ: وَرُبَّمَا قَالَ أَبُو رَجَاءٍ: فَيَشُقُّ) قَالَ: ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الآخَرِ، فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ، فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الأُولَى، ... فسأل عنه النبي ﷺ فقيل: وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ).

والكذب من أسباب هلاك صاحبه.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ (أَنَّ أَرْوَى خَاصَمَتْهُ فِي بَعْضِ دَارِهِ فَقَالَ دَعُوهَا وَإِيَّاهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ "مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ طُوِّقَهُ فِي سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَأَعْمِ بَصَرَهَا وَاجْعَلْ قَبْرَهَا فِي دَارِهَا. قَالَ فَرَأَيْتُهَا عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الْجُدُرَ تَقُولُ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ. فَبَيْنَمَا هِيَ تَمْشِي فِي الدَّارِ مَرَّتْ عَلَى بِئْرٍ فِي الدَّارِ فَوَقَعَتْ فِيهَا فَكَانَتْ قَبْرَهَا) رواه مسلم.

والكذب سبب للحرمان من نعمة الهداية.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ).

ورتب النبي ﷺ الثواب العظيم لمن ترك الكذب.

عن أبي أمامة . أن النبي ﷺ قال (أنا زعيم ببيت في وسط الجنة لمن ترَك الكذب وإنْ كان مازحًا، وببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسَّن خُلُقَه) رواه الترمذي.

والكذب سبب لابتعاد الناس ونفرتهم عنه .

فمَن تعوَّد على الكذب وعُرِفَ به، سقط من أعين الناس، وضاعت هيبته منهم، فتراه منبوذًا؛ إن قال لا يُصدَّق، وإن شفع لا يشفع، وإن خطب لا يخطب، وصدق القائل حيث قال:

إذا عُرِفَ الإنسان بالكذْب لم يزل لدى الناس كذَّابًا ولو كان صادقَا

فإن قال لا تصغي له جلساؤه ولم يسمعوا منه وإن كان ناطقَا

١٢ – أعظم الكذب الكذب على الله ثم الكذب على رسوله ﷺ .

قال تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون).

عن عَلِي قال. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (لاَ تَكْذِبُوا عَلَىَّ، فَإِنَّهُ مَنْ كَذَبَ عَلَىَّ فَلْيَلِجِ النَّارَ) رواه البخاري.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. قال: قال ﷺ (مَنْ كَذَبَ عَلَىَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) رواه البخاري.

وعن أَنَس قال: قال ﷺ (مَنْ تَعَمَّدَ عَلَىَّ كَذِباً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) رواه البخاري.

وقد فرق النبي ﷺ بين الكذب عليه وبين الكذب على غيره في حديث المغيرة حيث يقول (إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد).

١٣ – من أقوال السلف في ذم الكذب.

قال عمر بن الخطاب ﷺ: لأن يضعني الصدق؛ وقلما يضع أحب إلي من أن يرفعني الكذب؛ وقلما يفعل.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: أعظم الخطايا الكذب، ومن يعف يعف الله عنه.

وروي عنه أيضاً أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل.

وكان ابن عباس يقول: الكذب فجور، والنميمة سحرٌ، فمن كذب فقد فجر، ومن نم فقد سحر.

وقال ابن عمر: زعموا زاملة الكذب.

وقال الأحنف: ما خان شريفٌ ولا كذب عاقلٌ ولا اغتاب مؤمنٌ. وكانوا يحلفون فيحنثون ويقولون فلا يكذبون.

وقال أيضاً: اثنان لا يجتمعان أبداً: الكذب والمروءة.

وقال ميمون بن ميمون: من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقه.

وقال ابن القيم: إياك والكذب؛ فإنه يفسد عليك تصور المعلومات على ما هي عليه، ويفسد عليك تصويرها وتعليمها للناس.

وقال الماوردي: والكذب جماع كل شر، ولذا قيل: من قلّ صدقه قلّ صديقه.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ («مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ» قَالَ قُلْنَا الَّذِى لاَ يُولَدُ لَهُ. قَالَ «لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِى لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا») .

==========

(**مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ**) الرَّقُوب في اللغة: الرَّجُل والمرأةُ إذا لم يَعِشْ لهما ولدٌ؛ لأنه يَرْقُبُ موتَه ويرْصُده خوفًا عليه.

قال النووي –رحمه الله– وأصل الرَّقُوب في كلام العرب: الذي لا يعيش له ولد .

(**قَالَ قُلْنَا**) معاشر الحاضرين .

(**الَّذِى لاَ يُولَدُ لَهُ**) ولدٌ؛ لأنه يَرْقُب ويَنْتَظِر كل وقت ولادة الولد له، ويطمع فيها .

قال القاضي عياض -رحمه الله- أجابوهُ بمقتضى اللفظةِ في اللغة .

١-في هذا الحديث تعريف الرقوب حقيقة : وهو الرَّجُلُ الَّذِى لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا .

أي: لم يمتْ له ولدٌ؛ لأنَّه الذي ينفعُه نفعًا حقيقيًّا .

أراد هو ﷺ مُقتضاه في المعنى؛ أي: إنَّ مُصيبةَ مَن فقَدَ أجرَ الولدِ في الآخرة أعظمُ ممَّن فقَدَ نفعَه والتمتُّعَ بزينتِه في الدنيا، وهذا من تحويلِ الكلام، كقوله: «المفلِسُ مَن يأتي يومَ القيامة...» الحديث، و«المحروبُ مَن حُرِبَ دينُه» .

قال القاضي عياض : فأجابهم هو بمقتضاها في المعنى في الآخرة؛ لأنَّ مَن لم يعِشْ له ولدٌ يأسَفُ عليهم، فقال: بل يجبُ أن يُسمَّى بذلك، ويأسَفُ مَن لم يجدْهم في الآخرة؛ لما فاتَه من أجرِ تقديمِهم بين يديه، وأُصيبَ بذلك، وهذا من تحويلِ الكلامِ إلى معنى آخر.

وقال النووي : معنى الحديث ، أنكم تعتقدون أن الرَّقُوب المحزونَ هو المصاب بموت أولاده، وليس هو كذلك شرعًا، بل هو من لم يَمُتْ أحد مِن أولادِه في حياته فيحتسبه يكتب له ثواب مصيبته به، وثواب صَبْرِه عليه، ويكون له فَرَطًا وسلفًا.

وقال ابن الجوزي -رحمه الله-: دلَّهم بهذا الحديث على النظر إلى المعاني دون الصور؛ لأنهم أَلِفُوا في كلامهم أن الرَّقُوب الذي يفقد أولاده، فأخبرهم أنه الذي يفقد ثواب أولاده في الآخرة .

٢-تصحيح مفهوم النجاح والخسارة ، فالناس قد يعدّون من لم يُرزق بأولاد هو «الرقوب»، لكن النبي ﷺ صحح هذا المفهوم، وجعل الخسارة الحقيقية فيمن فقد أولاده ولم يستعد للآخرة.

٣-أن العبرة بما ينفع في الآخرة: المقصود بـ«لم يُقدِّم من ولده شيئًا» أنه لم يمت له ولد فيحتسبه عند الله، فيكون ذلك سببًا للأجر والذخر في الآخرة.

٤-فضل الصبر على فقد الأولاد، ففقد الولد مصيبة عظيمة، لكن إذا صبر الوالدان واحتسبا الأجر، كان ذلك سببًا للأجر العظيم.

٥-تغيير النظرة إلى المصائب، فقد يظن الإنسان أن بعض الأمور شر محض، بينما قد يجعل الله فيها خيرًا وأجرًا عظيمًا، إذا قابلها المسلم بالصبر والاحتساب.

٦-أن الخسارة الحقيقية هي خسارة الآخرة: ليس المهم كثرة المال أو الأولاد أو متاع الدنيا، وإنما المهم ما يقدمه الإنسان لنفسه من العمل الصالح.

٧-رحمة النبي ﷺ وتعليمه، فقد استخدم النبي ﷺ أسلوب السؤال: «ما تعدون الرقوب فيكم؟» ليجعل الصحابة يفكرون، ثم صحح لهم المفهوم بطريقة تربوية مؤثرة.

٨-التنبيه إلى قيمة الأولاد في حياة المسل، فالأولاد نعمة، وقد يكونون سببًا في زيادة الأجر، سواء بتربيتهم على الخير أو بالصبر على فقدهم واحتساب ذلك عند الله.

٩-تسلية أصحاب المصائب: في الحديث مواساة عظيمة لمن فقد ولدًا؛ فالمصيبة التي تبدو خسارة في نظر الناس قد تكون ذخيرة لصاحبها عند الله.

١٠-أن الحرمان الحقيقي هو الحرمان من الخير .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ).

[خ : ٦١١٤] .

==========

(لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ) أي: الذي يصرع الناس كثيراً بقوته، وقد جاء عن أنس أن النبي ﷺ مر بقوم يصطرعون فقال ما هذا قالوا فلان ما يصارع أحدا إلا صرعه قال أفلا أدلكم على من هو أشد منه رجل كلمه رجل فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه. رواه البزار بسند حسن .

(إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ) أي: لا تغلبه نفسه، بل يكفُّها، ويتغلب عليها؛ لئلا ترتكب جريمة بسبب الغضب.

تنبيه :

جاء عند البخاري عن أبي هريرةَ ﷺ: أنَّ رَجُلاً قَالَ للنبي ﷺ: أوصِني. قَالَ: (لا تَغْضَبْ فَرَدَّدَ مِراراً، قَالَ: لاَ تَغْضَبْ). رواه البخاري

١-الحديث دليل على أن القوي حقيقة هو من يملك نفسه عند الغضب .

لقوله (**إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِى يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**) .

أي : أن الشديد حقيقة هو من يملك نفسه عند الغضب.

وقد جاء عن أنس (أن النبي ﷺ مرّ على أناس يصطرعون، فقال: ما هذا؟ قالوا: فلان ما يصارع أحداً إلا صرعه، قال: أفلا أدلكم على من هو أشد منه؟ رجل كلمه رجلاً مكتظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه) رواه البزار بسند حسن.

قال النووي -رحمه الله-: ومعنى الحديث: ... وكذلك تعتقدون أن الصرعة الممدوح القوي الفاضل هو القوي الذي لا يصرعه الرجال، بل يَصْرَعهم، وليس هو كذلك شرعًا بل هو مَن يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قلَّ مَن يقدِر على التخلُّق بخلقِهِ ومشاركته في فضيلته بخلاف الأول .

وقال ابن الجوزي: ... ولَمَّا عَرَفوا أن الصُّرعة الذي لا يصرعه الرجال أخبرهم أن الشدَّة في مَلَكَة النفس، كما قال في الحديث الآخر (مَن الْمُفْلِس؟ فقالوا: مَن لا دِينارَ له ولا دِرْهَم) فبيَّن لهم أن المفلس من تُفرَّق حسناته على أهل المظالم.

وقال ابن رسلان -رحمه الله-: وهذا من الألفاظِ التي نقلها عن وَضْعِها اللغوي لضربٍ مِن التوسُّعِ والمجازِ، وهو من فصيحِ الكلام؛ لأنه لَمَّا كان الغضبانُ بحالة شديدة من الغيظِ، وقد ثارت عليه شهوةُ الغضبِ فقَهَرَهَا بحِلْمِه وصرعها بثباته كان كالصرعة الذي يَصرع الرجال ولا يصرعونه .

٢-قوله ﷺ للرجل (**لا تغضب**) .

فيه التحذير والنهي عن الغضب .

٣- معنى قوله (لا **تغضب**) .

قال السعدي: فإن قوله (لا تغضب) يتضمن أمرين عظيمين:

أحدهما: الأمر بفعل الأسباب والتمرن على حسن الخلق والحلم والصبر، وتوطين النفس على ما يصيب الإنسان من الخلق، من الأذى القولي والفعلي؛ فإذا وفق لها العبد، وورد عليه وارد الغضب، احتمله بحسن خلقه، وتلقَّاه بحلمه وصبره، ومعرفته بحسن عواقبه؛ فإن الأمر بالشيء

أمر به، وبما لا يتم إلا به، والنهي عن الشيء أمر بضده، وأمر بفعل الأسباب التي تعين العبد على اجتناب المنهي عنه، وهذا منه.

الثاني: الأمر بعد الغضب أن لا ينفذ غضبه: فإن الغضب غالباً لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه.

وقال الخطابي –رحمه الله– معنى قوله (لا تغضب) هو أن يحذر أسباب الغضب، (وألَّا) يتعرض للأمور التي تجلب عليه الضجر فتُغضِبه، فأما نفس الغضب فطَبْعٌ في الإنسان لا يمكنه نَزْعُه وإخراجه من جِبِلَّتِه، وقد يكون معنى قوله: «لا تغضب» أي: لا تفعل ما يأمرك به الغضب، ويحملك عليه من القول والفعل.

٤–لماذا حذر النبي ﷺ من الغضب ؟

الغضب من الصفات الذميمة التي وردت النصوص في ذمها والتحذير منها، فكم سبب من عداوات، وأحقاد، وفرقة بين الأزواج، وتشتت الأسر وضياع الأولاد، وقطع الأرحام، وكم حصل بسببه من حروب، وفتن، وسفك للدماء؟! ... إن الغضب يجمع الشر كله، يغضب الرحمن، ويرضي الشيطان.

قال ابن التين: جمع ﷺفي قوله: "لَا تَغْضَبْ" خير الدنيا والآخرة؛ لأن الغضب يؤول إلى التقاطع، ومنع الرفق، وربما آل إلى أن يُؤذي المغضوب عليه فينتقص ذلك من الدين .

وقال الخطابي –رحمه الله– الغضب يغيِّر الطباع، ويفسد الرأي، ويضر بالعقل.

وقال النووي : ... ولم يعلم أن الغضب من نزغات الشيطان، ولهذا يخرج به الإنسان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد، والبغض، وغير ذلك، من القبائح المترتبة على الغضب، ولهذا قال النبيّ ﷺ للذي قال له: أوصني: "لا تغضب"، فردّد مرارًا، قال: "لا تغضب"، فلم يزده في الوصية على "لا تغضب"، مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهر في عِظَم مفسدة الغضب، وما ينشأ منه.

٥–قال ابن عبد البر –رحمه الله– في هذا الحديث من الفقه: فضل الحلم.

٦-وفيه: دليل على أن الحلم كتمان الغيظ، وأن العاقل مَن مَلَكَ نفسه عند الغضب؛ لأن العقل في اللغة ضبط الشيء وحبسه، منه قيل: عِقَالُ الناقة، ومعناه في الشريعة: مَلْكُ النفس وصَرْفُها عن شهواتها المُرْدِية لها، وحبسها عما حرم الله عليها -والله أعلم-، وقد جعل رسول الله ﷺ للذي يملك نفسه ويغلبها من القوة ما ليس للذي يغلب غيره، وفي هذا دليل على أن مجاهدة النفس أصعب مَرَامًا، وأفضل من مجاهدة العدو، والله أعلم. .

٧-قال المغربي -رحمه الله-: والحديث فيه: دلالة على أنه يجب على من أغضبه امرؤٌ وأرادت النفس المبادرة إلى الانتقام ممن أغضبه أن يجاهد نفسه ويمنعها عما طلبت. .

٨- الثناء على من يملك نفسه عند الغضب.

٩-أن مَن يَمْلِكُ نفسه عند الغضب أشد ممن يصارع فيصرع...، لكن حقيقة الأمر أن الذي يضبط نفسه عند الغضب هو أشد منه وأقوى.

١٠-ومن فوائد الحديث: حسن تعليم الرسول ﷺ حيث بين للناس الحُكم أو الحالَ بأشياء محسوسة؛ لأن كل واحد من الناس يعرف أن الذي يُصارع الناس فيصرعهم يعرف أنه قوي شديد، فبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- مَن هو أحقُّ منه بأن يوصف بالشدة، وهو الذي يملك نفسه عند الغضب. (ابن عثيمين)

١١ - الغضب ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: مذموم.

وهو الغضب الدنيوي الذي حذرنا منه النبي ﷺ كما في حديث أبي هريرة السابق (لا تغضب).

القسم الثاني: وهو محمود.

ما كان لله وللحق.

قالت عائشة (وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله) متفق عليه.

١٢-في قوله ﷺ للرجل (**لا تغضب**) .

لماذا خص هذا الرجل بهذه الوصية.

قال ابن حجر –رحمه الله– قال بعضهم: لعل السائل كان غضوبًا، وكان النبي ﷺ يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيَّته له على ترك الغضب.

وقال ابن هبيرة –رحمه الله– من الجائز أن يكون النبي ﷺ علِم من هذا الرجل كثرة الغضب، فخصَّه بهذه الوصية، وقد مدَح رسولُ الله الذي يملك نفسه عند الغضب.

وقال ابن الملك –رحمه الله– يحتمل: أن يكون الرجل المسْتَوصِي مبتلى بالقوة الغضبية، وعَرَف ﷺ ذلك منه بالكشف لأحوال الناس؛ إما بالاطلاع الإلهي، أو بالفراسة الصادقة، فأجابه بكل مرَّة بكَسْر تلك القوة.

١٣–مدافعة النفس عند الغضب من أعظم مجالات المجاهدة؛ لأن الإنسان قد يقدر على خصمه، لكنه يحتاج إلى قوة أكبر ليضبط نفسه.

١٤–الحديث يربي على ترك الانتقام والاندفاع، واختيار التصرف الحكيم عند النزاع.

١٥–ضبط النفس دليل على قوة الإيمان والعقل، وليس الاندفاع وإطلاق العنان للغضب.

١٦–الغضب لا يبرر الظلم أو الاعتداء؛ فالمؤمن مطالب بالتحكم في تصرفاته حتى عند الاستفزاز.

١٧–القوة الأخلاقية أعظم من القوة الجسدية؛ لأن التغلب على النفس قد يكون أصعب من التغلب على الآخرين.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قَالَ (اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ وَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنِّي لأَعْرِفُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِى يَجِدُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » فَقَالَ الرَّجُلُ وَهَلْ تَرَى بِي مِنْ جُنُونٍ) .

[خ : ٣٢٨٢] .

==========

(**اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ**) قال الحافظ: لَمْ أعرف أسماءهما، ووقع في "صفة إبليس" من وجه آخر عن الأعمش، بهذا السند: "كنت جالسًا مع النبيِّ ﷺ، ورجلان يستبّان.

(**فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ**) وفي الرواية الأخرى (فجعل أَحَدُهُمَا تَحْمَرُّ عَيْنَاهُ، وَتَنْتَفِخُ أَوْدَاجُهُ).

وفي حديث معاذ بن جبل عند أحمد، وأصحاب السنن (حتى إنه ليُخَيَّل إليّ أن أنفه ليتمزَّع من الغضب).

(**فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً**) فيه إطلاق الكلمة على الكلام.

(**لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ**) أي : وجده من شدة الغضب.

(**أَعُوذُ بِاللَّهِ**) أي : ألتجئ وأعتصم .

(**مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**) وفي حديث معاذ رضي الله عنه: "إني لأعلم كلمة لو يقولها هذا الغضبان، لذهب عنه الغضب، اللَّهُمَّ أني أعوذ بك من الشيطان الرجيم ز

(**فَقَالَ الرجل**) بعدما كلّمه رجل بما قاله النبيّ ﷺ، ففي الرواية التالية: "فَقَامَ إِلَى الرَّجُلِ رَجُلٌ مِمَّنْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: أَتَدْرِي مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آنِفًا؟ فذكر له" وفي رواية أبي داود ما يُبيّن أن الرجل الذي قام إليه هو معاذ بن جبل، ولفظه (قال: فجعل معاذ يأمره، فأبي، وضَحِك، وجعل يزداد غضبًا) وفي رواية البخاريّ (فانطلق إليه الرجل، فأخبره بقول النبيّ ﷺ، وقال: تعوّذ بالله من الشيطان).

(**وَهَلْ تَرَى**) بفتح، وضبطه في "الفتح" بضمها؛ أي: أتظنّ .

(**بِي مِنْ جُنُونٍ**) في رواية البخاريّ (أمجنون أنا، اذهب) وقوله: "اذهب" هو خطاب من الرجل للرجل الذي أمَره بالتعوّذ؛ أي: امْضِ في شغلك.

١-الحديث دليل على أن الغضب لغير الله من نزعات الشيطان .

وهذا يدل على أن الشيطان يُغضبه ليحمله غضبه على فعل ما يحبُّه الشيطان.

قاله القرطبيّ - رَحِمَهُ اللهُ -: هذا الحديث يدلّ على أنَّ الشيطان له تأثيرٌ في تهييج الغضب، وزيادته، حتى يحمله على البطش بالمغضوب عليه، أو إتلافه، أو إتلاف نفسه، أو شرّ يفعله، يستحق به العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا تعوّذ الغضبان بالله من الشيطان الرجيم، وصحّ قَصْده

لذلك، فقد التجأ إلى الله تعالي، وقَصَده، واستجار به، والله تعالى أكرم من أن يَخْذُل من استجار به، ولَمّا جَهِل ذلك الرجل ذلك المعني، وظن أن الذي يحتاج إلى
التعوّذ إنما هو المجنون، فقال: "أمجنونًا تراني؟ "، منكرًا على من نبّهه على ما يُصلحه، ورادًّا لِمَا ينفعه، وهذا من أقبح الجنون، والجنون فنونٌ، وكأن هذا الرجل كان من جُفاة الأعراب الذين قلوبهم من الفقه والفهم خراب.

٢-في الحديث علاج الغضب : وهو الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم .

٣-وهناك عدة أمور يُعالج بها الغضب :

بالاستعاذة بالله من الشيطان.

لحديث الباب .

وقال ﷺ (إذا غضب الرجل فقال أعوذ بالله، سكن غضبه).

وبالسكوت.

قال رسول الله ﷺ (إذا غضب أحدكم فليسكت) رواه أحمد.

قال ابن رجب: وهذا أيضاً دواء عظيم للغضب؛ لأنَّ الغضبان يصدر منه في حال غضبه من القول ما يندم عليهِ في حال زوال غضبه كثيراً من السِّباب وغيره مما يعظم ضَرَرُهُ، فإذا سكت زال هذا الشرّ كله عنه.

وقال السندي -رحمه الله- قوله (فليسكت) لأن الكلام في تلك الحالة يؤدي إلى الندامة.

وقال المناوي -رحمه الله- فإن السكوت يُسَكِّنُ الغضب، وحركة الجوارح تُثِيْرُه.

وبالجلوس وإلا فليضطجع.

قال رسول الله ﷺ (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع) رواه أحمد.

قال العلامة الخطابي -رحمه الله-: القائم متهيئ للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيشبه أن يكون النبي ﷺ إنما أمره بالقعود والاضطجاع لئلا يبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد.

وقال ابن قدامة -رحمه الله-: وأما الجلوس والاضطجاع فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خُلِق، فيَذْكُرُ أصلَه فيذلّ، ويمكن أنْ يكون ليتواضع بِذُلِّه؛ لأن الغضب ينشأ من الكِبْرِ، بدليل ما روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه ذَكَرَ الغضب وقال: مَن وجد شيئًا من ذلك فلْيُلْصِقْ خدَّه بالأرض.

وقال البغوي -رحمه الله- قيل: إنَّما أمَرَه بالقعود والاضطجاع لئلا يحصل منه في حال غضبه ما يندم عليه، فإن المضطَجِع أبْعَد في الحركة والبطش من القاعد، والقاعد من القائم.

وقال ابن رجب: وقد قيل: إنَّ المعنى في هذا أنَّ القائم متهيِّئ، للانتقام والجالس دونَه في ذلك، والمضطجع أبعدُ عنه، فأمره بالتباعد عن حالةِ الانتقام.

وقال الطوفي -رحمه الله- (فليضطَجِع) والغرض أنْ يبعد عن هيئة الوثوب والتسرع إلى الانتقام ما أمكن؛ حسمًا لمادة المبادرة.

وقال ابن رسلان -رحمه الله- قوله (وإلا فليضطجع) لأن المضطجِع أقلُّ حركة من الجالس، ويشبه أنْ يكون النبي ﷺ إنَّما أمره بالقعود والاضطجاع؛ لئلا يبدو منه في حال قيامه وقعوده بادرة بالانتقام من عدوِّه، فيندم عليها فيما بعد، والله أعلم.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- إذا كان قائمًا فليجلس، وإذا كان جالسًا فليضطجع؛ لأن تغيُّر حاله الظاهر يوجب تغير حاله الباطن.

وتذكر وصية النبي ﷺ للرجل: لا تغضب.

كما في حديث أبي هريرة السابق (لا تغضب) .

وقد جاء في رواية قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله.

وترك الغضب من أسباب دخول الجنة.

فقد جاء في رواية (لا تغضب ولك الجنة) وعزاه ابن حجر إلى الطبراني.

الأجر العظيم لمن كظم غيظه.

عن معاذِ بنِ أَنسٍ ﷺ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَال (مَنْ كَظَمَ غَيظاً، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاء). رواه أَبو داود والترمذي

معرفة الرتبة العالية والميزة المتقدمة لمن ملك نفسه.

عن أبي هريرةَ ﷺ أنّ رسولَ الله ﷺ قَال (لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّمَا الشَدِيدُ الَّذِي يَملكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَب). مُتَّفَقٌ عَلَيهِ

(وَالصُّرَعَةُ): بضَمِّ الصَّادِ وَفَتْحِ الرَّاءِ وأَصْلُهُ عِنْدَ العَرَبِ مَنْ يَصْرَعُ النَّاسَ كَثيراً.

وقال ﷺ (الصرعة كل الصرعة الذي يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه، ويقشعر شعره فيصرع غضبه) رواه الإمام أحمد.

التأسي بهديه ﷺ في الغضب.

وهذه السمة من أخلاقه ﷺ وهو أسوتنا وقدوتنا، واضحة في أحاديث كثيرة، ومن أبرزها:

حديث أنس ﷺ قال (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ (ما بين العنق والكتف) وقد أثرت بها حاشية البرد، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء) متفق عليه.

معرفة أن رد الغضب من علامات المتقين.

قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين).

ومن أخلاقهم أنهم (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ).

دعاء الله.

كان من دعائه ﷺ (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى ...).

قال الحافظ ابن رجب: وأما قوله (وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا) فعزيز جداً، وقد مدح الله من يغفر عند غضبه فقال (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) لأن الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق، ويفعل غير العدل، فمن كان لا يقول إلا الحق في الغضب والرضا، دل ذلك على شدة إيمانه وأنه يملك نفسه.

ثم قال رحمه الله: فإن من لا يملك نفسه عند الغضب إذا غضب قال فيمن غضب عليه ما ليس فيه من العظائم، وهو يعلم أنه كاذب.

قال ابن حجر –رحمه الله– ويُعِينُ على ترك الغضب: استحضار ما جاء في كظْمِ الغيظ من الفضل، وما جاء في عاقبة ثمرة الغضب من الوعيد، وأن يستعيذ من الشيطان.

٤–من أقوال السلف :

قال أحد السلف: إياك والغضب، فإنه يصيرك إلى ذل الاعتذار.

وقال بعضهم: عجباً لمن قيل فيه السوء وهو فيه كيف يغضب!، وعجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح!

وقال مورق العجلي: ما قلت في الغضب شيئاً إلا ندمت عليه في الرضا.

وكان الشعبي ينشد: ليست الأحلام في حال الرضا ... إنما الأحلام في حال الغضب

وكان ابن عون إذا اشتد غضبه على أحد قال: بارك الله فيك ولم يزد.

وقال الفضيل بن عياض: أنا منذ خمسين سنة أطلب صديقاً إذا غضب لا يكذب عليّ ما أجده.

وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر.

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة: قال: ترك الغضب.

وروي أن معاوية بن أبي سفيان قال لعرابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرابة؟ فقال عرابة: يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل منهم فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه.

وممن اشتهر بالحلم وعدم الغضب الأحنف بن قيس وكان يقال: أحلم من أحنف.

٥-**قال النووي** -رحمه الله- روى النَّحاسُ عن أبي بكر محمد بن يحيى، وكان أحد الفقهاء العلماء الأدباء، أنه قال: يُكره أنْ يُقال لأحدٍ عند الغضب: اذْكُر اللَّهَ تَعالى؛ خوفًا من أنْ يحملَه الغضبُ على الكفر، قال: وكذا لا يُقال له: صلِّ على النبيّ ﷺ خوفًا من هذا. (الأذكار)

٦-أن الغضبُ جِمَاعُ الشرِّ كُلِّهِ.

٧-كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز خمسة عشر سوطًا.

٨-من أعظم أسباب الغضب المجادلة ففي كثير من الأحيان يبدأ النقاش ثم يتحول إلى مجادلة ونزاع يُغْضِب ويورث العداوة ، فكان من حكمة الشارع النهي عن المجادلة:

فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً وببيت في أعلى الجنة لمن حَسَّنَ خلقه) رواه أبو داود.

٩-نهى النبيُّ ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان؛ لأنَّ الغضب يمنع القاضي من تصوُّر المسألة، ثمَّ من تطبيق الحكم الشرعي عليها، فيهلك ويحكم بين الناس بغير الحقِّ.

١٠-بيان خطورة الغضب؛ فإنه يؤثر في الإنسان حتى تظهر عليه آثاره، كاحمرار العينين وانتفاخ الأوداج.

١١-أن الغضب من مداخل الشيطان؛ ولذلك أرشد النبي ﷺ الغاضب إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

١٢-أن الغضب قد يغيّر هيئة الإنسان الجسدية، كما ظهر في احمرار العينين وانتفاخ الأوداج.

١٣-أن الانفعال الشديد يؤثر في العقل والتصرف؛ ولذلك قد يقول الإنسان أو يفعل أثناء الغضب ما يندم عليه بعد هدوئه.

١٤-أن الاستعاذة عبادة وليست مجرد عبارة تُقال؛ فالعبد يستعين بالله تعالى على دفع وسوسة الشيطان وتأثيره.

١٥-إثبات عداوة الشيطان للإنسان وسعيه إلى إفساد علاقاته وإثارة الخصومات بين الناس.

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ) .

==========

(**لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ**) صوّر : بالتشديد: شَكَّل صورتَه

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله–: قوله (لما صَوَّرَ اللهُ آدمَ) يعني: أنَّ الله تعالى لما صوَّر طينة آدم، وشكَّلها بشكله على ما سبق في علمه.

وقال الصنعاني –رحمه الله– : قوله (لما صوَّر الله آدم) بالتشديد شكل صورته .

(**تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ**) لم ينفخ فيه الروح .

(**فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ**) **قال القرطبي** : أي: فلما رآها –أي: طينة آدم– إبليس أطاف بها، أي: دار حولها، وجعل ينظر في كيفيتها، وأمرها .

(**فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ**) **قال النووي** –رحمه الله–الأجوف: صاحب الجوف، وقيل: هو الذي داخله خالٍ.

وقال الشيخ محمد الأمين الهرري –رحمه الله– (فلما رآه أجوفَ) أي: فارغ الجوف، ليس فيه شيء.

(**عَرَفَ**) إبليس .

(**أَنَّهُ**) أي : آدم .

(**خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ**) **قال النووي** –رحمه الله–معنى (لا يتمالك) لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد: جنس بني آدم .

١–في الحديث كيفية خلق آدم عليه السلام .

٢–وفيه: بَيانُ عَداوةِ إبليسَ لآدَمَ وذُرِّيَّتِه مِن أوَّلِ ما خُلِق إلى قِيامِ السَّاعةِ.

٣–قوله (عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لاَ يَتَمَالَكُ) .

معنى : لا يتمالك .

قيل : لا يملك نفسه عن الانسياق وراء رغباتها وحبسها عن الشهوات، لافتقار جوفه إلى الطعام والشراب وغيرهما .

وقيل : لا يملك نفسه عند هيجان الغضب والانفعال فيخرج عن طور التؤدة والحلم .

وقيل : لا يتقوى بعضه ببعض، بل هو مركب من أبعاض مختلفة، عرضة للتغير والآفات والضعف والتقلب .

قال النووي -رحمه الله-: معنى (لا يتمالك) لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد: جنس بني آدم.

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- : قوله (لا يتمالك) أي: لا يتقَوَّى بعضه ببعض، ولا قوة، ولا ثبات، بل يكون مُتَزَلْزَل الأمر، مُتَغِّير الحال، مُتَعَرِّضًا للآفات ، وقيل: المعنى: لا يقدر على ضبط نفسه من المنع عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب .

وقال المباكفوري -رحمه الله-: قوله (لا يتمالك) أي: لا يملك نفسه في كفها عن الشهوات، وفي دفع الوسواس، والغضب ونحوه؛ لأن الجوف يغلبه ويذهب به هنا وهناك .

٤-بيان ضعف الإنسان وطبيعته؛ وقول إبليس (خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ) يدل على أن الإنسان ليس مستغنيًا عن ربه، بل هو مخلوق ضعيف يحتاج إلى حفظ الله وتوفيقه.

٥-التحذير من الاغترار بالنفس؛ فالإنسان مهما بلغ من القوة والعلم يبقى مخلوقًا ضعيفًا.

٦-إثبات وجود إبليس وعداوته لبني آدم، وأن عداوته قديمة وليست طارئة.

٧-الحث على الاستعانة بالله؛ لأن ضعف الإنسان يجعله محتاجًا إلى ربه في كل أحواله.

٨-إثبات سبق خلق آدم على وجود ذريته، وأن أصل البشرية يرجع إلى آدم عليه السلام.

٩-بيان أن إبليس كان موجودًا عند خلق آدم، وأن عداوته للإنسان بدأت مبكرًا.

١٠-الإنسان مخلوق ضعيف من جهة طبيعته، فلا ينبغي له أن يتكبر أو يغتر بقوته.

١١-في الحديث تنبيه إلى خطورة الشهوة والهوى، فطبيعة الإنسان وما أودع فيه من غرائز تحتاج إلى ضبط بالشرع.

١٢-أن الابتلاء بالشيطان من سنن الله في هذه الحياة، ولذلك لا يستغرب المؤمن وجود الوساوس والفتن.

١٣-وقد استشكل بعض الناس قوله (في الجنة) مع ما ورد من أنه تعالى خلق آدم من أجزاء الأرض، وأُجيب بأنه يحتمل أنه تُرِك كذلك حتى مرَّت عليه الأطوار واستعدَّت صورته لقبول نفخ الروح فيها، ثم حُمِلت إلى الجنة ونُفِخ روحه فيها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ).

[خ : ٢٥٥٩] .

==========

(**إِذَا قَاتَلَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ**) وفي الرواية الأخرى (إذا ضرب ...) .

(**فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ**) أي : فليحترز عن ضرب الوجه .

(**فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**) سيأتي معناها إن شاء الله .

١-الحديث دليل على تحريم ضرب الوجه .

وقد جاء عن جَابِر قَالَ (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ وَعَنِ الْوَسْمِ فِي الْوَجْهِ). رواه مسلم

قال في الفتح في خصوص دلالة النهي الوارد في الحديث: لم يتعرض النووي لحكم هذا النهي، وظاهره التحريم، ويؤيده حديث سويد بن مقرن الصحابي: أنه ﷺ رأى رجلاً لطم غلاماً فقال (أو ما علمت أن الصورة محترمة).

قال أبو بكر الجصاص: اتفق الجميع على ترك ضرب الوجه والفرج .

وقال القرطبي: اتفقوا على أنه لا يضرب في الوجه .

٢-وهذا النهي عام في كل ضرب .

قال الحافظ: ويدخل في النهي كل من ضرب في حد أو تعزير أو تأديب، وقد وقع في حديث أبي بكرة وغيره عند أبي داود وغيره في قصة التي زنت، فأمر النبي ﷺ برجمها وقال (ارموا واتقوا الوجه) وإذا كان ذلك في حق من تعين إهلاكه فمن دونه أولى. (الفتح)

وقال الصنعاني: وهذا النهي عام لكل ضرب ولطم من تأديب أو غيره. (سبل السلام)

وقال العراقي : إذَا حَصَلَتْ مُقَاتَلَةٌ مِنْ الْجَانِبَيْنِ ، وَلَوْ فِي دَفْعِ صَائِلٍ وَنَحْوِهِ : يَتَّقِي وَجْهَهُ ، فَمَا ظَنُّك بِمَا إذَا لَمْ يَقَعْ مِنْ الْجَانِبِ الْآخَرِ ضَرْبٌ ؛ فَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يَتَّقِيَ الْوَجْهَ ؛ لِأَنَّ صَاحِبَ الْمُدَافَعَةِ قَدْ تَضْطَرُّهُ الْحَالُ إلَى الضَّرْبِ فِي وَجْهِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَنَهَى عَنْهُ ، فَالَّذِي لَا يُدَافِعُهُ الْمَضْرُوبُ أَوْلَى بِأَنْ يُؤْمَرَ بِاجْتِنَابِ الْوَجْهِ .

٣-الحكمة من النهي .

قال النووي: هَذَا تَصْرِيح بِالنَّهْيِ عَنْ ضَرْب الْوَجْه: لِأَنَّهُ لَطِيف يَجْمَع الْمَحَاسِن، وَأَعْضَاؤُهُ نَفِيسَة لَطِيفَة، وَأَكْثَر الْإِدْرَاك بِهَا: فَقَدْ يُبْطِلهَا ضَرْب الْوَجْه، وَقَدْ يُنْقِصُهَا ، وَقَدْ يُشَوِّه الْوَجْه، وَالشَّيْن فِيهِ فَاحِش: وَلِأَنَّهُ بَارِز ظَاهِر لَا يُمْكِن سَتْره، وَمَتَى ضَرَبَهُ لَا يَسْلَم مِنْ شَيْن غَالِبًا.

وقال القاضي عياض : فيه تشريف هذه الصورة عن الشَّين (العيب والقُبح) إذ الضرب فيها واللطم مما يُظهر الشَّين فيها سريعًا؛ ولأن فيها المحاسن وأعضاء نفيسة، وأكثر الإدراكات، فقد يُبطلها بفعله والتشويه فيها أشد؛ لأنها سيما الإنسان والبادي منه والمتميز به من أمثاله، والصورة التي خلقه الله عليها وكرّم بها بني آدم وفضَّلهم على كثير ممن خلقه تفضيلًا.

وقال الشيخ ابن عثيمين: ولأن الوجه أشرف ما في الإنسان، وهو واجهة البدن كله، فإذا ضُرب كان أذل للإنسان مما لو ضرب غير وجهه. انتهى

بل ذهب بعض أهل العلم إلى أن المعنى في ضرب الوجه، هو صيانة العين عن التلف.

قال الجصاص: ووجه آخر وهو أنه ممنوع من ضرب الوجه لما يخاف فيه من الجناية على البصر.

فائدة :

فإن قيل: ما الجواب عن فعل امرأة الخليل عليه السلام، وهو ما جاء في قوله تعالى: (فَصَكَّتْ وَجْهَهَا)؟ فالجواب عنه من خمسة أوجُه:

الوجه الأول: معناه ضَرَبَتْ وجهها. قال ابن عباس: لَطَمَتْ، وهذا مما يفعله الذي يرد عليه أمر يَستهوله. أفاده ابن عطية.

والوجه الثاني: أن هذا الفعل للتعجّب.

قال سفيان والسدي ومجاهد: معناه ضربت بِكَفِّها جبهتها وهذا مستعمل في الناس حتى الآن

وقال البغوي: أي ضَرَبَتْ وَجْهها تَعجُّباً.

وقال ابن كثير: جَرَتْ به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب.

والوجه الثالث: أنه ضرب خفيف.

فقيل: إنها ضَرَبَتْ جبينها بأصابعها تعجباً.

ومعلوم أن مَنْ ضَرَب نفسه لا يكون ضرب إهانة ولا ضَرْب إيلام.

والوجه الرابع: أنه هو لو صحّ أنه من ضَرْب الوجه فهو مِن شَرْع مَن قَبْلَنا.

وقد جاء شرعنا بخلافه.

الوجه الخامس: أن المنهي عنه ضَرْب الإنسان وجْه غيره، وهذا من ضرب النفس.

٤-قوله (**فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ**).

قيل: الضمير يعود على آدم.

قال النووي: وَهَذِهِ الرِّوَايَة ظَاهِرَة فِي أَنَّ الضَّمِير فِي (صُورَته) عَائِد إِلَى آدَم، وَأَنَّ الْمُرَاد أَنَّهُ خُلِقَ فِي أَوَّل نَشْأَته عَلَى صُورَته الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي الْأَرْض، وَتُوُفِّيَ عَلَيْهَا، وَهِيَ طُوله سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَلَمْ يَنْتَقِل أَطْوَارًا كَذُرِّيَّتِهِ، وَكَانَتْ صُورَته فِي الْجَنَّة هِيَ صُورَته فِي الْأَرْض لَمْ تَتَغَيَّر.

وقيل: الضمير يعود إلى الله.

فقد روى ابن أبي عاصم في السنة عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ (لا تقبحوا الوجوه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن).

قال الشيخ عبد الله الغنيمان حفظه الله: (هذا حديث صحيح صححه الأئمة، الإمام أحمد وإسحاق بن راهوية وليس لمن ضعفه دليل إلا قول ابن خزيمة، وقد خالفه من هو أجل منه).

وروى ابن أبي عاصم أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ (إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله تعالى خلق آدم على صورة وجهه).

وهذان الحديثان يدلان على أن الضمير في قوله "على صورته" راجع إلى الله تعالى.

وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال (أتاني ربي في أحسن صورة فقال يا محمد قلت لبيك ربي وسعديك قال فيم يختصم الملأ الأعلى ...).

وفي حديث الشفاعة الطويل (فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة). رواه البخاري ومسلم.

ومن هذه الأحاديث يعلم أن الصورة ثابتة لله تعالى، على ما يليق به جل وعلا، فصورته صفة من صفاته لا تشبه صفات المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبه ذواتهم.

قال ابن تيمية: لفظ الصورة في الحديث كسائر ما ورد من الأسماء والصفات، التي قد يسمى المخلوق بها، على وجه التقييد، وإذا أطلقت على الله اختصت به، مثل العليم والقدير والرحيم والسميع والبصير، ومثل خلقه بيديه، واستواءه على العرش، ونحو ذلك.

وقال شيخ الإسلام أيضاً: وكما أنه لابد لكل موجود من صفات تقوم به، فلابد لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها، ويمتنع أن يكون في الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها.

وقال: لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير في الحديث عائد إلى الله تعالى، فإنه مستفيض من طرق متعددة، عن عدد من الصحابة، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك ... ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة جعل طائفة الضمير فيه عائدا إلى غير الله تعالى، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم، كأبي ثور وابن خزيمة وأبي الشيخ الأصفهاني وغيرهم، ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة.

فائدة:

قد ذكر الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ثلاثة أقوال في ذلك، أحدها: وهو قول الأكثر أنه يعود على المضروب لما تقدم من الأمر بإكرام وجهه.

قلت : وإلى هذا ذهب ابن خزيمة فقال في (كتاب التوحيد) بعد إيراده لحديث أبي هريرة ﷺ في ذلك من عدة طرق. قال أبو بكر: توهم بعض من لم يتحر العلم أن قوله (على صورته) يريد صورة الرحمن عز ربنا وجل عن أن يكون هذا معنى الخبر. بل معنى قوله «خلق الله آدم على صورته» الهاء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم. أراد ﷺ أن الله خلق آدم على صورة هذا المضروب الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب والذي قبح وجهه .

قال النووي : قوله (فإن الله خَلق آدمَ على صورته) .

قالت طائفةٌ: الضميرُ في صُورتِه عائدٌ على الأخِ المضروب، وهذا ظاهرُ روايةِ مسلم.

وقالت طائفةٌ: يعودُ إلى آدمَ، وفيه ضَعف.

وقالت طائفةٌ: يعودُ إلى اللهِ تعالى، ويكون المرادُ إضافةَ تشريفٍ واختصاصٍ كقولِه تعالى (نَاقَةُ اللَّهِ) وكما يُقال في الكعبة: بيتُ الله، ونظائرُه، والله أعلم. (شرح مسلم)

فائدة : سئل بن عثيمين : ما معنى قول النبي ﷺ (إن الله خلق آدم على صورته) .

الجواب: هذا الحديث أعني قول النبي عليه السلام:(إن الله خلق آدم على صورته) ثابت في الصحيحين ومن المعلوم أنه لا يراد به ظاهره بإجماع المسلمين والعقلاء، لأن الله عزوجل وسع كرسيه السموات والأرض، والسموات والأرض كلها بالنسبة للكرسي موضع القدمين، كحلقة القيت في فلاة من الأرض، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة فماظنك برب العالمين؟ لا أحد يحيط به وصفا ولا تخيلا، ومن هذا وصفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعاً لكن يحمل على أحد معنيين:

الأول : أن الله خلق آدم على صورة اختارها ،وأضافها إلى نفسه تعالى تكريماً وتشريفاً.

الثاني: أن المراد خلق آدم على صورته تعالى من حيث الجملة، ومجرد كونه على صورته لا يقتضي المماثلة.

والدليل قوله ﷺ (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أضوإ كوكب في السماء) .

ولا يلزم أن تكون هذه الزمرة مماثلة للقمر، لأن القمر أكبر من أهل الجنة بكثير فإنهم يدخلون الجنة طولهم ستون ذراعا، فليسوا مثل القمر.

٥-نهي عن التشويه والإهانة؛ فالوجه موضع الحواس والمعالم التي يتميز بها الإنسان.

٦-إثبات أن للإنسان حرمةً في بدنه، فلا يجوز الاعتداء عليه إلا بحق.

٧-إثبات صفة الصورة لله تعالى كما وردت في الحديث، مع الإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف؛ لأن الله سبحانه ليس كمثله شيء.

عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ(مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أُنَاسٍ وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ وَصُبَّ عَلَى رُءُوسِهِمُ الزَّيْتُ فَقَالَ مَا هَذَا قِيلَ يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ. فَقَالَ أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ الناس فِي الدُّنْيَا) .

=========

(**عَنْ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ**) رضي الله عنه .

(**قَالَ : مَرَّ بِالشَّامِ عَلَى أُنَاسٍ وَقَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ وَصُبَّ**) أي : أُريق .

(**عَلَى رُءُوسِهِمُ الزَّيْتُ**) دُهن الزيتون .

قال ابن عثيمين : لأن الزيت تشتد حرارته مع الشمس، وهذا عذاب عظيم مؤلم موجع.

(**فَقَالَ مَا هَذَا قِيلَ يُعَذَّبُونَ فِي الْخَرَاجِ**) أي: بسبب عدم دفعهم الخراج الذي جُعل على أرضهم.

(**إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ**) يوم القيامة .

(**الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ الناس فِي الدُّنْيَا**) ظلماً .

١-الحديث فيه الوعيد الشديد لمن يعذب الناس ظلماً وجوراً .

قال القرطبيّ -رَحِمَهُ اللهَ-: يعني: إذا عذبوهم ظالمين، إما في أصل التعذيب، فيعذبونهم في موضع لا يجوز فيه التعذيب، أو بزيادة على المشروع في التعذيب، إما في المقدار، وإما في الصفة، كما بيّناه في الحدود. انتهى

وقال النوويّ -رَحِمَهُ اللهُ-: هذا محمول على التعذيب بغير حقّ، فلا يدخل فيه التعذيب بحقّ، كالقصاص، والحَدود، والتعزير، ونحو ذلك .

٢-تحريم الظلم والقسوة .

٣-وجوب الرفق والعدل في معاملة المعاهدين وأهل الذمـــة وصيانة كرامتهم الإنسانية من الأذى الجســـدي والمهانة .

٤- فضل الصدع بالحق وتذكير الولاة والأمراء بسنة رسول الله ﷺ بالأسلوب الحسن، وسرعة رجوع الحاكم العادل إلى الحق عند سماع النصيحة والحديث النبوي ، فقد جاء في رواية (قَالَ وَأَمِيرُهُمْ يَوْمَئِذٍ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ عَلَى فِلَسْطِينَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَحَدَّثَهُ فَأَمَرَ بِهِمْ فَخُلُّوا) .

٥-ما لا يدخل في الوعيد: إقامة الحدود الشرعية بالصفة التي أذن بها الشارع (كالقصاص أو جلد الزاني أو قطع يد السارق)؛ لأن ذلك تطبيق لأمر الله وبحق شرعي، وكذلك حبس الممتنع عن الحق حتى يؤديه دون تعذيب بدني مفرط، فهذا مستثنى؛ لكونه عقوبة مشروعة لاستيفاء الحقوق وردع الجناة .

٦-يُحمل التعذيب في الحديث على عذاب يوم القيامة وعذاب البرزخ، تقريرًا لمبدأ (الجزاء من جنس العمل) فمن أذاق الناس حرّ العذاب وألم الهوان في الدنيا، أذاقه الله العذاب الأليم في الآخرة .

٧-استنبط العلماء أن كراهية التعذيب وتحريمه قاعدة عامة تشمل الحيوان أيضًا، فإذا كان تعذيب البهائم التي لا تعقل سببًا لدخول النار (كما في الحديث الصحيح عن المرأة التي عُذبت في هِرّة حبستها حتى ماتت) فإن تعذيب بني آدم -الذين كرّمهم الله- أعظم حرمة وأشد وزرًا .

٨-بيّن العلماء أن من استُؤمن على الناس ثم جار عليهم أو تعدى في عقوبتهم يكون من أشد الناس عذابًا يوم القيامة؛ لأن السلطة إنما شُرعت لإقامة العدل وحفظ الحقوق، لا للتسلط والتشفي .

٩-أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن عذّب عباد الله بغير حق توعّده الله بالعذاب.

١٠-بيان عِظم حرمة الظلم، وأن الله سبحانه لا يرضى بإيذاء الناس والاعتداء عليهم.

١١-الحث على الرحمة بالخلق؛ فالرحمة والإحسان من الأخلاق التي يحبها الله.

١٢-أن التعذيب المحرّم ليس خاصًّا بنوع معين، بل العبرة بتحقق الظلم والأذى والتعذيب بغير حق.

١٣-في الحديث زجرٌ لمن يتولى أمر الناس عن استعمال القوة والعقوبة بغير حق أو تجاوز الحدود المشروعة.

عن جَابِر قال (مَرَّ رَجُلٌ فِي الْمَسْجِدِ بِسِهَامٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمْسِكْ بِنِصَالِهَا) .

وفي رواية (كي لا يَخْدِشَ مسلماً) .

[خ : ٤٥١] .

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْءٍ » أَوْ قَالَ « لِيَقْبِضْ عَلَى نِصَالِهَا) .

[٧٠٧٥] .

==========

(**أَوْ أَسْوَاقِنَا**) هو تنويع من الشارع وليس شكاً من الراوي.

(**عَلَى نِصَالِهَا**) جمع نصل، وهو حديدة السهم.

(**أنْ يُصِيبَ أحَداً مِنَ المُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَيْء**) وفي رواية (لاَ يَعْقِرْ بِكَفِّهِ مُسْلِماً) والعقر الجرح.

١ – في هذه الأحاديث دليل على أنه ينبغي لمن مر بالمسجد أو في سوق أن يمسك بنصال سهمه.

٢-والحكمة من النهي:

في حديث الباب -حديث أبي موسى- (... أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ) .

وفي حديث الباب -حديث جابر- (كي لا يَخْدِشَ مسلماً) .

قال النووي: فِيهِ هَذَا الْأَدَب، وَهُوَ الْإِمْسَاك بِنِصَالِهَا عِنْد إِرَادَة الْمُرُور بَيْن النَّاس فِي مَسْجِد أَوْ سُوق أَوْ غَيْرهمَا. وَالنُّصُول وَالنِّصَال جَمْع نَصْل، وَهُوَ حَدِيدَة السَّهْم. وَفِيهِ اِجْتِنَاب كُلّ مَا يُخَاف مِنْهُ ضَرَر.

وقال المناوي: ومحل النهي عن ذلك إن كان النصل غير مغمود، ولا ينافي الحديث لعب الحبشة بالحراب في المسجد، لأن التحفظ في صورة اللعب بالحراب يسهل، بخلاف مجرد المرور فقد يقع بغتة فلا يتحفظ.

وقال ابن بطال: هذا من تأكيد حرمة المسلم لئلا يروع بها أو يؤذي، لأن المساجد موروده بالخلق، ولاسيما في أوقات الصلوات، فخشي عليه السلام أن يؤذى بها أحد، وهذا من كريم خلقه، ورأفته بالمؤمنين.

٢ – وفي الحديث الإشارة إلى تعظيم قليل الدم وكثيره.

٣ – وتأكيد حرمة المسلم.

٤ – جواز إدخال السلاح المسجد.

٥ – تحريم إيذاء المسلمين بأي نوع من الإيذاء.

عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ) .

عن أبي هُرَيْرَةَ . قال : قال ﷺ (لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ) .

[خ : ٧٠٧٢] .

==========

(**مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ**) يعني: بسلاح كسكِّين وخنجر وسيف ورمح، ونحو ذلك من كُلِّ آلة للجرح .

(**فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ**) أي : تدعو عليه بالبعد عن رحمة الله .

(**حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ**) أي: المشير أخًا للمشار إليه، ويصِحُّ عكسه.

(**يَنزِعُ**) ضُبط بالعين المهملة مع كسر الزَّاي، وبالغين المعجمة مع فتحها، ومعناهما متقارب، ومعناه بالمهملة: يرمي، وبالمعجمة أيضًا: يرمي ويفسد. وأصل النَّزع: الطَّعن والفساد .

١-في هذه الأحاديث تحريم ترويع المسلم .

ومن الأحاديث أيضاً :

عن جابر ﷺ قال (نهى رسولُ اللهِ ﷺ أنْ يُتَعَاطَى السَّيْفُ مَسْلُولاً) رواه أبو داود .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- قوله (فإن الملائكة تلعنه) ولعن النبي ﷺ للمشير بالسِّلاح: دليل على تحريم ذلك مطلقًا، جدًّا كان أو هزلًا، ولا يخفى وجه لعن من تعمَّد ذلك؛ لأنَّه يريد قتل المسلم أو جرحه، وكلاهما كبيرة. ... وأمَّا إن كان هازلًا فلأنه ترويع مسلم، ولا يَحِلُّ ترويعه؛ ولأنه ذريعة إلى القتل والجرح الْمُحرَّمَيْن، وقد نصَّ في الرِّواية الأخرى على صحَّة مراعاة الذَّريعة .

وقال العراقي -رحمه الله-: قوله (فإن الملائكة تلعنه) ولعن الملائكة لا يكون إلا بحقٍّ، ولا يستحِقُّ اللعن إلا فاعل المحرَّم، ولا فرق في ذلك بين أن يكون على سبيل الجدِّ أو الهزل، وقد دلَّ على ذلك قوله: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه» فإن الإنسان لا يشير إلى شقيقه بالسِّلاح على سبيل الجدِّ، وإنَّما يقع منه معه هزلًا، وبتقدير أن يكون ذلك على سبيل الجدِّ فتحريم ذلك أغلظ من تحريم غيره، فلا يصِحُّ جعله غاية، فدلَّ على أن المراد: الهزل، فإن تحريمه على طريق الجدِّ واضح؛ لأنه يريد قتل مسلم أو جرحه، وكلاهما كبيرة، وأمَّا الهزل فلأنه ترويع مسلم، وأذى له؛ وذلك محرَّم أيضًا، وقد جاء في الحديث: لا يَحِلُّ لمسلم أن يُروِّع مسلمًا .

وقال الصنعاني -رحمه الله- قوله (فإن الملائكة تلعنه) تدعو عليه بالبعد عن الرَّحمة والطَّرد...، والملائكة لا تلعن إلا من أَذِنَ الله لها بلعنه؛ فدعاؤها مجاب.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- قوله (وإن كان أخاه لأبيه وأُمِّه) يعني: أنَّ ذلك محرَّم، وإن وقع من أشفق الناس عليه، وأقربهم رحمًا، وهو يشعر بمنع الهزل بذلك .

٢-قوله (**حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ**) .

قال النووي -رحمه الله-:مبالغة في إيضاح عموم النَّهي في كُلِّ أحد، سواء من يُتَّهم فيه، ومَنْ لا يُتَّهم، وسواء كان هذا هزلًا ولعبًا أم لا؛ لأن ترويع المسلم حرام بكُلِّ حال، ولأنه قد يسبقه السِّلاح كما صرَّح به في الرِّواية الأخرى.

وقال عبد الحق الدهلوي -رحمه الله- قوله (وإن كان أخاه لأبيه وأُمِّه) تحقيق للهزل، وعدم القصد في الإشارة، ومع وجوده يتوجَّه اللعن، ففيه من المبالغة ما لا يخفى.

٣-**قال العراقي** -رحمه الله-:قوله (من أشار إلى أخيه بحديدة) ودخل في السِّلاح ما عظُم منه وصغر.

وهل تدخل العصا في ذلك؟ فيه احتمال؛ لأن التَّرويع حاصل، وكذلك احتمال سقوطها من يده عليه، وقد يقال: لا يراد بذلك إلا ما له نصل، بدليل قوله في الرِّواية الأخرى: بحديدة .

٤-**قال النووي** -رحمه الله- فيه تأكيد حرمة المسلم، والنَّهي الشديد عن ترويعه وتخويفه، والتَّعرُّض له بما قد يؤذيه .

وقال الصنعاني -رحمه الله- فيه عظمة شأن ترويع المسلم بأي شيء، ولو بالإشارة والتَّهديد، فكيف بما هو أعظم من ذلك؟

٥-أن لعن الملائكة يدل على أنه حرام .

٦-من تلعنهم الملائكة.

أولاً: المرأة إذا هجرت فراش زوجها لغير سبب.

عن أَبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امرَأَتَهُ إِلَى فرَاشِهِ فَلَمْ تَأْتِهِ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا المِلائِكَةُ حَتَّى تُصْبح) مُتَّفَقٌ عَلَيه.

ثانياً: من يسب الصحابة.

قال ﷺ (من سب أصحابي فعليه لعن الله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) رواه الطبراني.

ثالثاً: من أحدث في المدينة حدثاً.

قال ﷺ (المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) .

رابعاً: من ادعى إلى غير أبيه.

قال ﷺ (من ادعى إلى غير أبيه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) رواه مسلم.

خامساً: من أشار إلى مسلم بسلاح.

لحديث الباب (من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى وإن كان أخاه لأمه وأبيه) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ).

[خ : ٦٥٢] .

وفي لفظ (... فَقَالَ وَاللَّهِ لأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لاَ يُؤْذِيهِمْ. فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِى النَّاسَ) .

وفي لفظ (إِنَّ شَجَرَةً كَانَتْ تُؤْذِى الْمُسْلِمِينَ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَطَعَهَا فَدَخَلَ الْجَنَّةَ) .

وعن أبي بَرْزَةَ قَالَ (قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَنْتَفِعُ بِهِ قَالَ : اعْزِلِ الأَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ) .

==========

(**لاَ يُؤْذِيهِمْ**) أي : لكيلا يؤذيهم ببقائه .

(**فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ**) بسبب فعله ذلك .

(**عَلِّمْنِي شَيْئًا أَنْتَفِعُ بِه**) وفي الرواية الأخرى (قَالَ: قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَا أَدْرِي لَعَسَى أَنْ تَمْضِيَ، وَأَبْقَى بَعْدَكَ، فَزَوِّدْنِي شَيْئاً، يَنْفَعُنِي اللهُ بِه).

(**اعْزِلِ الأَذَى عَنْ طَرِيقِ الْمُسْلِمِينَ**) أي: أزِل عن طريق المسلمين ما يؤذيهم كشوك، وحجر.

١-هذه الأحاديث دليل على فضل إماطة الأذى عن الطريق .

قال النووي -رحمه الله-: هذه الأحاديث المذكورة في الباب ظاهرة في فضل إزالة الأذى عن الطريق، سواء كان الأذى شجرة تُؤذي، أو غصنَ شوك، أو حجرًا يُعْثَرُ به، أو قذرًا، أو جيفة، وغير ذلك، وإماطة الأذى عن الطريق من شُعَب الإيمان . (شرح مسلم)

وقال الصنعاني -رحمه الله-: إماطة الأذى عن الطريق وهو أقل درجات الأعمال، ومع ذلك فأعْظِم بها من صدقة، فقد غَفَرَ الله لمن جَزَّ غُصْنَ شَوْكٍ عن الطريق.

٢- وإماطة الأذى عن الطريق له فضائل كثيرة :

أولاً: أنه صدقة.

لحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ تَعْدِلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَبِكُلِّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) رواه البخاري مسلم.

ثانياً: من علامات الإيمان.

قال ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) رواه مسلم.

ثالثاً: أنه من أسباب دخول الجنة.

لحديث الباب قوله ﷺ (لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين) .

رابعاً: من أسباب المغفرة.

لحديث الباب قوله ﷺ (بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له، فغفر له)

خامساً: أنه من محاسن أعمال هذه الأمة.

لحديث أبي هريرة . قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِءِ أَعمَالِهَا النُّخَاعَةُ تَكُونُ فِي المِسْجِدِ لا تُدْفَنُ) رواه مسلم .

٣-الحديث دليل على أنه ينبغي للمسلم ألا يستحقر شيئاً من الأعمال الصالحة.

٤ - الحديث دليل على أهمية الإخلاص في العمل، وأن العمل يعظم ويكبر بالإخلاص والإيمان.

قال ابن المبارك: رب عمل صغير تكبره النية، ورب عمل كبير تصغره النية.

قال ابن تيمية: وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له).

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها.

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ، وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له، والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب ، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً. (منهاج السنة)

٥-قوله (**فأدخِل الجنة**) .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- (فأُدْخل الجنة) وكل ذلك إنما حصل لذلك الرَّجُل بحسن نيَّته في تنْحِيَتِه الأذى، ألا ترى قوله: والله لأُنَحِّيَنَّ هذا عن المسلمين؛ لا يُؤذِيهِم .

وقال الحكيم الترمذي -رحمه الله- ليس بِرفْع الغصن نَالَ المغفرة فيما نعْلَمُه، ولكن بتلك الرَّحمة التي عَمَّ بها المسلمين، فشَكَر الله له عَطْفَه، ورَأْفَتَه بهم .

٦-**قال القاضي عياض** : فكل ما أَدْخَل نفْعًا على المسلمين، أو أزالَ عنهم ضررًا، فهو منه؛ لكونه كله من النصيحة الواجبة على المسلمين بعضهم لبعض، التي بايع عليها النبي ﷺ أصحابه من النصح لكل مسلم، بنُصْحِه في حضْرَته وغَيْبَتِه بكل قول وفعل يعود عليه بمنفعة لدِينه ودنياه.

٧-**قال العيني** -رحمه الله-: فإذا كان الله -عز وجل- يشْكُر عَبدَه ويغْفُر له على إِزَالَة غُصْن شوك من الطَّرِيق، فلا يدْرِي ما له من الفضل والثَّوَاب إذا فعَل ما فوق ذلك .

٨-**قال ابن بطال** -رحمه الله-: قال الْمُهَلَّبُ: إماطة الأذى، وكل ما يؤذي الناس في الطُّرُق مأجور عليه، وفيه: أنَّ قليل الأجر قد يَغْفِر الله به كثير الذنوب.

وفيه دليل أنَّ طَرْح الشوك في الطريق والحجارة والكُنَاسَة والمياه المفسِدة للطُّرق، وكل ما يؤذي الناس تُخشى العقوبة عليه في الدنيا والآخرة

٩-**قال الشيخ فيصل ابن المبارك** -رحمه الله-: في هذا الحديث: فضيلة كل ما نفَع المسلمين وأزال عنهم ضررًا، وأنَّ ذلك سببٌ للمغفرة، ودخول الجنة .

١٠ - الحديث دليل على أن الجنة موجودة الآن، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، فقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، والأدلة على ذلك كثيرة جداً.

قال تعالى في الجنة (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى في النار (أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) ومعنى أعدت: هيئت.

وعن أنس. قال: قال رسول الله ﷺ (وأيم الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً؟ قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنة والنار) متفق عليه.

ومنها حديث الكسوف وفيه (... إني رأيت الجنة فتناولت عنقوداً لو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع ...) متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمر. أن رسول الله ﷺ قال (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) متفق عليه.

وعن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها، ... فلما خلق الله النار قال: يا جبريل اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها ... الحديث) رواه أبو داود.

وفي حديث البراء الطويل في عذاب القبر وفيه (... أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من طيبها ويفسح له في قبره مد بصره). رواه أبو داود

وعن أسامة. قال: قال رسول الله ﷺ (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء) متفق عليه.

١١ – الحث على فعل الخير مهما صغر ونفع المسلمين بأنواع المنافع.

١٢ – فضل العمل الصالح المتعدي.

١٣–**قال الصنعاني** : فيه الحث على نفع المسلمين، والرحمة لهم، والسعي في دفع المضرَّة عنهم، وأنه مِن أعظم ما يُريد الله لعباده، فيا خيبة مَن جَلَبَ عليهم كل بلاء، وأنزل بهم كل مشقة، وحمَّلَهم كل كلفة.

عَنْ ابن عمر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لاَ هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ هِيَ حَبَسَتْهَا وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ).

[خ : ٣٤٨٢] .

==========

(**عُذِّبَتْ اِمْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ**) أي: بسبب هرة، وذكر الحافظ ابن حجر في (الفتح) أنه لم يقف على اسمها ووقع في رواية أنها حميرية، وفي أخرى أنها من بني إسرائيل قال: ولا تضاد بينهما، لأن طائفة من حمير كانوا قد دخلوا في اليهودية فنسبت إلى دينها تارة، وإلى قبيلتها أخرى.

وجاء في البخاري من حديث ابن أبي مُليكة، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أنّ النبي (صلى صلاة الكسوف، فقال: دَنت مني النار حتى قلت، أي ربّ، وأنا معهم، فإذا امرأة حسبت أنه قال: تخدشها هرة. قال: ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعاً).

وفي رواية ابن حبان من حديث عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو (وعُرضت عليّ النار فلولا أني دفعتها عنكم لغشيتكم، ورأيت فيها ثلاثة يعذبون: امرأة حِميرية سوداء طويلة تعذب في هرة لها أوثقتها، فلم تدعها تأكل من خشاش الأرض، ولم تطعمها حتى ماتت، فهي إذا أقبلت تنهشها وإذا أدبرت تنهشها).

(**خَشَاشِ اَلْأَرْضِ**) المراد به هوام الأرض وحشراتها كالفأرة ونحوها.

– هل هذه المرأة مسلمة أو كافرة؟

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: ظاهر الحديث أنها كانت مسلمة، وإنما دخلت النار بسبب الهرة. وذكر القاضي: أنه يجوز أنها كافرة عذبت بكفرها، وزيد في عذابها بسبب الهرة، واستحقت ذلك لكونها ليست مؤمنة تغفر صغائرها باجتناب الكبائر. قال النووي: هذا كلام القاضي. وصوب ما قدم من أنها مسلمة وتعقب كلام القاضي بقوله: وهذه المعصية ليست صغيرة بل صارت بإصرارها كبيرة، وليس في الحديث أنها تخلد في النار. انتهى.

قال الحافظ في (الفتح): ويؤيد كونها كافرة ما أخرجه البيهقي في (البعث والنشور) وأبو نعيم في (تاريخ أصبهان) من حديث عائشة، وفيه قصة لها مع أبي هريرة، وهو بتمامه عند أحمد. انتهى

١-الحديث دليل على تحريم تعذيب الحيوان ومنعه من الأكل حتى يموت جوعاً .

قال القرطبي رحمه الله تعالى: قوله (عذبت امرأة في هرة) هذا نص في أن هذه المرأة إنما عذبت في النار بسبب قتل هذه الهرة بالحبس، وترك الطعام. وهذه المرأة التي تقدم : أن النبي ﷺ رآها في النار، وهي امرأة طويلة من بني إسرائيل ، وهل كانت كافرة ، أو لا ؟ كل ذلك محتمل، فإن كانت كافرة؛ ففيه دليل: على أن الكفار مخاطبون بالفروع ، ومعاقبون على تركها. ... وإن لم تكن كافرة فقد تمحض أن سبب تعذيبها في النار حبس الهرة إلى أن ماتت جوعاً . (المفهم)

٢-فإن قيل : كيف يُعذب مسلم بسبب هرة ؟

قال بعض العلماء : إن هذه المرأة كانت كافرة .

فقد روى الإمام أحمد عَنْ عَلْقَمَةَ، قَالَ (كُنَّا عِنْدَ عَائِشَةَ فَدَخَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَتْ: أَنْتَ الَّذِي تُحَدِّثُ أَنَّ امْرَأَةً عُذِّبَتْ فِي هِرَّةٍ لَهَا رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَسْقِهَا؟ فَقَالَ: سَمِعْتُهُ مِنْهُ ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَتْ: هَلْ تَدْرِي مَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ؟ إِنَّ الْمَرْأَةَ مَعَ مَا فَعَلَتْ، كَانَتْ كَافِرَةً، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ فِي هِرَّةٍ، فَإِذَا حَدَّثْتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَانْظُرْ كَيْفَ تُحَدِّثُ).

لكن عائشة رضي الله عنها؛ لم تنص على أن استدراكها على أبي هريرة هو أمر سمعته من النبي ﷺ، بل الظاهر أن قولها رضي الله عنها: "الْمُؤْمِنَ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ فِي هِرَّةٍ" هو فهم منها واجتهاد.

قال الصنعاني رحمه الله تعالى: وظاهره أنه ليس خبرها مرفوعاً، بل قالته اجتهاداً .

وعند النظر في نزاعها مع أبي هريرة رضي الله عنهما، نجد أن أبا هريرة رضي الله عنه قد وافقه جمع من الصحابة على هذه الرواية بهذا السياق، كما سبق بيانه (منهم عبد الله بن عمر، وأسماء بنت أبي بكر، وجابر بن عبد الله ﷺ) وأن المرأة عذبت في النار بسبب تعذيبها للقطة ... فلم ينفرد أبو هريرة ﷺ بهذا الحديث.

ثم على فرض أنه انفرد فلا يضره ذلك، ولا يطعن في الحديث، لأنه إنما يحدث عن النبي ﷺ، ولا يقول برأيه، أما عائشة رضي الله عنها، فالظاهر أنها لا تحدث عن النبي ﷺ، وإنما تقول باجتهادها، ومعلوم أنه لا يقدم اجتهاد أحد كائنا من كان على قول الرسول ﷺ.

والحاصل: أنه هذا الوعيد في حق من عذب الهرة، أو حبسها ثابت عن النبي ﷺ .

وسواء كانت المرأة كافرة أو مسلمة، فالحديث قد علق عذابها في النار، على ما فعلت بالهرة، ولو كان تعذيبها لأجل الكفر، لم يكن لذكر الهرة هنا معنى، ولكان لغوا، يصان عنه كلام النبي ﷺ . لكنها إن كانت كافرة، فهي مخلدة في النار لأجل كفرها، ويزاد في عذابها في النار ما يزاد فيه لأجل ما فعلت بالهرة، فليس الكفار في النار بمنزلة سواء في عذابها، وقد قال الله عزوجل: (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) ... وإن كانت مسلمة، فإنها تعذب على ذلك عذاب أهل الكبائر.

قال النووي رحمه الله تعالى: قال القاضي: في هذا الحديث المؤاخذة بالصغائر، قال: وليس فيه أنها عذبت عليها بالنار، قال: ويحتمل أنها كانت كافرة فزيد في عذابها بذلك ... هذا كلامه، وليس بصواب، بل الصواب المصرح به في الحديث أنها عذبت بسبب الهرة، وهو كبيرة لأنها ربطتها، وأصرت على ذلك حتى ماتت، والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة كما هو مقرر في كتب الفقه وغيرها . (شرح مسلم)

٣-تحريم حبس الحيوان وإجاعته.

٤-الإنسان إذا أهمل ما تحت يده من غير البشر، وعُذِّب بذلك فتعذيبه من أجل البشر من باب أولى.

٥-إثبات العذاب في النار، وأن الله -عز وجل- أطلع عليه نبيه ﷺ .

٦-الحديث دليل على وجوب إنفاق الإنسان على الحيوان من ماء وعلف ودواء وما يحتاج إليه .

٧-هذا الحديث أصل في احترام الإنسان والمحافظة على حياته، وفيه وعيد شديد من الله عزّ وجلّ لمن آذى عباده؛ لأن الإنسان أكرم عند الله من الحيوان.

٨-التحذير من أسباب دخول النار.

٩-جواز اتخاذ الهرة في البيت.

١٠- تحريم تعذيب الهرة وغيرها من الحيوان الذي لا يؤذي

١١-أن تعذيب الإنسان بغير حق يحرم من باب أولى.

١٢-أنه لا مانع من حبس الهرة في البيت بشرط سقيها وإطعامها.

١٣-أن الجزاء من جنس العمل فكما عذبت المرأة الهرة بحبسها وإهمالها عذبت بدخولها النار.

١٤-أنه لا يجب إطعام الهر إلا عند حبسه.

١٥-تفخيم شأن الذنب ولو كان صغيراً، وأن الإصرار على الصغائر يلحقها بالكبائر.

١٦-الإيمان بالغيب.

١٧-إثبات وصول عذاب النار إلى مستحقه قبل يوم القيامة.

١٨-التنبيه على العناية بالسجناء والإحسان إليهم.

١٩-أن النار موجودة الآن.

٢٠-وجوب سقي وإطعام السجين على من سجنه.

٢١-أن الإنسان إذا لم يحصل منه الإحسان فلا أقل من الابتعاد عن الإساءة.

٢٢-بيان فضل الإسلام ورحمته وشفقته بالمخلوقات حتى الحيوانات التي لا تُؤكل ولا تُستخدَم إذا حُبست فإنه يجب على من حبسها أن يقوم بكفايتها .

٢٣-**قال أبو العباس القرطبي** -رحمه الله-: فيه ما يدل على أن الواجب على مالك الهرّ أحد الأمرين: إمّا أن يطعمه، أو يتركه يأكل ممّا يجده من الخَشاش. .

٢٤-**قال النووي** -رحمه الله-: في الحديث دليل لتحريم قتل الهرَّة، وتحريم حبسها بغير طعام أو شراب ... وفيه: وجوب نفقة الحيوان على مالكه، والله أعلم.

٢٥-**قال الأصبهاني** -رحمه الله-: في الحديث دلالة أنه لا ينبغي للمرء أن يحتقر شيئًا من ذنوبه، وإن كان عنده أنه صغير؛ فإن الله قد يأخذ بالصغير، ويعفو عن الكبير، وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صِغَر الخطيئة، ولكن انظر مَن عصيت .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالاَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْـعِـزُّ إِزَارُهُ وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُــهُ) .

==========

١-من صفات الله تعالى: العز والعظمة والكبرياء.

وأما الإزار والرداء : فليسا صفتين، وإنما المراد بذلك : أن الله جل جلاله متصف بالعظمة والكبرياء ، لا ينازعه أحد منهما، كما أن الإزار والرداء يختصان بلابسهما، لا ينازعه فيهما أحد.

وأيضا فالكبرياء حجاب يمنع من رؤية الله تعالى، كما أن الرداء يمنع من رؤية ما سُتر به.

قال الخطابي رحمه الله: معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه، اختص بهما، لا يشركه أحد فيهما، ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما، لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل .

وضرب الرداء والإزار مثلاً في ذلك؛ يقول -والله أعلم-: كما لا يشرك الإنسانَ في ردائه وإزاره أحدٌ؛ فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق . (معالم السنن)

وقال الغزالي : العظمة والكبرياء من الصفات التي تختص بي ولا تنبغي لأحد غيري، كما أن رداء الإنسان وإزاره يختص به لا يشارك فيه، وفيه تحذير شديد من الكبر ومن آفاته حرمان الحق، وعمى القلب عن معرفة آيات الله وفهم أحكامه، والمقت والبغض من الله، وأن خصلة تثمر لك المقت من الله والخزي في الدنيا والنار في الآخرة وتقدح في الدين لحري أن تتباعد عنها.

٢-التحذير الشديد من الكِبر؛ فقد توعد الله من ينازعه في الكبرياء والعظمة بالعذاب.

والتكبر: هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير. (الغزالي)

وقال بعضهم: الكبر: هو استعظام الإنسان نفسه واستحسان ما فيه من الفضائل والاستهانة بالناس واستصغارهم والترفع على من يجب التواضع له.

٣-**أقسام الكبر:**

الكِبْر قسمان: كِبْر هو كُفر، وآخَر هو معصية، فالكُفر هو ما كان المتكبَّرُ عليه هو الله ورسوله، أو كتابه، أما المعصية فما دون ذلك .

قال القرطبي : لَمَّا تقرَّر أنَّ الكِبر يستدعي متكبَّرًا عليه، فالمتكبَّر عليه إن كان هو اللهَ تعالى، أو رسولَه، أو الحقَّ الذي جاءتْ به رسلُه، فذلك الكِبر كفْرٌ، وإن كان غير ذلك، فذلك الكِبْر معصية وكبيرة .

٤-خطر الكبر :

هُوَ مِنْ أَوَّلِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي الَّتِي ارْتُكِبَتْ فِي حَقِّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُبَيِّنًا سَبَبَ امْتِناعِ إبْلِيسَ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) .

ولسوء منقلب المتكبر استعاذ منه موسى ﷺ.

قال الله تعالى (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَاب) .

وهو مانع من الهدى والفهم .

قال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) .

وسبب لختم القلوب على الضلال .

قال تعالى (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) .

وهو سَبَبٌ لدُخولِ النَّار .

قال اللهُ تبارك وتعالى (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ) .

وهو من صفات أهل النار.

قال ﷺ (ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر) رواه مسلم.

وقال ﷺ (احتجت الجنة والنار، فقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون) رواه مسلم.

المتكبر يكون عن رسولِ الله من المُبعَدين يومَ القيامة .

قال رسولُ الله ﷺ (إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنَكم أخلاقًا، وإنَّ مِن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يومَ القيامة الثرثارون والمتشدِّقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسولَ الله، قد علمنا الثرثارين والمتشدّقين، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبِّرون). رواه الترمذي

صاحبه لا يدخل الجنة.

قال ﷺ (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).

عقوبتهم يطأهم الناس يوم القيامة.

قال ﷺ (المتكبرون يحشرون يوم القيامة أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم) رواه مسلم.

لا يحب الله المستكبر.

قال تعالى (إنه لا يحب المستكبرين).

لا ينظر الله للمتكبر في إزاره.

قال ﷺ (لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً) متفق عليه.

٥-من أقوال السلف:

قال مسروق: كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله.

وقال بعضهم: إذا رأيت الرجل لجوجاً مماريا معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

وعن محمد بن علي قال: ما دخل قلب امرئٍ من الكبر شيء إلا نقص من عقله مقدار ذلك.

قال مطرف بن عبد الله: لأن أبيت نائماً وأصبح نائماً أحب إليّ من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً.

قال الذهبي: لا أفلح والله من زكى نفسه أو أعجبته.

قال أبو سليمان الداراني: من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة.

قال أبو بكر: لا يحقرن أحدٌ أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من ذلة يجدها في نفسه.

وقال مالك بن دينار: كيف يتكبر من أوله نطفة مذِرَة، وآخره جيفة قَذِرَة، وهو فيما بين ذلك حامل عَذِرة.

وقال حاتم الأصم: أصل المصيبة ثلاثة أشياء: الكبر، والحرص، والحسد.

يا ابنَ الترابِ ومأكولَ الترابِ غداً ... أقصِرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

وقال عمر بن عبد العزيز: إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة.

قال الغزالي: فالكبر آفة عظيمة هائلة، وفيه يهلك الخواص من الخلق، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء، فضلاً عن عوام الخلق، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر يغلق تلك الأبواب كلها، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، وفيه شيء من الكبر، فما من خُلُقٍ ذميم إلا وصاحب الكبر مضطر إليه ليحفظ كبره، وما من خُلُقٍ محمودٍ إلَّا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه، والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعض منها داع إلى البعض، وشر أنواع الكبر ما يمنع من الاستفادة من العلم، وقبول الحق، والانقياد له.

وفي (مختصر منهاج القاصدين) قال سفيان بن عُيَيْنة: مَن كانت معصيتُه في شهوة، فأرجو له التوبة، فإنَّ آدم عليه السلام عصَى مشتهيًا فغُفِر له، فإذا كانتْ معصيتُه من كِبْر، فأخْشَى عليه اللَّعْنة، فإنَّ إبليس عصَى مستكبرًا فلُعِن .

وقال بعضُ الحُكماء: مَن برِئ من ثلاث، نال ثلاثًا: مَن برِئ من السَّرَف نال العِز، ومَن برِئ من البُخل نال الشَّرف، ومَن بَرِئ من الكِبْر نال الكرامة.

٦- درجات التكبر:

الأول: التكبر على الله.

وهو أفحش أنواع الكبر، مثل فرعون حين استكبر وقال: أنا ربكم الأعلى ولذلك قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين).

ثانياً: التكبر على الرسل.

كما فعلت الأقوام المكذبة مع رسلها، فترفعت عن الانقياد لهم كما حكى الله عنهم (أنؤمن لبشرين مثلنا) وقال تعالى عنهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا).

وهذا الكبر قريب من الأول، وإن كان دونه.

الثالث: التكبر على العباد.

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره.

وهذا دون الأول والثاني بكثير، لكنه عظيم لأمرين:

أ- أن الكبر والعز والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر، فأما العبد الضعيف المملوك العاجز لا يليق به إلا الذل لله والانكسار.

ب- أنه يدعو إلى مخالفة الله في أوامره، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عباد الله استنكف عن قبوله.

٧-إثبات العزة والكبرياء لله تعالى، وأنهما من صفاته العظيمة التي تليق بجلاله وكماله.

٨-تحريم الكِبر والتعاظم على الناس؛ لأن الكبرياء لله وحده، وليس للعبد أن يتكبر على عباد الله.

٩-بيان عظمة الله سبحانه وتعالى، وأنه المتفرد بالعظمة والجلال والكمال.

١٠-أن العبد ضعيف ومملوك لله، فلا يليق به أن يتعالى أو يرى نفسه فوق غيره.

١١-وجوب تعظيم الله سبحانه، فمعرفة عظمته تورث القلب إجلالًا وخشيةً ومحبةً.

١٢-أن صفات الكمال المطلق لله وحده، فالعبد مهما بلغ من القوة والعلم والجاه ففضله محدود، أما كمال الله فلا حد له.

١٣-أن الكِبر ينافي كمال العبودية؛ لأن حقيقة العبودية أن يستشعر الإنسان افتقاره إلى ربه وحاجته إليه.

عَنْ جُنْدَبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ (أَنَّ رَجُلاً قَالَ وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلاَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لاَ أَغْفِرَ لِفُلاَنٍ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ ». أَوْ كَمَا قَالَ) .

==========

(**عَنْ جُنْدَبٍ**) بن عبد الله

(**أَنَّ رَجُلاً قَالَ وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلاَنٍ**) أي: حلف أن الله لا يغفر لفلان من الناس عيّنه هو.

جاء في رواية أبي هريرة أن القائل رجل عابد ، والباعث على هذا القول شيئان :

الأول : من جهة ما في نفسه من الكبر والتعظم بكون رجلاً عابداً ،

الثاني : من جهة احتقار الشخص بأنه مذنب عاصٍ .

(**وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ**) رداً عليه .

(**مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ**) أي : يحلف عليّ .

(**فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ**) ترغيماً لأنفك .

(**وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**) أي : أبطلت ثوابه .

١-الحديث دليل على تحريم الإقسام على الله، لأن ذلك هضم لحقوق الربوبية والإلهية، ومنافٍ للتوحيد، ففيه التحذير من التألي على الله .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله-: وقول المتألي (والله لا يغفر الله لفلان) ظاهر في أنه قطَعَ بأن الله تعالى لا يغفر لذلك الرجل، وكأنه حكم على الله، وحجر عليه، وهذه نتيجة الجهل بأحكام الإلهية، والإدلال على الله تعالى بما اعتقد أن له عنده من الكرامة والحظ والمكانة، وكذلك المذنب مِن الخسة والإهانة؛ فإن كان هذا المتألي مستحلًّا لهذه الأمور، فهو كافر، فيكون إحباط عمله لأجل الكفر، كما يحبط عمل الكفار، وأما إن لم يكن مستحلًّا لذلك، وإنما غلب عليه الخوف فحكم بإنفاذ الوعيد، فليس بكافر، ولكنه مرتكب كبيرة، فإنه قانط من رحمة الله، فيكون إحباط عمله بمعنى أن ما أوجبت له هذه الكبيرة من الإثم يُرْبِي على أجر أعماله الصالحة، فكأنه لم يبق له عمل صالح.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان) وكان هذا الرجل عابدًا معجبًا بعمله محتقِرًا لأخيه، الذي رآه مفرطًا، فأقسم أن الله لا يغفر له. .

وقال صفي الرحمن المباركفوري -رحمه الله-: قوله (والله لا يغفر الله لفلان) قال ذلك نظرًا لسوء أعماله، واستبعادًا منه أن يغفره الله على ذلك.

٢-**قال القرطبي** : فيه تحريم الإدلال على الله تعالى، ووجوب التأدب معه في الأقوال والأحوال، وأن حق العبد أن يعامل نفسه بأحكام العبودية، ومولاه بما يجب له من أحكام الإلهية والربوبية.

٣-قوله (**مَنْ ذَا الَّذِى يَتَأَلَّى عَلَيَّ**) .

قال عبد الحق الدهلوي -رحمه الله-: وفي هذه العبارة تخويف وتهديد شديد، وفي صورة الغَيْبة دون أن يقول: أنت الذي تتألى، دلالة على التهديد لكل مَن يتألى من غير خصوصية بالمخاطب.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- إنَّ مَن تأَلَّى على الله -عزَّ وجلَّ- فقد أساء الأدب معه، وتحجَّر فضله، وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد، فالتألِّي على من هو عظيم يعتبر تنقصًا في حقه

٤-**قال ابن الجوزي** -رحمه الله- وهذا المتألي جَهِلَ سعة الكرم، فعُوقب بإحباط العمل.

٥-**قال الشيخ ابن عثيمين** -رحمه الله-: وهذا يدل على أنَّ المسرف عنده حُسن ظن بالله ورجاء له، ولعله كان يفعل الذنب ويتوب فيما بينه وبين ربه...، وهذا الرجل الذي قد غفر الله له: إما أن يكون قد وُجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أنَّ ذنبه هذا كان دون الشرك فتفضَّل الله عليه فغفر له، أما لو كان شركًا ومات بدون توبة، فإنه لا يغفر له؛ لأن الله يقول (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) .

٦-**قال أبو العباس القرطبي** -رحمه الله- قوله (فإني قد غفرتُ لفلان، وأحبطتُ عملك) دليل على صحة مذهب أهل السنة: أنه لا يكفر أحد من أهل القِبلة بذنب (دون شرك) وهو موجب قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وأن لله تعالى أن يفعل في عبيده ما يريد من المغفرة والإحباط؛ إذ هو الفعال لما يريد، القادر على ما يشاء.

٧-اختلف في المراد بقوله (**وأحبطت عملك**) .

قال النووي -رحمه الله-: فيه دلالة لمذهب أهل السنة في غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء الله غفرانها، واحتجت المعتزلة به في إحباط الأعمال بالمعاصي الكبائر، ومذهب أهل السنة أنها لا تحبط إلا بالكفر، ويُتأول حبوط عمل هذا على أنه أسقطت حسناته في مقابلة سيئاته، وسمي

إحباطًا مجازًا، ويحتمل أنه جرى منه أمر آخر أوجب الكفر، ويحتمل أن هذا كان في شرع مَن قبلنا، وكان هذا حكمهم .

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- قوله (وأحبطتُ عملك) ظاهر الإضافة في الحديث : أنَّ الله أحبط عمله كله؛ لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عامًّا، ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم -حسب فهمنا والعلم عند الله-: أنَّ هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله، كأنه يمنُّ على الله بعمله، وحينئذٍ يفتقد ركنًا عظيمًا من أركان العبادة؛ لأن العبادة مبنية على الذُّل والخضوع...حتى تحقق العبودية.

ويحتمل معنى (أحبطتُ عملك) أي: عملك الذي كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون؛ لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبي هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أنَّ الله تعالى قال: اذهبوا به إلى النار.

٨-**قال المظهري** -رحمه الله-: وهذا الحديث يحكم بأنه لا يجوز الحُكم بأن الله تعالى لا يغفر لفلان أو يعذب فلانًا، وكذلك لا يجوز أن يقال: يغفر الله لفلان جزمًا؛ لأن أحدًا لا يعلم مشيئة الله وإرادته في عباده، بل نرجو للمطيع، ونخاف على العاصي، وإنما نجزم القول في حق مَن جاء فيه نص عن رسول الله ﷺ .

٩-وفي الحديث: تحذير من احتقار أحد من المسلمين، وإن كان من الرعاع؛ فإن الله تعالى أخفى سره في عباده .

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- فانظر إلى هذا الرجل؛ تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، هلك كلّ عمله وسعيه؛ لأنه حمله إعجابه بنفسه واحتقاره لأخيه، واستبعاده رحمة الله على أن يقول هذه المقالة، فحصل بذلك أن أوبقت هذه الكلمة دُنياه وآخرته.

١٠- وجوب التأدب مع الله في الأقوال والأحوال .

١١- بيان سعة فضل الله ورحمته .

١٢- الأعمال بالخواتيم .

١٣- قد يغفر للشخص بسبب غيره .

١٤- تحريم تحجر فضل الله ورحمته .

١٥-تحريم الإقناط من رحمة الله .

١٦-خطر الإعجاب بنفسه ، وفي الحديث (ثلاث مهلكات : ... وإعجاب المرء برأيه) .

١٧-كون النار أقرب إلى أحدنا من شِرَاكِ نعله.

١٨-التحذير من الحكم بشقاوة الغير جزمًا، ومن النظر إلى الغير حقارة .

١٩- قد يحبط العمل من أجل كلمة .

٢٠- بيان خطر اللسان .

كما في حديث معاذ قال : (قلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على وجوههم ـ أو قال على مناخرهم ـ في النار إلا حصائد ألسنتهم) رواه الترمذي .

وعن سهل قال: قال رسول الله ﷺ (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة).

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ، يزل بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب). رواه البخاري ومسلم

وقال النبي ﷺ (إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم).

قال ابن القيم -رحمه الله- قال: وأما اللفظات فحفظها بألا يخرج لفظة ضائعة، بألا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دِينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر؛ هل ربح فائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر؛ هل تفوت بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه؟ "إلى أن قال: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر إلى المحرم وغير ذلك.

ويصعب التحرز من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدِّين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقي لها بالًا، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد ما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري أعراض الأحياء والأموات

ولا يبالي ما يقول؛ وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان! فقال الله (من ذا الذي يتألى علي أني لا أغفر لفلان؟ قد غفرتُ له وأحبطتُ عملكَ).

فهذا العابد الذي عبد الله ما شاء أن يعبده، أحبطت هذه الكلمة عمله كله، ثم قال أبو هريرة – صاحب الرواية الأخرى من الحديث–: "تكلم بكلمة أوبقتْ دنياه وآخرته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ).

==========

(**رُبَّ أشْعَثَ**) الْأَشْعَث: الْمُلَبَّد الشَّعْر الْمُغَبَّر غَيْر مَدْهُون وَلَا مُرَجَّل.

(**أغبرَ**) أي: لونه كلون الغبار لقلّة تعاهده بالنظافة بسبب فقره وحاجته.

(**مَدْفُوعٍ بِالأبْوابِ**) أَيْ: لَا قَدْر لَهُ عِنْد النَّاس فَهُمْ يَدْفَعُونَهُ عَنْ أَبْوَابهمْ، وَيَطْرُدُونَهُ عَنْهُمْ اِحْتِقَارًا لَهُ.

قال القرطبي: والمدفوع بالأبواب، أي: عن الأبواب، فلا يترك بقربها احتقاراً له، ويصح أن يكون معناه: يدفع بسد الأبواب في وجهه كلما أراد دخول باب من الأبواب، أو قضاء حاجة من الحوائج.

(**لَوْ أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ**) أَيْ: حَلِف عَلَى وُقُوع شَيْء أَوْقَعَهُ اللَّه إِكْرَامًا لَهُ بِإِجَابَةِ سُؤَاله، وَصِيَانَته مِنْ الْحِنْث فِي يَمِينه، وَهَذَا لِعِظَمِ مَنْزِلَته عِنْد اللَّه تَعَالَى، وَإِنْ كَانَ حَقِيرًا عِنْد النَّاس. وَقِيلَ: مَعْنَى الْقَسَم هُنَا الدُّعَاء، وَإِبْرَاره إِجَابَته.

قال القرطبي: أي لو وقع منه قسم على الله في شيء لأجابه الله تعالى فيما سأله؛ إكراماً له، ولطفاً به، وهذا كما تقدَّم من قول أنس بن النضر: لا والله لا تكسر ثنية الربيع أبداً. فأبر الله قسمه؛ بأن جعل في قلوب الطالبين للقصاص الرضا بالدية، بعد أن أبوا قبولها، وكنحو ما اتفق للبراء لما التقى بالكفار فاقتتلوا، فطال القتال، وعظم النزال، فقال البراء: أقسمت عليك يا رب

– أو: عزمت عليك – لتمنحنا أكتافهم، ولتلحقني بنبيك، فأبر الله قسمه، فكان كذلك. ولقد أبعد من قال: إن القسم –هنا – هو الدعاء من جهة اللفظ والمعنى. (المفهم)

١ –الحديث دليل على أن الإنسان قد يكون محتقراً عند الناس لكنه عظيماً عند الله لدينه وتقواه ، هذا لعظيم منزلته عند الله تعالى، وإن كان حقيرًا عند الناس .

قال القاضي عياض –رحمه الله–: وقوله (لو أقْسَم على الله لأبَرَّه) أي: لفَضْلِه، ومنْزِلتِه عند الله أنه يُجيبُ رغبتَه ودعاءَه، ولا يخيِّب أَمَلَه وبره لرجائه وعزيمته في رغبته لربه، والقَسَم هنا عبارة عن قوة العزيمة في الرغبة والدعاء، أو يكون عن وجهه فيما أقسم عليه من الأمور؛ أن الله قد أجرى قَدَرَه وتقدم في سابق علمه أنه ممن لا يُخالِف مجاري القَدَرِ قسَمَه، ويبرّ حَلِفَهُ، ويمضي عزيمته. وقيل: معنى القسم هنا: الدعاء، وأبَرَّه: أجابه.

وقال النووي –رحمه الله– (لو أقسَم على الله لأبرَّه) أي: لو حلف على وقوع شيء أوْقَعَه الله؛ إكرامًا له بإجابة سؤاله، وصيانته من الحنث في يمينه؛ وهذا لعظم منزلته عند الله تعالى، وإن كان حقيرًا عند الناس. .

وقال المناوي –رحمه الله–: إنما قال المصطفى ﷺ ذلك ليُبَصِّرَكَ مراتبَ الشُّعثِ الغُبْرِ الأصفياء الأتقياء، ويرَغِّبَكَ في طلب ما طلبوا، ويُنَشِّطَكَ تقديم ما قدَّموا، ويُثَبِّطَكَ عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب، ويُعَلِّمَكَ أن الزينة إنما هي بلباس التقوى .

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–: فبأي شيء يحصل هذا؟ ... فما هو الميزان؟ الميزان تقوى الله –عز وجل–، كما قال الله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) فمن كان أتقى لله فهو أكرم عند الله، يُيَسِّرُ الله له الأمر، يجيب دعاءه، ويكشف ضُرَّه، ويبرُّ قَسَمَه.

وهذا الذي أقسَمَ على الله لن يُقْسِم بظلم لأحد، ولن يجترئ على الله في مُلْكه، ولكنه يقسم على الله فيما يرضي الله؛ ثقة بالله –عز وجل–، أو في أمور مباحة؛ ثقة بالله –عز وجل–.

٢–الحديث دليل على أن الله لا ينظر إلى صورة العبد ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال.

قال صفي الرحمن المباركفوري –رحمه الله–: فالله لا ينظر إلى الأموال والصور، وإنما ينظر إلى ما في قلب العبد من التقوى وما في عمله من الصلاح.

٣ – الحث على عدم الاستهانة بالضعفاء والخاملين من أجل مظاهرهم في الدنيا فقد يكونون عظماء المنزلة عند الله تعالى.

٤–الحديث دليل على عدم الاغترار بالمظاهر.

ومما يؤكد هذا:

قوله ﷺ (إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ).

وقوله ﷺ (إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُم).

٥ – على الإنسان أن يعتني بعمله وطهارة قلبه أكثر من عنايته بجسمه وملبسه.

٦ – ميزان الرجال بالأعمال لا بالمظاهر والأنساب والأموال.

٧ – التواضع لله والتذلل له سبب في إجابة الدعاء، ولذلك؛ فالله –سبحانه– يبر قسم الأتقياء الأخفياء.

٨–بيان أنَّ المظاهر ليست مِعْيارُ معرفةِ أولياءِ الله تعالى، كما هو المعروف لدى عامة الناس، بل الكثير خلاف ذلك، فكثيرًا ما تكون عناية الله –سبحانه وتعالى– عند الخاملين، فالْمَدَارُ التقوى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا قَالَ الرَّجُلُ هَلَكَ النَّاسُ . فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ) .

==========

(**فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ**) أشدهم هلاكاً .

١–معنى الحديث :

إذا قال الرجل: هَلك الناس، يريد بذلك إنقاصهم وتحقيرهم والترفع عليهم، لما يَرى من نفسه فضلا عليهم، فقد صار بذلك أعظمهم هلاكًا، وهذا على رواية الرفع :"أهلكُهم" .

وأما على رواية النصب: "أهلكَهم" فمعناه: كان سببًا في هلاكهم حيث قَنَّطهم وأيأسهم من رحمة الله تعالى ، وصَدَّهم عن الرجوع إليه بالتوبة، ودفعهم إلى الاستمرار فيما هم عليه من القنوط، حتى هلكوا.

وهذه أقوال بعض العلماء :

قال النووي -رحمه الله- واتفق العلماء على أن هذا الذَّمَّ إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس، واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم؛ لأنه لا يعلم سرَّ الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزُّنًا لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين، فلا بأس، كمن قال: لا أعرف من أمة النبي ﷺ إلا أنهم (لا) يُصلُّون جميعًا، هكذا فسَّره الإمام مالك، وتابعه الناس عليه.

وقال الزرقاني -رحمه الله- (إذا قال الرجل هلك الناس) إعجابًا بنفسه وتيهًا بعلمه أو عبادته، واحتقارًا للناس .

وقال ابن عبد البر -رحمه الله- هذا معناه عند أهل العلم: أن يقولها الرجل احتقارًا للناس وإزراءً عليهم وإعجابًا بنفسه، وأما إذا قال ذلك تأسُّفًا وتحزُّنًا وخوفًا عليهم؛ لقبيح ما يرى من أعمالهم، فليس ممن عني بهذا الحديث.

والفرق بين الأمرين: أن يكون في الوجه الأول راضيًا عن نفسه معجبًا بها، حاسدًا لمن فوقه، محتقرًا لمن دونه، ويكون في الوجه الثاني ماقتًا لنفسه، موبِّخًا لها، غير راضٍ عنها.

روينا عن أبي الدرداء -رحمه الله- أنه قال: لن يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقتَ الناس كلهم في ذات الله، ثم يعود إلى نفسه فيكون لها أشد مقتًا . (التمهيد)

وقال المازري -رحمه الله- محمل هذا عند بعض العلماء على أنّ القائل قال ذلك ازدِرَاءً بالناس واحتقارًا لهم وإعجابًا بِنَفسه. ... فَأما قوله على جهة الإشفاق والتَّفَجُّع لِذَهاب الصالحين، وتفضيل من مضى من الأولين؛ فإنه خارج عن هذا، والقصد يُغَيِّر أحكام اللفظ، والأوّل عِنوان الكِبْرِ والاستهزاء بالنّاس وهو مذموم، والثاني عنوان الإشفاق والتَّقصِير بالنَّفسِ وتعظيم السلف؛ وذلك لا يكون مَذمومًا.

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- (فهو أهلكُهم) بضم الكاف، والمعنى: هو أشدهم هلاكًا؛ لأنه إنما قال ذلك لأحد معنيين: إما للإزراء عليهم والاحتقار لهم وتفضيل نفسه، أو للقطع عليهم باستحقاق العقوبة، فكأنه يقنطهم من رحمة الله.

٢-الحذر من الازدراء واحتقار الناس .

٣-الحذر من تقنيط الناس من رحمة الله .

٤-الحذر من سوء الظن بالناس .

٥-النهي عن إطلاق الحكم على الناس بالهلاك، كأن يرى الإنسان كثرة المعاصي فيقول: الناس كلهم هلكوا.

٦-التحذير من العُجب بالنفس واحتقار الآخرين؛ فقد يكون القائل يرى نفسه أفضل من الناس، فيقع في ذنب أشد من بعض ما عابهم عليه.

٧-الحث على الرحمة والنصح بدل اليأس من صلاح الناس؛ فالمؤمن يدعو إلى الخير ويُحسن الظن، ولا يقطع على الناس طريق التوبة.

٨-أن الكلام قد يكون سبباً في هلاك صاحبه .

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ سَيُوَرِّثُهُ).

[٦٠١٤] .

==========

(**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ**) يعني: يأمرني بحفظ حق الجار، والإحسان، ودفع الضرر عنه .

(**حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه**) اختُلف في المراد بهذا التوريث:

فقيل : يُجعل له مشاركة في المال بفرض سهم يُعطاه مع الأقارب.

وقيل : المراد: أن يُنَزَّل منزلة من يرث في البِرّ والصلة.

والأول أظهر، فإن الثاني استمرّ، والخبر مُشعِر بأن التوريث لم يقع، ويؤيده ما أخرجه البخاريّ من حديث جابر رضي الله عنه نحو حديث الباب بلفظ (حتى ظننت أنه يَجْعل له ميراثاً).

١-الحديث دليل على عظم حق الجار ، وقد حث الإسلام ورغّب في الإحسان إليه، وفي تحريم إيذائه.

قوله ﷺ (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ) متفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ).
متفق عليه

وفي رواية (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِى جَارَهُ).

وفي رواية عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ ...) رواه مسلم.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ).
رواه مسلم

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) رواه مسلم.

وقال ﷺ (حسن الأخلاق وحسن الجوار يزيدان في الأعمار) رواه أحمد.

عن أبي هريرة قال (قال رجل: يا رسول الله! إن فلانة تكثر من صلاتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ قال: هي في النار) رواه أحمد

وقال ﷺ (وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (إن أحببتم محبة الله ورسوله؛ فأدوا إذا ائتمنتم، واصدُقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جوار مَن جاوركم).

ولعظم حق الجار: أخبر ﷺ أن إثم إيذاء الجار يزيد على إثم العموم:

(لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارَه).

وقال عبد الله بن مسعود: سألت النبي ﷺ أيّ ذنب أعظم؟ قال (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ"، قُلْتُ: ثُمَّ أيّ؟: "أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ).

قال ابن عبد البرّ -رَحِمَهُ اللهُ-: في هذا الحديث الحضّ على برّ الجار، وإكرامه، وقد ثبت عنه ﷺ قوله (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره) والله -عَزَّ وَجَلَّ- قد أوصى بالجار ذي القربى، والجار الجنب.

٢-قوله (**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ**) .

قال الصنعاني –رحمه الله– (يوصيني بالجار) فيه أنه كرَّر له الوصية به؛ وذلك لأنه يَكْثُر ما يعرض بين الجيران مما يخرج النفوس، ويضيق الصدور، فكثرت الوصية بحقه؛ ليغتفر له كل زلة، ويقبل له كل فعلة.

٣–**قال ابن حزم** –رحمه الله– الإحسان إلى الجار: كفُّ الأذى، والبِرَّ، واللقاء بالبِشْرِ، والإكرام، وحمايتهم من الظلم. .

وقال ابن عبد البر –رحمه الله– وللجار على جاره في أدب السُّنة: أنْ يصبر من أذاه على ما يقدر، كما عليه ألا يؤذيه، وأن يحسن إليه، ولقد أوصى به رسول الله ﷺ، حتى كاد أنْ يورثه.

٤–**قال القرطبي** : ولما أكد جبريل على النبي ﷺ حق الجوار، وكثر عليه من ذلك، غلب على ظن النبي ﷺ أنَّ الله سَيَحْكُمُ بالميراث بين الجارين، وهذا يدل على أنَّ هذا الجار هنا هو جار الدار؛ لأن الجار بالعهد قد كان من أول الإسلام يرث، ثم نُسخ ذلك. .

٥–قسم الفقهاء –رحمهم الله– الجيران إلى ثلاثة أقسام:

أ– جار له حق واحد، وهو الذمي الأجنبي.

ب– جار له حقان، وهو المسلم الأجنبي، له حق الجوار، وحق الإسلام.

ج– جار له ثلاثة حقوق، وهو المسلم القريب، له حق الإسلام، وحق الجوار، وحق القرابة.

٦–حدود الجوار.

اختلفت عبارات أهل العلم اختلفت في حد الجوار المعتبر شرعًا، على أقوال:

القول الأول: إن حد الجوار المعتبر شرعًا: أربعون دارًا من كل جانب.

وقد جاء ذلك عن عائشة رضي الله عنها كما جاء ذلك عن الزهري والأوزاعي

لحديث أبي هريرة. قال: قال ﷺ (حق الجار أربعون داراً هكذا وهكذا وهكذا ...). رواه أبو يعلى وهو ضعيف

القول الثاني: الجار هو الملاصق فقط.

وبه قال أبو حنيفة وزفر.

قالوا: لأن الجار من المجاورة وهي الملاصقة حقيقة، والاتصال بين الملكين بلا حائل بينهما، فأما مع الحائل فلا يكون مجاوراً حقيقة.

القول الثالث: أن الجار هو الملاصق وغيره ممن يجمعهم المسجد إذا كانوا أهل محلة واحدة.

وبه قال القاضي أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني.

القول الرابع: الجار هو من قاربت داره دار جاره، ويرجع في ذلك إلى العرف.

وهذا اختيار ابن قدامة، وصوبه في الإنصاف.

وهذا القول هو الراجح.

قال الألباني: وقد اختلف العلماء في حد الجوار على أقوال ذكرها في "الفتح" (١٠/ ٣٦٧) وكل ما جاء تحديده عنه ﷺ بأربعين ضعيف لا يصح، فالظاهر أن الصواب تحديده بالعرف.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ) .

==========

(**مَرَقَةً**) المرَق: هو الذي يُؤتَدَم به.

(**فَأَكْثِرْ مَاءَهَا**) لأنه إذا كثر الماء كثر الائتدام به.

(**وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**) أي: أعطهم منه شيئاً.

١ – الحديث دليل على حرص الإسلام على الجار والإحسان إليه.

قال الصنعاني –رحمه الله–هذا إحسان إلى الجار، ولكنَّه قد طَمَسَهُ عُرْفُ الناس .

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– قوله (فأكثر ماءها) تنبيه لطيف على تيسير الأمر على البخيل؛ إذ الزيادة المأمور بها، إنما هي فيما ليس له ثمن، وهو الماء؛ ولذلك لم يقل: إذا طبخت مرقة فأكثر لحمها، أو طبيخها؛ إذ لا يسهل ذلك على كل أحد.

٢ – فضل إطعام الطعام.

٣ – استحباب التهادي بين الجيران؛ لأن ذلك يورث المحبة ويزيد في المودة، ويتأكد هذا التهادي إذا كان للطعام رائحة، وعلمت حاجة الجار.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- قوله (وتعاهد جيرانك) هذا الأمر على جهة الندب والحضِّ على مكارم الأخلاق، والإرشاد إلى محاسنها؛ لما يترتب عليه من المحبة، وحسن العشرة والألفة؛ ولما يحصل به من المنفعة، ودفع الحاجة والمفسدة، فقد يتأذى الجار بِقُتَارِ (رائحة الطبخ أو الشِّواءِ) قِدْرِ جاره، وعياله وصغار ولده، ولا يقدر على التوصل إلى ذلك، فتهيج من ضعفائهم الشهوة، ويعظم على القائم عليهم الألم والكُلْفَة، وربما يكون يتيمًا أو أرمَلَةً ضعيفة فتعظم المشقة، ويشتد منهم الألم والحسرة، وكل ذلك يندفع بتشريكهم في شيء من الطبيخ يُدفع إليهم، فلا أقبح من منع هذا النَزْرِ اليسير الذي يترتب عليه هذا الضرر الكبير.

وقال الشيخ فيصل ابن المبارك -رحمه الله-: في الحديث الحضُّ على تعاهد الجيران ولو بالقليل؛ لما يترتب على ذلك من المحبة والألفة؛ ولما يحصل به من المنفعة، ودفع المفسدة؛ لأن الجار قد يتروح القُتَار (أي: رائحة الطبخ أو الشِّواءِ) فيتحرَّى لهدية جاره .

٤ – عدم احتقار شيء من ضروب الخير، وصنوف البر؛ فإنها كلها معروف.

قال القاضي عياض -رحمه الله- فيه: الحض على فعل الخير، قلَّ أو كثُر، وألا تحقر منه شيئًا، وهذا كما قال تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) .

٥ – استحباب دخول السرور على المسلمين.

٦–قال ابن هبيرة -رحمه الله-: فيه من الفقه: حضُّ رسول الله ﷺ أبا ذر على حسن التدبير في العيش، فإنه إذا طبخ فأكثر الماء ثم أصاب بذلك المرق جيرانه ممن سيجد في الأغلب ريحه، ويُنْمَى إليه خبره، فأصابهم ما يأتيهم منه، لم ينقصه كبير أمر، وإنما وصلهم بما قد صحب طعامه فأرضاهم به، ولم ينقص ما عنده طائلًا، إلا أن هذا هو أدنى الأحوال، وما فوقه من المشاركة والإيثار له مقامه.

٧–**قال المناوي** -رحمه الله- : قال العلائي : وفيه تنبيه لطيف على تسهيل الأمر على مريد الخير حيث لم يقل: فأكثروا لحمها أو طعامها؛ إذ لا يسهل ذلك على كثير.

وقال الحافظ العراقي: وفيه ندب إكثار مرق الطعام لقصد التوسعة على الجيران والفقراء، وأن المرق فيه قوة اللحم، فإنه يسمى: أحد اللحمين؛ لأنه يخرج خاصية اللحم فيه بالغليان. (فيض القدير)

٨-بعض وصايا النبي ﷺ لأبي ذر:

يا أبا ذر! إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها.

يا أبا ذر! استعذ بالله من شر شياطين الجن والإنس.

يا أبا ذر! إذا صمت من الشهر فصم ١٣ و ١٤ و ١٥.

يا أبا ذر! إنما الغنى غنى القلب.

يا أبا ذر! إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة فإنها عشر أمثالها.

يا أبا ذر! ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

يا أبا ذر! إني أرك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي: لا تتأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم.

قال أبو ذر: أوصاني خليلي عليه الصلاة والسلام بسبع:

أمرني بحب المساكين والدنو منهم.

وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني

وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً.

وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت.

وأمرني أن أقول الحق ولو كان مراً.

وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم.

وأمرني أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ (لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ) .

========

٣ – الحديث دليل على التحضيض على فعل البرّ وإن قل، إذ لا يدري فيم تكون السعادة.

وقد ورددت النصوص من القرآن والسنة تحض على فعل الخير وإن كان هذا الخير قليلاً .

كما قال تعالى (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ).

قال السعدي رحمه الله: وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

وفي حديث الباب (لا تَحْقِرَنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْق) رواه مسلم.

قال النووي رحمه الله: فيهِ الْحَثّ عَلَى فَضْل الْمَعْرُوف، وَمَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَإِنْ قَلَّ، حَتَّى طَلَاقَة الْوَجْه عِنْد اللِّقَاء.

٢-الحديث دليل على فضل طلاقة الوجه والتبسم في وجه أخيك المسلم .

فالتبسم في وجه الآخرين صدقة.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ) رواه الترمذي.

(تبسُّمك في وجه أخيك) أي: على وجه الانبساط. صدقة. أي: إحسان إليه، أو لك، فيه ثواب صدقة.

والتبسم من المعروف.

عنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ) رواه الترمذي.

وهو من أخلاق النبي ﷺ .

عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الحَارِثِ بْنِ جَزْءٍ قَالَ: (مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ). رواه أحمد

وعن جرير بن عبد الله قال (مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلا رَآنِي إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي). رواه البخاري

وهو علو منزلة عند الناس .

فعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّكُمْ لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحُسْن الخُلُق).

وعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: "مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ: فَلْيَكُنْ وَجْهُكَ بَسْطًا، وَكَلِمَتُكَ طَيِّبَةً؛ تَكُنْ أَحَبَّ إِلَى النَّاسِ مِنَ الَّذِي يُعْطِيهِمُ الْعَطَاءَ .

وقال الشاعر:

أخو البِشْرِ محبوبٌ على حسن بِشرِهِ ولن يعدمَ البغضاءَ من كان عابساً

وبالابتسامة دفع كراهية الناس .

فقد قيل لبعضهم : إنَّك تَلْقَى النَّاسَ كُلَّهُمْ بِالْبِشْرِ! قَالَ : دَفْعُ ضَغِينَةٍ بِأَيْسَرِ مُؤْنَةٍ ، وَاكْتِسَابُ إِخْوَانٍ بِأَيْسَرِ مَبْذُول .

٣-من أقوال السلف:

قال ابن عيينة: البَشَاشَة مصيدة المودَّة، والبِرُّ شيء هيّن، وجه طليق، وكلام ليّن.

قال ابن بطَّال: فيه أنَّ لقاء النَّاس بالتَّبسُّم، وطلاقة الوجه، من أخلاق النُّبوة، وهو مناف للتكبُّر، وجالب للمودّة.

قال هشام بن عروة، عن أبيه قال: مكتوب في الحكمة: ليكن وجهك بسطًا، وكلمتك طيبة، تكن أحبَّ إلى النَّاس من الذي يعطيهم العطاء.

وقال معاذ بن جبل ﷺ: إنَّ المسلمَيْنِ إذا التقيا، فضحك كلُّ واحد منهما في وجه صاحبه، ثم أخذ بيده، تَحَاتَّتْ ذنوبهما كتحات ورق الشجر.

وقال عبد الله بن المبارك: حسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكفُّ الأذى.

قال بعض الحكماء: الْقَ صاحب الحاجة بالبِشْر، فإنْ عدمت شكره، لم تعدم عذره.

وقال أبو جعفر المنصور: إن أحببت أنْ يكثر الثَّناء الجميل عليك من النَّاس بغير نائل، فالْقَهُمْ ببِشْر حسن.

وقال ابن حبان: البَشَاشَة إدام العلماء، وسجيَّة الحكماء؛ لأنَّ البِشْر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي.

قال ابن بطَّال: فيه أنَّ لقاء النَّاس بالتَّبسُّم، وطلاقة الوجه، من أخلاق النُّبوة، وهو مناف للتكبُّر، وجالب للمودّة.

وقد قيل: من آداب المضيف: أن يخدم أضيافه، ويظهر لهم الغنى، والبسط بوجهه، فقد قيل: البَشَاشَة خير من القِرَى.

وقيل: حسن البِشْر اكتساب الذِّكر.

٤- هناك مواضع يحسن فيها الابتسام، لحسن أثره فيها بين الأنام؛ لهذا ينبغي الاستعداد بالتبَسُّم العذب لها، فمن تلك المواضع:

عند التهنئة بما يَسُرُّ.

ففي قصة كعب بن مالك رضي الله عنه- لما تِيبَ عليه- قال: (فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، وكان قد قال له: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ) متفق عليه .

عند مصافحة الناس والسلام عليهم ولقائهم.

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ مِنَ الصَّدَقَةِ: أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى النَّاسِ وَأَنْتَ طليق الوجه)

قال النووي رحمه الله : ويُستحبُّ مع المصافحة: البشاشة بالوجه، والدعاء بالمغفرة وغيره . انتهى

إياك والعبوس عند اللقاء؛ فإنه من أخلاق المتكبّرين، ويزرع الضغينة، ويزهد عن المصافحة في قادم الأيام.

وعند الكلام مع الناس .

فعَن حبيب بْن أَبِي ثابت قَالَ: من حسن خلق الرجل: أن يحدث صاحبه وهو يبتسم .

وعند العطية .

فمتى قدمت لإنسان زكاة، أو صدقة، أو هدية، فلا تعبس في وجهه؛ فإن ذلك يكدر ما قدمت، وينقص ما بذلت، ولكن ابتسم عند العطاء؛ فإنه عطاء آخر.

قال الشاعر:

لن تستتِمَّ جميلًا أنتَ فاعلُهُ إلا وأنتَ طليقُ الوجهِ بهلولُ .

وعند مجيء الضيف والجلوس معه.

فحين ينزل بك الضيف فاستقبله بالبشر والابتسامة، واجلس معه من غير عبوس ولا سآمة.

سئل الأوزاعي: مَا إكرام الضيف؟ قَالَ: طلاقة الوجه، وطيب الكلام .

وقالت العرب : تمام الضيافة: الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكلة .

وقيل : البشاشة أول قِرَى الأضياف .

٥-**قال الغزالي** في قول النبي ﷺ (... ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق).

قال : فيه -أي: هذا الحديث- ردٌّ على كلِّ عالِم أو عابدٍ عبس وجهه، وقَطَّب جبينه كأنَّه مستقذِرٌ للناس، أو غضبان عليهم، أو مُنزَّه عنهم، ولا يَعلم المسكينُ أنَّ الورَعَ ليس في الجَبْهة حتى تُقطَّب، ولا في الخَدِّ حتى يُصعَّر، ولا في الظهر حتى يَنْحَني، ولا في الرَّقبة حتى تُطاطَأ، ولا في الذَّيْل حتى يُضم، إنَّما الورع في القَلْب، أمَّا الذي تلْقاه ببِشْرٍ ويلقاك بعبوس، يَمُنُّ عليك بعِلْمه، فلا أكْثرَ اللهُ في المسلمين مِثلَه، ولو كان الله يَرْضَى بذلك، ما قال لنبيِّه: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين) .

٦-أوصى ابن عمر رضي الله عنه ابنَه فقال:

بُنَيَّ إِنَّ البِرَّ شَيْءٌ هَيِّنٌ وَجْهٌ طَلِيقٌ وَكَلاَمٌ لَيِّنٌ

٧-**يقول الإمام ابن حَجَر** : والذي يظهر من مجموع الأحاديث أنه ﷺ كان لا يَزِيد في معظم أحواله عن التبسُّم، وربما زاد على ذلك فضَحِكَ ؛ والمكروه في ذلك إنما هو الإكثار من الضحك أو الإفراط؛ لأنه يُذْهِب الوقار .

٨-قوله (**تبسمك في وجه أخيك صدقة**) .

دليل وإشارة إلى أن الصدقة لا تنحصر فيما هو أصلها، وهو ما أخرجه الإنسان من ماله متطوعًا، فلا تختص بأهل اليسار، بل كل أحد قادر على أن يفعلها في أكثر الأحوال من غير مشقة، فإن كل شيء يفعله الإنسان، أو يقوله من الخير، يكتب له به صدقة.

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ أَقْبَلَ عَلَى جُلَسَائِهِ فَقَالَ « اشْفَعُوا فَلْتُؤْجَرُوا وَلْيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أَحَبَّ) .

[خ : ١٤٣٢] .

========

(**اشْفَعُوا**) أمر بالشفاعة.

(**تُؤْجَرُوا**) أي: يثيبكم الله.

(**وَيَقْضِي الله**) أي: يُظهر.

(**عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا أحب**) أي: ما قدره في علمه أنه سيكون.

١ – الحديث دليل على الحث على الشفاعة في أمور الخير.

قال النووي: فِيهِ اِسْتِحْبَاب الشَّفَاعَة لِأَصْحَابِ الْحَوَائِج الْمُبَاحَة، سَوَاء كَانَتْ الشَّفَاعَة إِلَى سُلْطَان وَوَالٍ وَنَحْوهمَا، أَمْ إِلَى وَاحِد مِنْ النَّاس، وَسَوَاء كَانَتْ الشَّفَاعَة إِلَى سُلْطَان فِي كَفّ ظُلْم، أَوْ إِسْقَاط تَعْزِير، أَوْ فِي تَخْلِيص عَطَاء الْمُحْتَاج، أَوْ نَحْو ذَلِكَ. وَأَمَّا الشَّفَاعَة فِي الْحُدُود فَحَرَام، وَكَذَا الشَّفَاعَة فِي تَتْمِيم بَاطِل، أَوْ إِبْطَال حَقٍّ، وَنَحْو ذَلِكَ، فَهِيَ حَرَام.

وقال القرطبي: وهذه الشفاعة المذكورة في الحديث هي في الحوائج، والرغبات للسلطان، وذوي الأمر والجاه، كما شهد به صدر الحديث ومساقه، ولا يخفى ما فيها من الأجر والثواب، لأنَّها من باب صنائع المعروف، وكشف الكرب، ومعونة الضيف، إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى السلطان، وذوي الأمر، ولذلك كان النبي ﷺ يقول – مع تواضعه وقربه من الصغير والكبير إذ كان لا يحتجب، ولا يحجب – (أبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها).

قَالَ الله تَعَالى (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا).

أي: من سعى في أمر فترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك.

قال القاسمي: أي يتوسط في أمر فيترتب عليه خير من دفع ضر، أو جلب نفع، ابتغاء لوجه الله تعالى، ومنه حمل المؤمنين على قتال الكفار.

وقال ابن عاشور: والمقصود مع ذلك الترغيب في التوسّط في الخير والترهيب من ضدّه.

والشفاعة: الوساطة في إيصال خير أو دفع شرّ، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا.

٢ – والشفاعة من الأخلاق الفاضلة التي عرفها الناس قديمًا .

وقد كان للشفاعات عند الصحابة ﷺ والسلف الصالح شأن عظيم، حيث كان الشخص يمدح بقدر إقدامه على الشفاعة، وقدر قبول شفاعته .

جاء في الحديث أنه مر رجل فقال رسول الله ﷺ «ما تقولون فيه؟» قالوا: هذا جدير إن شفع أن يشفع.

والشفاعة من وجه آخر فيها رفع للظلم، وإيصال الحقوق لأهلها، وفيها إصلاح بين الناس، ونصرة للحق وتأييد له، والشفاعة زكاة الجاه.

قال الماوردي: ... فَأَمَّا الْإِسْعَافُ بِالْجَاهِ فَقَدْ يَكُونُ مِنْ الْأَعْلَى قَدْرًا، وَالْأَنْفَذِ أَمْرًا، وَهُوَ أَرْخَصُ الْمَكَارِمِ ثَمَنًا وَأَلْطَفُ الصَّنَائِعِ مَوْقِعًا، وَرُبَّمَا كَانَ أَعْظَمَ مِنْ الْمَالِ نَفْعًا، وَهُوَ الظِّلُّ الَّذِي يَلْجَأُ إلَيْهِ الْمُضْطَرُّونَ، وَالْحِمَى الَّذِي يَأْوِي إلَيْهِ الْخَائِفُونَ.

٣ – وهذه الشفاعة جائزة بشرط أن تكون في شيء مباح.

فلا تصح الشفاعة في شيء يترتب عليه ضياع حقوق الخلق أو ظلمهم، كما لا تصح الشفاعة في تحصيل أمر محرم، كمن يشفع لأناس قد وجب عليهم الحد أن لا يقام عليهم.

قال تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان).

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها (أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إلا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا).

قال النووي: وأما الشفاعة في الحدود فحرام، وكذا الشفاعة في تتميم باطل أو إبطال حق ونحو ذلك فهي حرام.

وقال الحسن البصري رحمه الله: الحسنة ما يجوز في الدين، والسيئة ما لا يجوز فيه.

وقال ابن تيمية رحمه الله: فإن أعانه على بر وتقوى كانت شفاعة حسنة، وإن أعانه على إثم وعدوان كانت شفاعة سيئة.

وقال أيضاً في ضابطها بأنها: إعانة الإنسان على خير يحبه الله ورسوله مع نفع من يستحق النفع، ودفع الضر عمن يستحق دفع الضر عنه.

وقال ابن حجر رحمه الله: ضابط الشفاعة الحسنة ما أذن فيه الشرع دون ما لم يأذن فيه.

وقال الزمخشري رحمه الله في ضابطها: هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير، وابتغي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حد من حدود الله، ولا في حق من الحقوق، والسيئة ما كانت بخلاف ذلك.

٤ – بعض مجالات الشفاعة التي وردت في السنة الشريفة:

الشفاعة في الوضع من الدين أو تأجيله.

عنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ (أُصِيبَ عَبْدُ اللهِ وَتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْنًا فَطَلَبْتُ إِلَى أَصْحَابِ الدَّيْنِ أَنْ يَضَعُوا بَعْضًا مِنْ دَيْنِهِ فَأَبَوْا فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَاسْتَشْفَعْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ فَأَبَوْا) متفق عليه.

والحديث صريح في المسألة وقد ترجم الإمام البخاري رحمه الله لهذا الحديث بقوله: باب الشفاعة في وضع الدين.

الشفاعة في إعطاء الصدقة أو الزكاة للمحتاج.

دليله حديث الباب كان إذا جاءه السائل قال (اشفعوا تؤجروا).

وجه الاستدلال: أن المراد بالسائل من يطلب الصدقة، وقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: (باب التحريض على الصدقة، والشفاعة فيها).

الشفاعة في مراجعة الزوجة المطلقة.

كما في قصة بريرة مع زوجها.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ، كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ: مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا، يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْعَبَّاسِ: "يَا عَبَّاسُ، أَلاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا"، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ "لَوْ رَاجَعْتِيهِ، فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ؟ "، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَأْمُرُنِي؟ قَالَ: "إِنَّمَا أَنَا شَفِيعٌ": قَالَتْ فَلاَ حَاجَةَ لِي فِيهِ) رواه البخاري.

قال ابن القيم: هذه شفاعة من سيد الشفعاء لمحب إلى محبوبه، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه الله ورسوله، ولهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين.

٥ – الشافع مأجور قُبِلت شفاعته أم لم تُقبَل والدليل على ذلك:

أ- لأن الله تعالى قال (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا) ولم يقل: من يُشَفّع أي: تقبل شفاعته.

ب-أن رسول الله ﷺ قال (اشفعوا تؤجروا) فرتب الأجر على مجرد الشفاعة، ولم يقيد ذلك بقبولها.

قال ابن حجر: وقع حديث عن ابن عباس سنده ضعيف، يرفعه (من سعى لأخيه المسلم في حاجة قضيت له أو لم تقض غفر له).

فعلى الشافع أن يُحسن نيته، ويبتغي بذلك الأجرَ والثواب من رب الأرباب، وليتأسَّ بمَن مَدَحهم الله سبحانه وتعالى بقوله (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً).

فالأعمال بالنيات؛ وبقدر صِدْق المرء وإخلاصه واتِّباعه للسنة، وبقدْرِ نَصَبه وعنائه في أي أمر من الأمور الحسنة؛ يكون أجره وثوابه، فكذلك الأمر للشافع .

٦ - استحباب إدخال السرور عَلَى قلب المؤمن.

كان ابن عباس - رضي الله عنهما - معتكفاً في مسجد رسول الله ﷺ فجاءه رجل يستعين به على حاجة له، فخرج معه، وقال: " سمعتُ صاحب هذا القبر ﷺ يقول: من مشى في حاجة أخيه وبلغ فيها كان خيراً من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوماً ابتغاءَ وجه الله جعلَ الله بينه وبين النار ثلاثة خنادق، كل خندق أبعد مما بين الخافقين .

وقال سفيان بن عيينة: ليس أقول لكم إلا ما سمعت: قيل لابن المنكدر: أي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن.

وقيل: أي الدنيا أحب إليك؟ قال: الإفضال على الإخوان.

وقال الحسن البصري: لأنْ أقضي حاجةً لأخ أحبُّ إليَّ من أن أعتكف سنة.

وفي الأثر: صنائع المعروف تقي ميتة السوء.

وقال جعفر بن محمد: إن الحاجة تعرض للرجل قِبَلي فأبادر بقضائها مخافةَ أن يستغني عنها، أو تأتيه وقد استبطأها، فلا يكون لها عنده موقع.

وقال البيجاني: وإذا أراد الله بعبد خيراً جعل قضاء الحوائج على يديه.

فائدة :

قَالَ الله تَعَالَى (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا) .

قال ابن القيم: وتأمل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة (يكن له نصيب منها) وفي السيئة (يكن له كفل منها) فإن لفظ الكفل يشعر بالحمل والثقل، ولفظ النصيب يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله، وإن كان كل منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد ولكن لما قرن بينهما حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب وحظ الشر بالكفل. (روضة المحبين).

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً) .

[خ : ٥٥٣٤] .

==========

(**فحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ**) بضمّ حرف المضارعة، من الإحذاء، كالإعطاء وزناً ومعنًى، وقال في "العمدة": "يحذيك" بضم الياء، وسكون الحاء، وكسر الذال المعجمة، كيُعطيك وزناً ومعنًى.

(**وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ**) أي: تشتري .

(**مِنْهُ**) من صاحب المسك.

(**وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً**) وهذا بيان أقل المنفعة .

(**وَنَافِخُ الْكِيرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ**) بضمّ حرف المضارعة، من الإحراق؛ أي: يُحرق ثيابك بما تطاير من شرار الكير، وفي رواية البخاريّ (وكير الحدّاد يُحرق بيتك، أو ثوبك).

١ – الحديث دليل على فضل مجالسة الجليس الصالح والتحذير من مجالسة الصديق السيء .

والغرض من ضرب هذا المثل : هو النهي عن مجالسة من تؤذي مجالسته في دين أو دنيا، والترغيب في مجالسة من تنفع مجالسته فيهما، ولهذا، فإن المسلم عليه أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار؛ لأنها تجعل الشرير خيرًا، كما أن مصاحبة الأشرار قد تجعل الخيِّرَ شريرًا، قال

بعض الحكماء: من صحب خيرًا أصابته بركته، فجليس أولياء الله لا يشقى، ولو لم يكن إنسانًا، مثل كلب أهل الكهف، فإن الله تعالى ذكره في كتابه العزيز، فقال: وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيد.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله-: مقصود هذا التمثيل: الحض على صحبة العلماء والفضلاء وأهل الدين، وهو الذي يزيدك نطقُه علمًا وفعله أدبًا ونظره خشية، والزجر عن مخالطة من هو على نقيض ذلك .

وقال النووي: فيه فضيلة مجالسة الصالحين، وأهل الخير، والمروءة، ومكارم الأخلاق، والورع، والعلم، والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشرّ، وأهل البدع، ومن يغتاب الناس، أو يكثر فجوره، وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة. انتهى.

وقال ابن حجر: وفي الحديث النهي عن مجالسة من يتأذى بمجالسته في الدين والدنيا، والترغيب في مجالسة من ينتفع بمجالسته فيهما.

وقال القاضي عياض -رحمه الله- وقوله في تمثيل الجليس السوء والجليس الصالح بحامل المسك أو نافخ الكير: فيه تجنب خلطاء السوء ومجالسة الأشرار وأهل البدع والمغتابين للناس؛ لأن جميع هؤلاء ينفذ أثرهم إلى جليسهم، والحضّ على مجالسة أهل الخير وتلقّي العلم والأدب، وحسن الهدي والأخلاق الحميدة

وقال الصنعاني -رحمه الله- (وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحًا طيبة) أي: أنك لا بد وأن تنتفع منه بنفع، فالجليس الصالح إما أن يمنحك حكمة، أو تأخذها منه بطلب الإفادة والتعليم، أو تلذذ بحسن حديثه وخلقه وآداب شمائله. .

وقال الشيخ محمد الأمين الهرري -رحمه الله-: وحاصل معنى الحديث: أن حامل المسك ممن ينفعك لا محالة، إما بإهداء المسك إليك أو بيعه منك ولا يخلو على الأقل من أن ينفعه برائحته الطيبة، وكذلك الجليس إما أن تحصل منه على علم ينفعك، أو أنه ينفعك بصحبته .

وقال السعدي: مثَّل النبي ﷺ بهذين المثالين مبينًا أن الجليس الصالح جميع أحوالك معه وأنت في مغنم وخير، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك، إما بهبة أو بعوض. وأقل ذلك مدة

جلوسك معه، وأنت قرير النفس برائحة المسك، فالخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر، فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو يهدي لك نصيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك، فيحثك على طاعة الله وبر الوالدين وصلة الأرحام، ويبصرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، بقوله وفعله وحاله، فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنود مجندة، يقود بعضها بعضًا إلى الخير أو إلى ضده. وأقل ما تستفيده من الجليس الصالح- وهي فائدة لا يُستهان بها- أن تنكف بسببه عن السيئات والمعاصي، رعاية للصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعًا عن الشر، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك، وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك ومحبته لك، وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم ... إلى آخر ما قال -رحمه الله تعالى-. (بهجة قلوب الابرار)

فالصحبة الصالحة تعين المسلم على طاعة الله.

لقد احتاج موسى عليه السلام لمن يذكّره بالله ويعينه على الطاعة وهو من هو في نبوّته (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا).

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول لصاحبه: اجلس بنا نؤمن ساعة. وكذلك قال أبو هريرة رضي الله عنه لصديقه. بركة المجالَسة، فإن من جالَسَهم تشمله بركةُ مُجالستهم، ويعمُّه الخيرُ الحاصل لهم، وإن لم يكن عمله بالغًا مبلغَهم.

كما في حديث أبي هريرة. قال: قال ﷺ (إنَّ لله ملائكةً يطوفون في الطرُق، يلتمسون أهل الذِّكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله، تنادوا: هلموا إلى حاجتكم ... وفي آخر الحديث: فيقول الله: فأشهدكم أني قد غفرتُ لهم، قال: يقول ملك منَ الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجُلساء لا يشقى بهم جليسُهم).

يقول عمر: لولا ثلاثٌ ما أحببتُ العيش في هذه الحياة الدنيا: ظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات من الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايبَ الكلام، كما يُنتقَى أطايب الثمر".

وكم من شخص اهتدى، وأصبح منَ المحافظين على الصلاة، وترك مُجالسة أهل السُّوء، وتوجَّه إلى الدعوة، كلُّ ذلك بفضْل الله، ثُمَّ الرفقة الصالحة!

قال أبو الفضل الجوهري: إن من أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم، كلبٌ أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله في محكم تنزيله

قال القرطبي بعد إيراده لكلام الجوهري: إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصُلَحاء والأولياء، حتى أخبر الله بذلك في كتابه جل وعلا، فما ظنّك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين.

قال الراغب الأصبهاني: قال بعض الحكماء: من جالس خيّراً أصابته بركته فجليس أولياء الله لا يشقى، وإن كان كلباً ككلب أصحاب الكهف.

قال ابن كثير: وشملت كلبهم بركتهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

وقد جاء في وصية علقمة العطاردي لابنه حين حضرته الوفاة قوله له: يا بني، إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤونة مانك، اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن رأى سيئة سدها، اصحَب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحَب من إذا قلتَ صدَّق قولك، وإن حاولتما أمرًا أمرك، وإن تنازعتما آثرك، فجمع له في هذه الوصية حقوق الصحبة وشروطها.

وفي مقابل هذا:

فإن كل صحبة لم تكن لله، وكل صداقة لم تكن في طاعة الله، فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة.

قال تعالى (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِين) أي: أعداء، يعادي بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضا، "إلا المتقين"؛ فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة.

بل إن الإنسان يوم القيامة يتحسر على مصاحبته لرُفقاء السوء.

قال تعالى (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا).

قال بعض الحكماء: كل إنسان يأنس إلى شكلِه، كما أن كل طير يطير مع مثله، وإذا اصطحب اثنان بُرهةً من الزمان ولم يتشاكلاَ في الحال، فلا بُدَّ أن يفترقَا في الاستقبال.

رُئِيَ غرابٌ يومًا مع حمامة، فعَجِبَ الحكيم من ذلك، فقال: اتفقَا وليسَا من شكل واحدٍ، ثم طارَا فإذا هما أعرجان، فقال: مِن هنا اتَّفقا!

وقيل: سترُ العيوب والتجاهل والتغافل عن الذنوب شيمةُ أهل الدين، ومن التخلُّق بأخلاق علاَّم الغيوب، فوَرَد: يا مَن أظهرَ الجميل، وستر القبيح.

نظر أبو الدرداء ﷺ إلى ثورَيْنِ يحرثان في فدان، فوقف أحدُهما يَحُكُّ جسمه، فوقف الآخر؛ فبكى أبو الدرداء وقال: هكذا الإخوان في الله يعملان لله، فإذا وقف أحدهما وافقه الآخر، وفي المثل: لولا الوئامُ لهلك الأنامُ.

صديق السوء ينقل صاحبَه وجليسه من الطاعة إلى المعصية، ويزيّن له عمل السوء.

روى البخاري ومسلم : من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه، قال (لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله ﷺ: يا عمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالةَ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: أمَا والله لأستغفرنَّ لك، ما لم أُنْهَ عنك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ "مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ" وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"). متفق عليه

الجليس السوء يدْعو جليسَه إلى مُماثلته في الوُقوع في المحرَّمات، ويخفِّف وقْع المعصية في قلبه.

قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: ودَّت الزانية لو زنى النساء كلُّهن.

وجليس السوء ينصرف عن صاحبه عند أدنى خلاف أو فوات مصلحة؛ بل وتحصل البغْضاء بعد ذلك، قال عبد الله بن المعتز: إخوان السُّوء ينصرفون عند النَّكْبة، ويُقبِلون مع النِّعمة.

قيل:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

فَإِنْ كَانَ ذَا شَرٍّ فَجَنِّبْهُ سُرْعَةً ... وَإِنْ كَانَ ذَا خَيْرٍ فَقَارِنْهُ تَهْتَدِي

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ ... وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

وقيل:

لَا تَصْحَبِ الْكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ ... كَمْ صَالِحٍ بِفَسَادِ آخَرَ يَفْسُدُ

عَدْوَى الْبَلِيدِ إِلَى الْجَلِيدِ سَرِيعَةٌ ... كَالْجَمْرِ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَتَخْمُدُ

٢ – وأهمية الصحبة الصالحة للمسلم، وخطر الصحبة السيئة:

يشير إليها حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لاَ، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ. فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا. فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ ...). رواه مسلم

قال النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخدان المساعدين له على ذلك ومقاطعتهم ما داموا على حالهم وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين ومن يقتدي بهم وينتفع بصحبتهم، وتتأكد بذلك توبته.

٣ – مشروعيّة ضرب الْمَثَل، والعمل في الحُكم بالأشباه والنظائر، قال الإمام ابن حبّان –رَحِمَهُ اللهُ– في "صحيحه" بعد إخراج الحديث: في هذا الخبر دليلٌ على إباحة المقايسات في الدين.

٤-**قال الصنعاني** -رحمه الله- والمراد النهي عن مجالسة من تؤذي مجالسته في دِين أو دنيا، والترغيب في مجالسة من تنفع مجالسته، وفيه ضرب الأمثال وشرف المسك.

٥ - مدح المسك المستلزم لطهارته.

٦ - مدح الصحابة، حيث كان جليسهم رسول الله ﷺ حتى قيل: ليس للصحابي فضيلة أفضل من فضيلة الصحبة، ولهذا سُمُّوا بالصحابة، مع أنهم علماء، كرماء، شجعاء ... إلى تمام فضائلهم.

عن عَائِشَةَ قَالَتْ (جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا فَسَأَلَتْنِي فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَأَخَذَتْهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا شَيْئًا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ وَابْنَتَاهَا فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَهَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ) .

[خ : ١٤١٨] .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا فَأَطْعَمْتُهَا ثَلاَثَ تَمَرَاتٍ فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إِلَى فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا فَذَكَرْتُ الَّذِى صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ) .

==========

(**جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ مَعَهَا ابْنَتَانِ**) قال الحافظ: لم أقف على أسمائهن.

(**تَسْأَلُنِي**) شيئاً من الطعام.

(**فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا فَقَسَمَتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا**) ولم تأكل منها شيئاً، كما في رواية أخرى.

(**مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ شَيْئًا**) من الولاية، ووقع (من ابتلي) من الابتلاء.

(**فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ**) أي: صانهن وقام بما يصلحهن، ونظر في أصلح الأحوال لهن.

(**كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**) أي: حجاباً من النار.

(**جَاءتني مِسْكينةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُها**) أي: أعطتها طعاماً.

(**ثَلاثَ تَمَرَات**) تقدّم في الرواية السابقة أن قالت: "فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها"، والأقرب في الجمع الحمل على تعدّد القصّة.

(**فَاسْتَطعَمَتهَا ابْنَتَاهَا**) أي: سألتاها تلك التمرة.

(**فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُما**) هذا من شدّة رأفتها بابنتيها، ولذا وجب لها الجنّة.

(**فَأعجَبَنِي شَأنُهَا**) أي: حالها الذي جرى بينها وبين ابنتيها في تلك التمرة، وفي رواية ابن حبّان: فأعجبني حَنَانها.

(**إنَّ الله قَدْ أوْجَبَ لَهَا**) أي: لهذه المرأة.

(**بها**) أي: بسبب هذه الصنعة، وهي إيثارها ابنتيها على نفسها بتلك التمرة،

(**الجَنَّةَ، أَوْ أعتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّار**) وفي رواية ابن حبّان: إن الله قد أوجب لها الجنّة، وأعتقها بها من النار .

١ – هذه الأحاديث دليل على فضل رحمة البنات والإحسان إليهن والقيام بما يصلحهن، وأن ذلك من أسباب النجاة من النار.

ومن الأحاديث أيضاً :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ». وَضَمَّ أَصَابِعَهُ) رواه مسلم والترمذي ولفظه (من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين) وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها.

د–وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلاَثُ أَخَوَاتٍ أَوِ ابْنَتَانِ أَوْ أُخْتَانِ فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ وَاتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ) رواه الترمذي.

هـ– وعن عُقْبَة بْن عَامِر قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ (مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاَثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَة). رواه ابن ماجه

وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن، وجبت له الجنة البتة، قيل يا رسول الله فإن كانتا اثنتين؟ قال: وإن كانتا اثنتين) رواه أحمد.

وعند الطبراني من حديث ابن عباس (فأنفق عليهن وزوجهن، وأحسن أدبهن).

٢ – قوله ﷺ (مَنْ اُبْتُلِيَ مِنْ الْبَنَات بِشَيْءٍ) إِنَّمَا سَمَّاهُ اِبْتِلَاء لِأَنَّ النَّاس يَكْرَهُونَهُنَّ فِي الْعَادَة وَقَالَ اللَّه تَعَالَى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدهمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهه مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيم). (شرح مسلم)

٣ – وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِالْإِحْسَانِ هَلْ يَقْتَصِرُ بِهِ عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ أَوْ بِمَا زَادَ عَلَيْهِ؟

وَالظَّاهِرُ الثَّانِي: فَإِنَّ عَائِشَةَ أَعْطَتِ الْمَرْأَةَ التَّمْرَةَ فَآثَرَتْ بِهَا ابْنَتَيْهَا فَوَصَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِالْإِحْسَانِ بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْحُكْمِ الْمَذْكُورِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ فَعَلَ مَعْرُوفًا لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَيْهِ أَوْ زَادَ عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ عُدَّ مُحْسِنًا، وَالَّذِي يَقْتَصِرُ عَلَى الْوَاجِبِ وَإِنْ كَانَ يُوصَفُ بِكَوْنِهِ مُحْسِنًا لَكِنِ الْمُرَادَ مِنَ الْوَصْفِ الْمَذْكُورِ قَدْرٌ زَائِدٌ وَشَرْطُ الْإِحْسَانِ أَنْ يُوَافِقَ الشَّرْعَ لَا مَا خَالَفَهُ وَالظَّاهِرُ أَنَّ الثَّوَابَ الْمَذْكُورَ إِنَّمَا يَحْصُلُ لِفَاعِلِهِ إِذَا اسْتَمَرَّ إِلَى أَنْ يَحْصُلَ اسْتِغْنَاؤُهُنَّ عَنْهُ بِزَوْجٍ أَوْ غَيْرِهِ كَمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْحَدِيث. (الفتح)

٤ – من المعلوم أن العرب في الجاهلية كانوا لا يحبون البنات، ويترقبون الأولاد، للوقوف إلى جانبهم ومساندتهم في حياتهم وحروبهم.

أما البنت فكانوا لا يحبونها، وكان عدم حبهم لها والخوف من عارها يحمل بعضهم على كراهتها بل وعلى قتلها ووأْدِها.

كما قال الله تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُون).

وقال تعالى (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَت).

حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ ، فجرَّم وحرم هذه الفِعلة الشنعاء وهي وأد البنات.

فعن المغيرة بن شعبة ﷺ أن النبي ﷺ قال (إنَّ الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات، وَمَنْعاً وهات، ووَأد البنات، وكَرِهَ لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال) متفق عليه.

قال ابن حجر: قوله ﷺ (ووَأدَ البنات) هو دفن البنات بالحياة، وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك كراهة فيهن.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (مَنْ وُلِدَتْ له ابنةٌ فلم يئِدْها ولم يُهنْها، ولم يُؤثرْ ولَده عليها أدخلَه اللهُ بها الجنة) رواه أحمد.

وهذان الحديثان وما جاء في معناهما يدلان صراحة على أنَّ البنات كنَّ محلاً لجهالات وبُغض بعض العرب إبان بعثة النبي ﷺ.

٥- تأكيد حقّ البنات؛ لِمَا فيهنّ من الضعف غالباً عن القيام بمصالح أنفسهنّ، بخلاف الذكور؛ لِمَا فيهم من قوة البدن، وجزالة الرأي، وإمكان التصرف في الأمور المحتاج إليها في أكثر الأحوال.

٦ – **قال ابن هبيرة** -رحمه الله-: في هذا الحديث ما يدل على شَرف الإنفاق على العيال ولا سيما البنات؛ فإنهن لا يتعلق طمع الأب منهن من الاعتداد بهن، والصَّوْل على الأعداء بِقُوَّتهن، وإحياء اسمه، واتصال نسبه وغير ذلك كما يتعلق بالذَّكَر، فلما زاد الإناث على الذكور في درجة إخلاص المنفِق عليهن لله، فإنه يستر منهن عورات في البيوت، ويرزق منهن حرمًا لا يَطِقْنَ الكسب على أنفسهن.

٧-سخاء عائشة – رضي الله عنها –؛ لكونها لم تجد إلا تمرة فآثرت بها.

٨ – أن القليل لا يمتنع التصدق به؛ لحقارته، بل ينبغي للمتصدق أن يتصدق بما تيسَّر له قَلّ أو كثر.

٩ – جواز ذِكر المعروف، إن لم يكن على وجه الفخر، ولا المنّة.

١٠ – فضل الإحسان في الأعمال لقوله (فأحسن إليهن ...).

١١-بعض الأسباب التي تنجي من النار:

أولاً: الرحمة والعطف على البنات.

كما في حديث الباب.

ثانياً: الصدقة.

عن عَدِي بنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه، قَالَ: سمعت النَّبيّ ﷺ يقول: (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بشقِّ تَمْرَةٍ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وقال ﷺ (ليتق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة) رواه أحمد.

وجاء عند الطبراني من حديث فضالة بن عبيد مرفوعاً (اجعلوا بينكم وبين النار حجاباً، ولو بشق تمرة).

ولأحمد عن عائشة بإسناد حسن (يا عائشة استتري من النار، ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان)

وقال ﷺ (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ) متفق عليه.

ثالثاً: البكاء من خشية من الله.

قال ﷺ (لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) رواه الترمذي.

وقال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان).

رابعاً: الصيام:

قال ﷺ (الصيام جُنة يستجن به من النار) رواه أحمد، وفي رواية (وحصن حصين من النار).

وقال ﷺ (من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً) متفق عليه.

خامساً: والاستجارة بالله من النار.

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ (من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار اللهم أجره من النار) رواه الترمذي.

والنبي عليه السلام في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمغرم والمأثم، اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار، وفتنة النار، وفتنة القبر "رواه البخاري.

ولذلك من صفات عباد الرحمن أنهم يقولون (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً).

سادساً: المحافظة على صلاة الفجر والعصر.

قال ﷺ (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) رواه مسلم.

سابعاً: الجهاد.

قال ﷺ (من اغبرت قدماه في سبيل الله فهما حرام على النار) رواه الترمذي.

ثامناً: حسن الخلق.

قال ﷺ (من كان سهلاً هيناً ليناً حرمه الله على النار)

تاسعاً: عتق الرقاب.

قال ﷺ (من أعتق رقبة مؤمنة كانت فكاكه من النار).

عاشراً: الكلمة الطيبة.

للحديث السابق (فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَة).

قال النووي: فيه أن الكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار.

الحادي عشر: التوحيد بإخلاص وصدق.

قال ﷺ (إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله) متفق عليه.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ («مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ » وَضَمَّ أَصَابِعَهُ) .

==========

(من عال) أي: قام عليهما بما يُصلحهما، ويحفظهما.

قال النوويّ رحمه الله: معنى عالهما: قام عليهما بالمؤنة، والتربية، ونحوهما، مأخوذ من العَول، وهو القُرْب، ومنه: ابدأ بمن تعول، ومعناه: جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين.

(جَارِيَتَيْن) أيْ: بنتين.

(حتى تبلغا) أي : تدركا البلوغ، أو تصلا إلى زوجهما.

(وضَمَّ أصَابِعَهُ) أي: أصبعيه، وهما الوسطى، والتي تليها، كما هو مفسّر في رواية ابن حبّان؛ يعني: أنه ﷺ قرن بين إصبعيه.

١-الحديث دليل على أفضل عول البنات والقيام عليهن وتربيتهن .

فهو يكون مرافق للنبي ﷺ .

كما في حديث الباب .

وسبب للنجاة من النار .

كما في الحديث السابق (مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ) .

وسبب في دخول الجنة .

قال ﷺ (مَن كان له ثلاث بنات يُؤويهُنَّ، ويَكْفِيهنَّ، ويَرحمُهنَّ، فقد وجبتْ له الجنة، فقال رجل مِن القوم: وثِنتين يا رسول الله؟ قال: وثنتين) .

٢- خص لنبي ﷺ البنات بدون الذكور لأمرين:

أحدهما: لأنهن لا يتعلق طمع الأب منهن من الاعتضاد بهن، والصول على الأعداء بقوتهن، وإحياء اسمه، واتصال نسبه، وغير ذلك كما يتعلق بالذَّكر.

الثاني: لأن العرب كان من شأنهم الأَنفة من البنات حتى كان منهم الوأد الذي أخبر الله عز وجل به عنهم من قتلهم البنات .

قال ابن حجر -رحمه الله-: تأكيد حق البنات لما فيهن من الضعف غالبًا عن القيام بمصالح أنفسهن بخلاف الذكور؛ لما فيهم من قوة البدن، وجزالة الرأي، وإمكان التصرف في الأمور المحتاج إليها في أكثر الأحوال.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: ... وذلك أن البنت قاصرة ضعيفة مَهِيْنَة، والغالب أن أهلها لا يَأْبَهُون بها، ولا يهتمون بها؛ فلذلك قال النبي ﷺ : مَن عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين .

٣-**قال ابن هبيرة** -رحمه الله-: قوله (مَن عال جاريتين) كأنه إذا كان للرَّجُل البنت الواحدة وكانت مع ذَكَرٍ لم يكن تَبَرُّمه بها كما إذا كانتا اثنتين، فالاثنتان على الرَّجُل أشد من الواحدة، وهذا إنما ذَكَرَهُ رسول الله ﷺ لأنه جَمَعَ أنثى إلى أنثى، فهو ضم شيء إلى شيء، حتى قال فيه قوم: إنه أقل الجمع، فيدل نُطْقُ هذا الحديث أن مَن كان له ثلاث بنات أو أربع أو أكثر كان قُرْبُه إلى رسول الله ﷺ بنسبة ذلك إذا عَالَهُنَّ.

٤-**قال ابن حجر** -رحمه الله-: والظاهر أنَّ الثواب المذكور إنما يحصل لفاعله إذا استمر إلى أنْ يحصل استغناؤهن عنه بزوج أو غيره، كما أُشِير إليه في بعض ألفاظ الحديث، والإحسان إلى كل أحد بحسب حاله، وقد جاء أنَّ الثواب المذكور يحصل لمن أحسن لواحدة فقط .

٥-الحديث يشمل غير البنات كالأخوات .

فقد جاء في الحديث (مَن عال بنتين أو أختين أو خالتين أو جدتين أو عمَّتَين، فهو معي في الجنة كهاتين).

٦-قوله : (**جاء يوم القيامة أنا وهو، وضَمَّ أصابعه**) .

قال ابن حبان -رحمه الله-: أراد به في الدخول والسبق، لا أنَّ مرتبة مَن عال ابنتين أو أختين في الجنة كمرتبة المصطفى ﷺ سواء.

٧-**قال الصنعاني** -رحمه الله-: وفيه فضيلة عظيمة لمن كان له ما ذُكر، ولا بد من تقييده بالصبر والاحتساب كما في غيره، فلا يتضجَّر من تربيتهما، فيُحْرَم مِن كفالتهما، كما يقع كثيرًا للأنام.

٨-**قال الشيخ ابن عثيمين** -رحمه الله- ويؤخذ من هذا الحديث...أنه ينبغي للإنسان أن يهتم بالأمور التي تقرِّبه إلى الله، لا بالأمور الشَّكْلِيَّات، أو مراعاة ما ينفع في الدنيا فقط، بل يلاحِظ هذا ويلاحِظ ما ينفع في الآخرة أكثر وأكثر .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لاَ يَمُوتُ لأَحَـدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَمَسَّـهُ النَّارُ إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ).

وفي لفظ (لاَ يَمُوتُ لإِحْدَاكُنَّ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ فَتَحْتَسِبَهُ إِلاَّ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ أَوِ اثْنَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: أَوِ اثْنَيْنِ) .

[خ : ٦٦٥٦] .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ (جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ. قَالَ «اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا» فَاجْتَمَعْنَ فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ «مَا مِنْكُنَّ مِنِ امْرَأَةٍ تُقَـدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلاَثَةً إِلاَّ كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ» فَقَالَتِ امْـرَأَةٌ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ) .

[خ : ٧٣١٠] .

==========

(**لاَ يَمُوتُ لأَحَـدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلاَثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ**) وفي الرواية الأخرى تقييده بقوله (لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ) أي: لم يَجْر عليهم القلم بسبب بلوغهم، وعملهم الحنث؛ أي: الذنب .

(**فَتَمَسَّـهُ النَّارُ إِلاَّ تَحِلَّةَ الْقَسَمِ**) أي : لا تمسه النار إلا تحلة القسم في قوله تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً) .

(**فَقَالَتِ امْـرَأَةٌ وَاثْنَيْنِ**) **قال النوويّ** رحمه الله: هذا محمول على أنه ﷺ أوحي إليه عند سؤالها، أو قبله، وقد جاء في غير مسلم: "أو واحد" .

(**ذَهَبَ الرِّجَالُ بِحَدِيثِكَ**) وفي رواية للبخاريّ (قالت النساءُ للنبيّ ﷺ : غلَبَنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نَفْسك) .

قال في "العمدة": معناه: أن الرجال يلازمونك كل الأيام، ويسمعون العلم، وأمور الدِّين، ونحن نساء ضعفة، لا نقدر على مزاحمتهم، فاجعل لنا يومًا من الأيام نسمع العِلم، ونتعلم أمور الدين.

قال الطيبي -رحمه الله-: قولها (ذهب الرجال بحديثك) أي: أخذوا نصيبًا وافرًا مِن مواعظك، واستَصْحَبُوك معهم.

وقال الملا علي القاري -رحمه الله-: (ذهب الرجال بحديثك) أي: فازوا وظفروا به، ونحن محرومات من اغتنامه واكتسابه.

(**قَالَ : اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا**) ليوم سمّاه باسمه، وفي رواية ابن حبّان: "فقال رسول الله ﷺ (موعدكنّ بيت فلانة، فجاء، فتحدّث معهنّ) .

وقال ابن علان -رحمه الله-: عيَّنه لهن ليستعددن له، وليكنَّ أَشْوَق، فتكون الموعظة أوقع؛ لأن ما حصل بالطلب ليس كالحاصل بلا تعب .

(**مَا مِنْكُنَّ مِنِ امْرَأَةٍ تُقَـدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلاَثَةً**) أي: يموت لها ثلاثة من أولادها ذكوراً أو إناثاً فتقدمهم للدار الآخرة قبلها.

(**إِلاَّ كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ**) أي: إلا كان مصابها فيهم وقاية لها من النار.

١-الحديث دليل على فضل من مات له ثلاثة أولاد، فإنه يدخل الجنّة، ولا تمسّه النار، إلا الورود الذي في قوله عز وجل (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) .

فهذه الأحاديث تبين أن من توفي له ولدان أو أكثر فصبر عليهما أنه موعود بالجنة، والنجاة من النار.

وزيادة على ذلك :

عن أنس بن مالك مرفوعًا (ما من الناس من مسلم، يُتَوَفَّى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث، إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم) .

وفي "سنن ابن ماجه" عن عتبة بن عبد، مرفوعًا (ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد، لم يبلغوا الحنث، إلا تَلَقَّوه من أبواب الجنة الثمانية، من أيها شاء دخل) وهذه زيادة على مطلق دخول الجنة .

ويوافقه ما رواه النسائيّ عن معاوية بن قُرّة، عن أبيه (أن رجلًا أتى النبيّ ﷺ ومعه ابن له، فقال: أتحبه؟ فقال: أَحبَّك الله كما أحبه، فمات، ففقده، فسأل عنه؟ فقال: ما يَسُرُّك أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة، إلا وجدته عنده يسعى، يفتح لك؟) .

٢- قوله (**فَتَحْتَسِبَهُ إِلاَّ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ**) .

دليل على أنه يشترط الصبر والاحتساب للحصول على هذا الأجر .

قال ابن حجر : صَبَر راضيًا بقضاء الله، راجيًا فضله .

لقوله (فَتَحْتَسِبَهُ إِلاَّ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ) .

ولقوله ﷺ في حديث أبي النضر السُّلميّ (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، فيحتسبهم) .

وعن أنس، رفعه (من احتسب من صُلْبه ثلاثة، دخل الجنة ...) رواه النسائي .

وعن عقبة بن عامر، رفعه (من أعطى ثلاثة من صلبه، فاحتسبهم على الله وجبت له الجنة) رواه أحمد .

قال القاضي عياض -رحمه الله-: قوله (فتحتسبه) يدل أن هذا الأجر إنما هو لمن احتسب أجره على الله وصبر، والاحتساب والحِسْبة والحساب بالكسر: ادخار الأجر عند الله، وأن يَعْتَدَّ مصابه ويحسبه من حسناته، وهو مأخوذ من الحساب.

وقال القرطبي : وقيّده بالاحتساب؛ لِمَا قرّرناه غير مرة أن الأجور على المصائب لا تحصل إلا بالصبر، والاحتساب.

وقال ابن حجر -رحمه الله-: وقد عُرف من القواعد الشرعية أن الثواب لا يترتب إلا على النية، فلا بد من قيد الاحتساب، والأحاديث المطلقة محمولة على المقيدة .

٣- قوله (**لم يبلغوا الحنث**) أي: التكليف، والحنث: الإثم .

وإنما خصّه بهذا الحدّ؛ لأنَّ الصغير حبّه أشدّ، والشفقة عليه أعظم .

٤-قوله (**مَا مِنْكُنَّ مِنِ امْرَأَةٍ** ...) .

قال ابن حجر -رحمه الله:-إنما خصَّ المرأة بالذكر؛ لأن الخطاب حينئذٍ كان للنساء، وليس له مفهوم لما في بقية الطرق.

٥-قوله (... **من الولد**) .

قال بعض العلماء : إن أولاد الأولاد في ذلك كالأولاد، سواء كانوا أولاد البنين، أو أولاد البنات؛ لصدق الاسم عليهم .

قال ابن حجر -رحمه الله-: الظاهر أن المراد من ولده الرجل حقيقة، ويدل عليه رواية النسائي المذكورة من طريق حفص عن أنس ففيها (ثلاثة مِن صُلبه) وكذا حديث عقبة بن عامر، وهل يدخل في الأولاد أولاد الأولاد؟ محل بحث، والذي يظهر أن أولاد الصلب يدخلون، ولا سيما عند فقد الوسائط بينهم وبين الأب، وفي التقييد بكونهم من صلبه ما يدل على إخراج أولاد البنات.

٦-قوله (**لاَ يَمُوتُ لأَحَـدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**) .

فيه أن هذا الحكم خاص بالمسلمين .

قال ابن حجر : والحديث ظاهر في اختصاص ذلك بالمسلـم، وهـو واضح، فإن الكافر ليس من أهـل الأجور، **لكن لو مات له أولاد في حال الكفر، ثم أسلم بعد ذلك، هل ينفعه ما مضى من موتهم في زمن كفره، أو لا بدّ أن يكون موتهم في حالة إسلامه؟**

قد يدلّ للأول قوله ﷺ لحكيم بن حزام رضي الله عنه (أسلمت على ما أسلفت من خير" لَمَّا قال له: أرأيتَ أمورًا كنتُ أتحنّث بها في الجاهلية، هل لي فيها من شيء؟) .

لكن قد جاءت أحاديث فيها تقييد ذلك بكونه في الإسلام، فالرجوع إليها أولى .

ففي "مسند أحمد" بإسناد صحيح عن امرأة، يقال لها: رجاء، قالت (كنت عند رسول الله ﷺ، إذ جاءته امرأة بابن لها، فقالت: يا رسول الله ادع الله لي فيه بالبركة، فإنه قد توفي لي ثلاثة، فقال لها رسول الله ﷺ: أمنذ أسلمت؟ قالت: نعم، فقال رسول الله ﷺ : جُنّة حَصِينة"، فقال لي رجل: اسمعي يا رجاء ما يقول رسول الله ﷺ) .

وفي "مسند أحمد" وغيره بإسناد لا بأس به، عن عمرو بن عَبَسَة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (من وُلِد له ثلاثة أولاد في الإسلام، فماتوا قبل يبلغوا الحنث، أدخله الله الجنّة برحمته إياهم).

وفي "مسند أحمد"، و "معجم الطبراني الكبير" بإسناد فيه مجهول، عن أبي ثعلبة الأشجعي، قال (قلت: يا رسول الله مات لي ولدان في الإسلام، فقال: "من مات له ولدان في الإسلام أدخله الله الجنة).

قال الحافظ ولي الدين -رَحِمَهُ اللَّهُ-: ما حاصله: وفي حديث عمرو بن عَبَسَة زيادة على غيره، وهي أن تكون ولادتهم في الإسلام، ومقتضاه أنهم لو وُلدوا له قبل أن يسلم، وماتوا بعد إسلامه لم يكن له هذا الثواب .

٧-**قال العراقي** -رحمه الله- هذا الحديث لا يتناول السقط؛ لأنه ليس ولدًا، لكن ورد ذكر السقط في أحاديث.

٨-الحديث دليل على مشروعية تخصيص النساء بيوم على حدة في العلم.

قال ابن رجب في شرح الحديث: هذا يدل على أن مجالس النبي ﷺ للفقه والتذكير ونحو ذلك، لم يكن النساء يحضرنها مع الرجال، وإنما كن يشهدن الصلوات في مؤخر المساجد ليلاً ثم ينصرفن عاجلاً، وكن يشهدن العيد مع المسلمين منفردات عن الرجال من ورائهم، ولهذا لما خطب النبي ﷺ يوم العيد رأى أنه لم يُسمع النساء، فلما فرغ جاء ومعه بلال إلى النساء، فوعظهن وذكّرهن وأمرهن بالصدقة، وأجلس الرجال حتى يفرغ من موعظة النساء .

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- (اجتَمِعْنَ في يوم كذا) يدل على أن الإمام ينبغي له أن يعلِّم النساء ما يحتجن إليه من أمر أديانهن، وأن يخصَّهن بيوم مخصوص لذلك، لكن في المسجد أو فيما كان في معناه، حتى تُؤْمَن الخلوة بهن، فإنْ تمكَّن الإمام من ذلك بنفسه فعل، وإلا استنهض الإمام شيخًا يوثق بعِلمه ودِينه لذلك، حتى يقوم بهذه الوظيفة.

٩ - أن النبي ﷺ مأمور أن يبلغ ما أنزل إليه للرجال والنساء، وأن يعلّم الجميع.

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ).

وقال (وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ).

فامتثل ﷺ ما أمره الله تعالى، ووعدهن مجلساً خاصاً لهن في بيت امرأة، ثم وفّى بموعده لهن فأتاهن في يوم موعدهن، فوعظهن وأمرهن ونهاهن، ورغّبهن ورهبهن، كما في حديث أبي هريرة بنحو هذه القصة فقال: موعدكن بيت فلانة، فأتاهن فحدثهن، وكان من جُملة ما بشرهن به أن قال لهن (ما منكن امرأة تقدّم ثلاثة من ولدها ...).

١٠-رغبة الصحابيات بالعلم وسعيهن إلى معرفة أمور دينهن.

١١- اهتمام الإسلام بتعليم المرأة حتى تكون عضواً صالحاً في المجتمع الإسلامي، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتحسن القيام بمسؤولياتها في الحياة من عمل وخلق وتربية فاضلة لمن تشرف على تربيتهم.

١٢ - مشروعية تخصيص العالم الموثوق مجالس لتعليم النساء وموعظتهن تكون بعيدة عن الخلوة المحرمة وبعيدة عن أسباب الفتنة.

١٣ - عظم أجر التي تصاب بموت ولدين لها فأكثر إلى حد أن يكون ذلك مكفراً لها جميع سيئاتها حتى يكون حجاباً لها من النار.

١٤ - حكمة الرسول ﷺ في اختيار الموضوعات التي تناسب النساء في المجالس التي عقدها لهن.

١٥ - بلاغة الرسول وإيجازه في المقام الذي يناسبه الإيجاز.

١٦ - مشروعية خروج المرأة لطلب العلم إذا أمنت الفتنة.

١٧ - حرص نساء الصحابة على التعلم.

١٨ - أن العالم يختار لهن ما يناسبهن في الأحكام.

عَنْ أَبِي حَسَّانَ قَالَ (قُلْتُ لأَبِي هُرَيْرَةَ إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِيَ ابْنَانِ فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا قَالَ : قَالَ نَعَمْ؛ صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ – أَوْ قَالَ أَبَوَيْهِ – فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ – أَوْ قَالَ بِيَدِهِ – كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا فَلاَ يَتَنَاهَى – أَوْ قَالَ فَلاَ يَنْتَهِى – حَتَّى يُدْخِلَهُ اللَّهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ) .

==========

(**صِغَارُهُمْ**) أي: صِغارُ مَوتى المسْلِمين .

(**دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ**) الدُّعموصُ: دُوَيِّبَّةٌ تَكونُ في الماءِ لا تُفارقُه، أي: إنَّ هَذا الصَّغيرَ في الجنَّةِ لا يُفارقُها، وشَبَّه الطِّفلَ بها في الجنَّةِ؛ لصِغَرِه وسُرعةِ حَرَكتِه .

معنى الحديث :

قال ابنُ الأثيرِ: أي: أنَّهم سَّياحون في الجنَّةِ دَخَّالون في منازِلِها لا يُمنَعونَ مِن مَوضِعٍ، كما أنَّ الصِّبيانَ في الدُّنيا لا يُمنَعونَ مِنَ الدُّخولِ على الحُرَمِ ولا يحتَجِبُ منهم أحَدٌ . (النهاية)

وقال النَّوويُّ : صِغارُهم دَعاميصُ الجنَّةِ ، هو بالدَّالِ والعَينِ والصَّادِ المهمَلاتِ، واحِدُهم دُعْمُوصٌ –بضَمِّ الدَّالِ– أي: صِغارُ أهلِها، وأصلُ الدُّعموصِ دُوَيبَّةٌ تكونُ في الماءِ لا تُفارِقُه، أي: أنَّ هذا الصَّغيرَ في الجنَّةِ لا يفارِقُها .

١–الحديث دليل على أن أطفال المسلمين إذا ماتوا فهم في الجنة .

وهذا بالإجماع .

وقد نقل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إجماع من يعتد بقولهم من أهل العلم ، فقال رحمه الله: "ليس فيهم اختلاف أنهم في الجنة". انتهى من "المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة"

قال ابن كثير رحمه الله : فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة . وهذا هو المشهور بين الناس (أي عامة العلماء) وهو الذي نقطع به إن شاء الله عز وجل. (التفسير)

وقال النووي : أجمع من يعتد به من علماء المسلمين على أن من مات من أطفال المسلمين فهو من أهل الجنة ؛ لأنه ليس مكلفاً. (شرح مسلم)

وقال القرطبي: إن قول أنهم في الجنة هو قول الأكثر، وقال: وقد أنكر بعض العلماء الخلاف فيهم.

الأدلة :

أ–لحديث الباب (صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ) .

قال القرطبي : في هذا الحديث ما يدل على أن صغار أولاد المؤمنين في الجنة، وهو قول أكثر أهل العلم، وهو الذي تدل عليه أخبار صحيحة، وظاهر قوله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) .

ب–حديث سمرة بن جندب في قصة رؤيا النبي ﷺ، وفيها أنه قال: (وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام، وأما الوِلْدَان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة). رواه البخاري

فقالوا: هذا الحديث نص صحيح صريح في أنهم في الجنة، ورؤيا الأنبياء وحي.

قال ابن عبد البر : هذا يقتضي ظاهره وعمومه جميع الناس .

ج– حديث معاوية بن قرَّة عن أبيه (أن رجلًا كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ (أتحبه؟) فقال: يا رسول الله، أحبَّك الله كما أُحِبُّه، ففقده النبي ﷺ فقال: (ما فعل ابن فلان؟) قالوا: يا رسول الله، مات، فقال النبي ﷺ لأبيه: (أما تحب أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟) فقال رجل: يا رسول الله، أله خاصة أم لكلنا؟ قال: (بل لكلكم). رواه أحمد والنسائي

قال البيهقي : ذلك فيمن وافى أبواه يوم القيامة مؤمنين أو أحدهما، فيُلحق بالمؤمن ذريته، كما جاء به الكتاب، ويُستفتح له، كما جاءت به السنة، ويحكم لها بأنها كانت ممن جرى له القلم بالسعادة .

د–جملة من الأحاديث الواردة في فضل من يموت له ولد أو أكثر فيحتسبه، وقد تقدمت هذه الأحاديث :

كحديث (ما مِنَ النَّاسِ مِن مُسلِمٍ يُتوفَّى له ثلاثٌ لم يَبْلُغوا الحِنْثَ، إلَّا أدخَلَه اللهُ الجَنَّةَ بفَضْلِ رَحمتِه إيَّاهم) .

وحديث (أيُّما امرأةٍ مات لها ثلاثةٌ مِنَ الولَدِ، كانوا حِجابًا مِنَ النَّارِ. قالت امرأةٌ: واثنانِ؟ قال: واثنانِ).

ووَجهُ الدَّلالةِ مِن الأحاديثِ : إنَّ من يكونُ سببًا في حَجَبِ النَّارِ عن أبويه أَولى بأن يُحجَبَ هو؛ لأنَّه أصلُ الرَّحمةِ وسَبَبُها .

قال ابن عبد البر : في هذه الأحاديث دليل على أن أطفال المسلمين في الجنة لا محالة –والله أعلم– لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم من أجلهم، استحال أن يُرحموا من أجل من ليس بمرحوم، ألا ترى إلى قوله ﷺ (بفضل رحمته إياهم) .

وقال النووي: هذه الأحاديث دليل على كون أطفال المسلمين في الجنة .

وقال ابن القيم: هذه الأحاديث أكثرها في الصحيح، وكلها صحيحة، وهذا القول في أطفال المسلمين هو المعروف من قواعد الشرع، حتى إن الإمام أحمد أنكر الخلاف فيه، وأثبت بعضهم الخلاف، وقال: إنما الإجماع على أولاد الأنبياء خاصة .

٢–فإن قيل : ما الجواب عن حديث عَائِشَةَ قَالَتْ (دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى جَنَازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ طُوبَى لِهَذَا عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ قَالَ : أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلاً خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ) .

سلك أهل العلم في هذا الحديث عدة مسالك :

المسلك الأول: ردُّ الحديث وتضعيفه، لضعف أحد رواته، وهو طلحة بن يحيى.

وإلى هذا ذهب الإمام أحمد وابن عبد البر.

قال الإمام أحمد –وقد ذكر له حديث عائشة–: "هذا حديث ضعيف"، ثم ذكر ضعف طلحة بن يحيى.

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: "سمعت أبي يقول: طلحة بن يحيى أحب إلي من بُرَيْد بن أبي بردة: بريد يروي أحاديث مناكير، وطلحة حدَّث بحديث: عصفور من عصافير الجنة .

وقال ابن عبد البر: هذا حديث ساقط ضعيف مردود ... وطلحة بن يحيى ضعيف لا يحتج به، وهذا الحديث مما انفرد به، فلا يُعرج عليه .

المسلك الثاني: أن النبي ﷺ قال ذلك لعائشة رضي الله عنها قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة.

وإلى هذا ذهب ابن حزم، وذكره الحليمي، والبيهقي، والنووي بصيغة الاحتمال، وهو أحد قولي ابن القيم.

قال ابن القيم عن هذا الحديث: وقد أجبت عنه بعد التزام صحته، بأن هذا القول كان من النبي ﷺ قبل أن يعلمه الله بأن أطفال المؤمنين في الجنة، وهذا جواب ابن حزم وغيره .

المسلك الثالث : أن النبي ﷺ أنكر على عائشة رضي الله عنها، لأنها قطعت لطفل معين بالجنة، دون أن يكون عندها على ذلك دليل قاطع، فأطفال المؤمنين وإن كان حكمهم من حيث الجملة أنهم في الجنة، لكن لا يُشهد لمعين منهم بذلك، لأنه غيب، والطفل المؤمن تبع لأبويه، فالقطع له بذلك قطع بإيمان أبويه، وهذا ليس إليه سبيل، لأنه غيب، فكم من مظهر للإسلام وهو منافق.

وإلى هذا ذهب البيهقي، والمازري، وابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم ، ومحمد بن عبد الوهاب، وابن باز، عليهم رحمة الله جميعًا.

قال البيهقي بعدما قرر أنه لا يجوز القطع لمعين من المؤمنين أنه في الجنة، وإن كنا نحكم عليهم من حيث العموم أنهم في الجنة قال: "فكذلك قطع القول به في واحد من المولودين غير ممكن، لعدم علمنا بما يؤول إليه حال متبوعه، وبما جرى له به القلم في الأزل من السعادة أو الشقاوة، وكان إنكار النبي ﷺ القطع به في حديث عائشة رضي الله عنها وعن أبيها، لهذا المعنى، فنقول بما ورد في الكتاب والسنة في جملة المؤمنين وذرياتهم، ولا نقطع القول: به في آحادهم لما ذكرنا، وفي هذا جمع بين جميع ما ورد في هذا الباب، والله أعلم".

وقال النووي : وَأَجَابَ الْعُلَمَاء بِأَنَّهُ لَعَلَّهُ نَهَاهَا عَنْ الْمُسَارَعَة إِلَى الْقَطْع مِنْ غَيْر أَنْ يَكُون عِنْدهَا دَلِيل قَاطِع ، كَمَا أَنْكَرَ عَلَى سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص فِي قَوْله : أَعْطِهِ إِنِّي لَأَرَاهُ مُؤْمِنًا ، قَالَ : أَوْ مُسْلِمًا الْحَدِيث .

وَيَحْتَمِل : أَنَّهُ ﷺ قَالَ هَذَا قَبْل أَنْ يَعْلَم أَنَّ أَطْفَال الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَنَّة ، فَلَمَّا عَلِمَ قَالَ ذَلِكَ فِي قَوْله ﷺ (مَا مِنْ مُسْلِم يَمُوت لَهُ ثَلَاثَة مِنْ الْوَلَد لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْث إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّه الْجَنَّة بِفَضْلِ رَحْمَته إِيَّاهُمْ) وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْأَحَادِيث . (شرح مسلم)

وقال ابن القيم: هذا الحديث يدل على أنه لا يُشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة، وإن أُطلق على أطفال المؤمنين في الجملة أنهم في الجنة، لكن الشهادة للمعين ممتنعة، كما يُشهد للمؤمنين مطلقًا أنهم في الجنة، ولا يشهد لمعين بذلك، إلا من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا وجه الحديث الذي يُشكل على كثير من الناس".

وقال الشيخ ابن باز بعدما قرر صحة الحديث: المقصود من هذا منعها أن تشهد لأحد معين بالجنة أو النار، ولو كان طفلًا، لأن الطفل تابع لوالديه، وقد يكونان ليسا على الإسلام وإن أظهراه، فالإنسان قد يظهر الإسلام نفاقًا، ومن مات على الصغر وليس ولدًا للمسلمين، وإنما لغيرهم من الكفار، فإنه يمتحن يوم القيامة على الصحيح. ... والحاصل أنه لا يشهد لمعين بجنة ولا نار، إلا من شهد له الرسول ﷺ، هذه قاعدة أهل السنة والجماعة، فإنكار النبي ﷺ على عائشة لأنها شهدت بالتعيين، هذا هو الصواب، وهذا وجه الحديث

٢-اختلف العلماء في أطفال المشركين على أقوال :

القول الأول : أنهم في الجنة .

وبِهذا جزم البخاري ، وابن حزم ونسبه إلى جمهور الناس ، واختاره ابن الجوزي ، والنووي ، وأبو عبد الله القرطبي والسبكى ، والسخاوي ، وطائفة من المفسرين والمتكلمين وغيرهم.

قال النووي : ... الصَّحِيح الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْل الْجَنَّة .

أ-واحتج هؤلاء بما رواه البخاري في صحيحه عن سَمُرَةُ بْنُ جُنْدَبٍ ﷺ قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» قَالَ فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ

يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ «إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي انْطَلِقْ. وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا ... الحديث: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْرِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لاَ أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولاً فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ -قَالَ- قُلْتُ لَهُمَا مَا هَذَا مَا هَؤُلاَءِ قَالَ قَالاَ لِي انْطَلِقِ انْطَلِقْ ...، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ» قَالَ فَقَالَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَوْلاَدُ الْمُشْرِكِينَ) .

فهذا الحديث الصحيح صريح في أنهم في الجنة، ورؤيا الأنبياء وحي.

ب-واحتجوا بقوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً).

والمولود لا يتوجه عليه التكليف ولا يلزمه قول الرسول حتى يَبْلُغ.

ج-حديث حسناء بنت معاوية قالت: حدثنا عمى قال: قلت للنبي ﷺ من في الجنة؟ قال (النبي في الجنة، والشهيد في الجنة، والمولود في الجنة، والوئيد في الجنة) رواه أبو داود .

د - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (سألت ربي عن اللاهين من ذرية البشر ألا يعذبَهم، فأعطانيهم). رواه أبو يعلى

والمراد باللاهين: الأطفال .

قال ابن عبد البر : إنما قيل للأطفال اللاهين: لأن أعمالهم كاللهو واللعب من غير عقد ولا عزم، من قولهم: لهيت عن الشيء أي لم أعتمده .

القول الثاني : أنهم يمتحنون في عرصة القيامة، ويرسل إليهم هناك رسول وإلى كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار.

واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وقال : هذا القول منقول عن غير واحد من السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم .

وانتصر له ابن القيم ، وكذا ابن كثير، وذهب إليه الشنقيطي وغيره من أهل العلم عليهم رحمة الله.

قال ابن تيمية بعدما ذكر هذا القول : وهذا أجود ما قيل في أطفال المشركين وعليه تتنَزل جميع الأحاديث .

وقال أيضًا: والصواب أن يُقال: الله أعلم بما كانوا عاملين، ولا نحكم لمعين منهم بجنة ولا نار، وقد جاء في عدة أحاديث أنَّهم يوم القيامة في عرصات القيامة يؤمرون ويُنهون، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار، وهذا هو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة والجماعة.

وقال أيضًا : ودلت الأحاديث الصحيحة أن بعضهم في الجنة وبعضهم في النار .

وقال ابن القيم بعد ذكره لهذا القول: وهذا أعدل الأقوال وبه يجتمع شمل الأدلة وتتفق الأحاديث في هذا الباب، وعلى هذا فيكون بعضهم في الجنة كما في حديث سمرة وبعضهم في النار كما دلَّ عليه حديث عائشة، وجواب النبي ﷺ يدل على هذا فإنه قال: "الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم" ومعلوم أن الله لا يعذبُهم بعلمه ما لم يقع معلومه، فهو إنما يعذب من يستحق العذاب على معلومه وهو متعلق علمه السابق فيه .. وهذا العلم يظهر معلومه في الدار الآخرة .

وقال ابن كثير بعد ذكره لهذا القول: وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها .

وقال الشنقيطي : ولا وجه للجمع بين الأدلة إلا هذا القول: بالعذر والامتحان، فمن دخل النار فهو الذي لم يمتثل ما أُمر به عند ذلك الامتحان، ويتفق بذلك جمع الأدلة، والعلم عند الله تعالى .

واستدل أصحاب هذا القول بما يلي:

أ–حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال (سُئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين، فقال: "الله إذ خلقهم أعلم بما كانوا عاملين) متفق عليه .

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال (سُئل النبي ﷺ عن ذراري المشركين فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين) متفق عليه .

قال ابن القيم: وفي قوله (الله أعلم بما كانوا عاملين) إشارة إلى أنه سبحانه كان يعلم ما كانوا عاملين لو عاشوا وأن من يطيعه وقت الامتحان كان ممن يطيعه لو عاش في الدنيا، ومن يعصيه حينئذ كان ممن يعصيه لو عاش في الدنيا .

ب–عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال (أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في الفترة، أما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وأنا ما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل، وأما الذي في الفترة فيقول: رب ما أتاني رسول، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار، فوالذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً) رواه أحمد .

وجاء أيضاً نحوه عن أنس عند البزار .

وعن أبي سعيد عند البزار أيضاً .

وعن معاذ بن جبل عند الطبراني ..

قال ابن تيمية بعد ذكره لبعض الأحاديث السابقة: "وقد جاءت بذلك عدة آثار مرفوعة إلى النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين بأنه في الآخرة يمتحن أطفال المشركين وغيرهم ممن لم تبلغه الرسالة في الدنيا، وهذا تفسير قوله "الله أعلم بما كانوا عاملين .

وقال أيضًا : وقد رُوي به آثار متعددة عن النبي ﷺ حِسان يصدِّق بعضها بعضًا .

وقال ابن القيم بعد استعراضه للأحاديث السابقة: "فهذه الأحاديث يشدُّ بعضها بعضًا وتشهد لها أصول الشرع وقواعده، والقول بمضمونِها هو مذهب السلف والسنة .

وقال ابن كثير : أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها .

ج–قالوا: وهذا القول هو الموافق لأصول الشرع وقواعده وللنصوص العامة الدالة على أن الله تعالى لا يعذب أحدًا حتى يبعث إليه رسولًا كقوله تعالى (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا).

قال شيخ الإسلام: وعلى هذا القول تدل الأصول المعلومة من الكتاب والسنة من أن الله لا يُعذب أحدًا حتى يبعث إليه رسولاً.

والراجح أنهم في الجنة –والله أعلم–.

ومن الأقوال التي قيلت :

الوقف، وترك الشهادة بأنهم في الجنة أو في النار.

أنهم في النار.

أنهم في منزلة بين المنزلتين بين الجنة والنار.

أنهم تحت مشيئة الله تعالى.

أنهم خدم أهل الجنة ومماليكهم.

أن حكمهم حكم آبائهم في الدنيا والآخرة.

فائدة :

حديث (أطفال المشركين خدم أهل الجنة) لا يصح .

قال ابن الجوزي : هذا حديث لا يثبت .

وقال ابن تيمية : وقد قال بعض الناس: إن أطفال الكفار يكونون خدمَ أهل الجنة، ولا أصل لهذا القول .

وضعَّفه ابن القيم ، وابن كثير ، وابن حجر .

فائدة :

قال بعض العلماء: نتوقف فيهم، ونكل الأمر فيهم إلى الله سبحانه، فهو أحكم وأعلم، وإليه يرجع الأمر كله؛ **قال البيهقي** في شعب الإيمان: منهم من توقف في الجميع، ووكل أمرهم إلى الله عز وجل، وهذا أشبه الأقاويل بالسنن الصحيحة، والله تعالى أعلم.

فائدة :

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة: حكم أولاد المشركين في الدنيا حكم آبائهم، أما في الآخرة فالصحيح من أقوال أهل العلم في شأنهم قولان:

أحدهما: أنهم يُمتحنون على الإسلام، فمن نجا من الفتنة دخل الجنة، ومن لم ينجُ دخل النار، وذلك بأن يُدعى إلى الإسلام، فمن أجاب دخل الجنة، ومن لم يُجِب دخل النار .

والثاني: أنهم من أهل الجنة .

فأقوى الأقوال في هذه المسألة هذان القولان، والأرجح منهما –والله أعلم– القول بأن أولاد المشركين يكونون برحمة الله وفضله من أهل الجنة؛ لقوة أدلته وكثرتها، ولأن القول بأنهم يُمتحنون يوم القيامة استدل من رجحه بأحاديث امتحان بعض الناس في الآخرة، وقد وردت من حديث أنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، ومعاذ وثوبان، والأسود بن سريع، وأبي هريرة، وكلها أحاديث ضعيفة إلا حديثَي الأسود بن سريع وأبي هريرة، وليس فيهما ذكر المولود، وإنما ذكر امتحان المولود في حديث أنس وأبي سعيد ومعاذ، وأسانيدها لا تصح .

فائدة :

قال ابن عبد البر في التمهيد : ليس في شيء منها ذكر المولود، وإنما فيها ذكر أربعة كلهم يوم القيامة يُدلي بحجته: رجل أصم أبكم، ورجل أحمق، ورجل مات في الفترة، ورجل هرم، ولا شك أن الأمر لله سبحانه يحكم في أولاد المشركين الذين ماتوا قبل البلوغ بما يشاء، وإليه يرجع الأمر كله، وهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، والقول بأن أولاد المشركين يكونون في الآخرة من أهل الجنة هو الأصح، والله أعلم وأحكم .

فائدة :

حكم أطفال المشركين في الدنيا :

هم تبعٌ لآبائهم في الأحكام، كالإرث والنكاح والقصاص والديات وغير ذلك، فلا يغسلون ولا يصلى عليهم ولا يدفنون في مقابر المسلمين.

قال ابن القيم رحمه الله : "قد علم بالاضطرار من شرع الرسول ﷺ أن أولاد الكفار تبع لآبائهم في أحكام الدنيا". انتهى من "شفاء العليل" (ص ٢٩٨)

وكون أطفال المشركين يتبعون آبائهم في أحكام الدنيا لا يعني أنهم في حقيقة الأمر كفار؛ لقوله ﷺ (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ) .

فهم كلهم مولودون على الفطرة، ومنهم من يدخل الجنة حتماً.

وإنما يقال : هم كفار حكماً تبعا لآبائهم ، لا حقيقة.

قال ابن القيم رحمه الله : " وَكَوْنُ الصَّغِيرِ يَتْبَعُ أَبَاهُ فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا هُوَ لِضَرُورَةِ حَيَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُرَبٍّ يُرَبِّيهِ ، وَإِنَّمَا يُرَبِّيهِ أَبَوَاهُ ، فَكَانَ تَابِعًا لَهُمَا ضَرُورَةً .

وقال : فَإِذَا سُبِيَ الطِّفْلُ مُنْفَرِدًا عَنْ أَبَوَيْهِ حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ؛ لِأَنَّهُ صَارَ تَحْتَ وِلَايَتِهِ [أي ولاية الإسلام] وَانْقَطَعَتْ وِلَايَةُ الْأَبَوَيْنِ عَنْهُ، هَذَا مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ – قَالَ – فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ – قَالَ – ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ – قَالَ – فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِى فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ – قَالَ – فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ).

[خ : ٧٤٨٥] .

==========

(**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا**) من عباده.

(**نَادَى جِبْرِيلَ**) فقال الله في ندائه.

(**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ**) وفي لفظ (إني أحب فلاناً فأحبه).

(**فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ**) عليه السلام .

(**فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ**) وفي حديث ثوبان (أهل السموات السبع).

(**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ**) ووقع في حديث ثوبان (فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، وتقوله حملة العرش).

(**ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ**) زاد الطبرانيّ في حديث ثوبان: "ثم يهبط إلى الأرض، ثم قرأ رسول الله ﷺ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا).

ومعنى (يوضع له القبول في الأرض) أنه يحصل له في قلوب أهل الأرض مودّة، ويُزرع له فيها مهابة، فتحبه القلوب، وترضى عنه النفوس، من غير تودّد منه، ولا تعرّض للأسباب التي تُكتسب لها مودات القلوب، من قرابة، أو صداقة، أو اصطناع، وإنما هو منحة منه تعالى ابتداءً

اختصاصًا منه لأوليائه، بكرامة خاصّة، كما يقذف في قلوب أعدائه الرعب، والهيبة؛ إعظامًا له، وإجلالًا لمكانه.

١ – الحديث دليل على فضل من أحبه الله، وأن من أحبه الله أحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض.

وقع في بعض طرق الحديث بيان سبب هذه المحبة، والمراد بها :

ففي حديث ثوبان ﷺ عن النبيّ ﷺ قال (إن العبد ليلتمس مرضاة الله، ولا يزال بذلك، فيقول الله عزَّ وجلَّ لجبريل: إن فلانًا عبدي يلتمس أن يرضيني، ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريل: رحمة الله على فلان، ويقولها حملة العرش، ويقولها مَن حولهم، حتى يقولها أهل السماوات السبع، ثم تَهبِط له إلى الأرض) رواه أحمد.

ويشهد له حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاريّ (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل، حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه).

٢–معنى يوضع له القبول في الأرض .

قال النووي –رحمه الله– ومعنى يوضع له القبول في الأرض أي: الحب في قلوب الناس ورضاهم عنه، فتميل إليه القلوب وترضى عنه، وقد جاء في رواية : فتوضع له المحبة .

وقال القرطبي: قوله (يوضع له القبول في الأرض) يعني: بالقبول محبة قلوب أهل الذين والخير له، والرضا به، والسرور بلقائه، واستطابة ذِكره في حال غَيبته، كما أجرى الله تعالى عادته بذلك في حق الصالحين من سلف هذه الأئمة، ومشاهير الأئمة، والقول في البغض على النقيض من القول في الحب.

وقال ابن بطال: قوله (ثم يوضع له القبول في الأرض) يريد المحبة في الناس، وقال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: (وألقيت عليك محبة مني) أي: حببتك إلى عبادي، وقال ابن عباس في قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًا) قال: يحببهم ويحببهم إلى الناس.

٣ – الحديث دليل على أن من علامات محبة الله: أن يوضع للعبد القبول في الأرض.

٤ – أن إعلام الله تعالى جبريل عليه السلام، وإعلام جبريل الملائكة عليهم السَّلام بمحبة العبد المذكور تنويه به، وتشريف له في ذلك الملأ الكريم، وليحصل من المنزلة المنيفة على الحظ للعبد العظيم، وهذا من نحو قوله ﷺ : حكاية عن الله تعالى حيث قال: "أنا مع عبدي إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم.

٥ – بيان أن محبة قلوب الناس علامة محبة الله تعالى، ويؤيده حديث (أنتم شهداء الله في الأرض).

قال الربيع بن أنس: إذا أحب الله عزَّ وجلَّ عبدًا ألقى له مودّة في قلوب أهل السماء، ثم ألقى مودة في قلوب أهل الأرض.

وقال كعب الأحبار: والله ما استقرّ لعبد ثناء في أهل الأرض حتى يستقرّ ثناء في أهل السماء.

٦ – جبريل مقدّم الملائكة.

٧ – من أحبه الله أحبه أهل السماء والأرض.

٨–قوله (**نادى جبريل**) .

قال الملا علي القاري –رحمه الله–: يدل على جلالته؛ من حيث خَصّه من بين أفراد الملائكة، فيكون أفضل من إسرافيل وميكائيل، وسائر حملة العرش والملائكة المقربين، ويحتمل أن يكون وجه تخصيصه: لكونه سفيرًا بين الله ورسله المبعوثين إلى المخلوقين.

٩–**قال النووي** –رحمه الله–: وحُبُّ جبريل والملائكة يحتمل وجهين:

أحدهما: استغفارهم له، وثناؤهم عليه ودعاؤهم.

والثاني: أن محبَّتهم على ظاهرها المعروف من المخلوقين، وهو ميل القلب إليه، واشتياقه إلى لقائه، وسبب حبِّهم إياه كونه مطيعًا لله تعالى محبوبًا له .

وقال ابن حجر –رحمه الله–: والمراد بمحبة الملائكة استغفارهم له، وإرادتهم خير الدارين له، ومَيْل قلوبهم إليه؛ لكونه مطيعًا لله محبًا له، ومحبة العباد له: اعتقادهم فيه الخير، وإرادتهم دفع الشر عنه ما أمكن .

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- وأما محبة الْمَلَك فلا بُعْدَ في أن تكون على حقيقتها المعقولة في حقوقنا، ولا إحالة في شيء من ذلك. وإعلام الله تعالى جبريل، وإعلام جبريل الملائكة بمحبة العبد المذكور تنويهٌ به، وتشريفٌ له في ذلك الملأ الكريم، وليحصل من المنزلة المنِيْفَة على الحظ العظيم، وهذا من نحو قوله ﷺ حكاية عن الله تعالى حيث قال: أنا مع عبدي إذا ذكرني؛ إنْ ذَكَرَني في نفسه ذكَرْتُه في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خير منهم، ويجوز أن يراد بمحبة الملائكة: ثناؤهم عليه واستغفارهم له، وإكرامهم له عند لقائه إياهم .

١٠-محبة الله للعبد هي أعظم نعمة، فإذا أحب الله عبدًا، كانت هذه المحبة سببًا لمحبة أهل السماء له، وهي منزلة عظيمة لا تقارن بمحبة الناس وحدها.

١١-محبة جبريل للعبد من آثار محبة الله، يقول الله تعالى لجبريل (إني أحب فلانًا فأحبه) فيحبه جبريل عليه السلام، ثم يُعلن ذلك في السماء.

١٢-محبة أهل السماء للعبد الصالح، فإذا أحب الله عبدًا، نادى في السماء أن الله يحبه، فيحبه أهل السماء. وهذا يدل على رفعة شأن من أحبه الله.

١٣-الحديث يعلّمنا أن أعظم غاية يسعى إليها المؤمن هي محبة الله، وأن من ثمراتها محبة جبريل والملائكة، والقبول والمحبة في الأرض، مع عظيم المنزلة عند الله.

١٤-قوله (**ثم تُوضَع له البغضاء في الأرض**) .

أن يُجعل له البغض والنفور في قلوب أهل الأرض، مقابل القبول الذي يُجعل لمن أحبه الله.

١٥-أن بغض الله للعبد بسبب ما يستحقه من المعاصي والشر أمر عظيم، وليس مجرد أمر دنيوي عابر.

١٦-أن أهل السماء يحبون من أحبه الله ويبغضون من أبغضه الله؛ لطاعتهم الكاملة لله تعالى.

١٧-أن للمحبة والبغض أثرًا في الأرض؛ فقوله (ثم توضع له البغضاء في الأرض) يدل على أن الله يجعل له بغضًا في قلوب الناس.

١٨-التحذير من أسباب بغض الله؛ فالعبد ينبغي أن يخاف من الذنوب والمعاصي التي تجلب سخط الله وبغضه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . قال : قال ﷺ (النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) .

==========

١-قوله (**الناس معادن**) أي: أصولٌ مختلفةٌ، ما بين نفيس، وخسيس، كما أن المعدن كذلك.

٢ - قوله (**خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّة خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَام إِذَا فَقُهُوا**) .

مَعْنَاهُ أَنَّ أَصْحَاب الْمُرُوآت وَمَكَارِم الْأَخْلَاق فِي الْجَاهِلِيَّة إِذَا أَسْلَمُوا أَوْ فَقُهُوا فَهُمْ خِيَار النَّاس. قَالَ الْقَاضِي: وَقَدْ تَضَمَّنَ الْحَدِيث فِي الْأَجْوِبَة الثَّلَاثَة أَنَّ الْكَرَم كُلّه عُمُومه وَخُصُوصه وَمُجْمَله وَمُبَانه. إِنَّمَا هُوَ الدِّين مِنْ التَّقْوَى وَالنُّبُوَّة وَالْإِغْرَاق فِيهَا وَالْإِسْلَام مَعَ الْفِقْه، بِضَمِّ الْقَاف عَلَى الْمَشْهُور، وَحُكِيَ كَسْرُهَا أَيْ صَارُوا فُقَهَاء عَالِمِينَ بِالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّة الْفِقْهِيَّة وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قال المناوي: (إِذَا فَقُهُوا) بضم القاف على الأجود، ذكره أبو البقاء؛ أي: صاروا فقهاء، ففيه إشارة إلى أن نوع الإنسان إنما يتميز عن بقية الحيوان بالعلم، وأن الشرف الإسلامي لا يتمّ إلا بالفقه، وأنه الفضيلة العظمى، والنعمة الكبرى، والمراد بالخيار في هذا ونحوه: من كان متصفًا بمحاسن الأخلاق، كالكرم، والفقه، والحِلم، وغيرها، متوقّيًا لمساوئها، كالبخل، والفجور، والظلم، وغيرها.

٣ - قوله (**وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ**) .

قال النوويّ: قال العلماء: معناه جموع مجتمعة، أو أنواع مختلفة، وأما تعارفها فهو لأمر جعلها الله عليه، وقيل: إنها موافقة صفاتها التي جعلها الله عليها، وتناسبها في شِيَمها، وقيل: لأنها خُلقت مجتمعة، ثم فُرِّقت في أجسادها، فمن وافق بشِيَمه أَلِفَه، ومن باعده نافره، وخالفه، وقال الخطابيّ وغيره: تآلُفها هو ما خلقها الله عليه من السعادة، أو الشقاوة في المبتدأ، وكانت الأرواح قسمين، متقابلين، فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت، واختلفت، بحسب ما خُلقت عليه، فيميل الأخيار إلى الأخيار، والأشرار إلى الأشرار، والله أعلم.

وقال في "الفتح": قال الخطابيّ: يَحْتَمِل أن يكون إشارةً إلى معنى التشاكل في الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الْخَيِّرَ من الناس يَحِنّ إلى شكله، والشرير نظير ذلك، يميل إلى نظيره، فتعارُف الأرواح يقع بحَسَب الطباع التي جُبلت عليها من خير وشرّ، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت. ويَحْتَمِل أن يراد الإخبار عن بدء الخلق في حال الغيب، على ما جاء أن الأرواح خُلقت قبل الأجسام، وكانت تلتقي، فتتشامّ فلمّا حَلّت بالأجسام تعارفت بالأمر الأول، فصار تعارُفها وتناكرها على ما سَبَق من العهد المتقدّم. وقال غيره: المراد أن الأرواح أول ما خُلقت خُلقت على قسمين، ومعنى تقابُلها؛ أن الأجساد التي فيها الأرواح إذا التقت في الدنيا ائتلفت، أو اختلفت، على حسب ما خُلقت عليه الأرواح في الدنيا إلى غير ذلك بالتعارف.

قال الحافظ: ولا يعكر عليه أن بعض المتنافِرَين ربما ائتلفا؛ لأنه محمول على مبدأ التلاقي، فإنه يتعلق بأصل الخلقة، بغير سبب، وأما في ثاني الحال فيكون مكتسَبًا؛ لتجذُّد وصْفٍ يقتضي الألفة بعد النفرة، كإيمان الكافر، وإحسان المسيء. انتهى

٤ – قاله ابن الجوزيّ رحمهُ اللهُ: ويستفاد من هذا الحديث أن الإنسان إذا وجد من نفسه نَفْرةً ممن له فضيلة، أو صلاح، ينبغي أن يبحث عن المقتضي لذلك؛ ليسعى في إزالته، حتى يتخلص من الوصف المذموم، وكذلك القول في عكسه.

٥ – بيان أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة.

٦ – بيان فضل الفقه في الدين؛ لأن من تحلّى بها كان أفضل من غيره، ولو كان شريف النسب، وقد قال النبيّ ﷺ من يرد الله به خيرًا يفقّهه في الدين"، فالفقه علامة الخيريّة، وعلامة السعادة في الدنيا والآخرة.

٧ – ذمّ الجهل، وذمّ أهله؛ لأنه وإن كان شريف النسب فجَهْله يجعله وضيعًا، ولقد أحسن من قال، وأجاد في المقال:

الْعِلْمُ يَرْفَعُ بَيْتًا لَا عِمَادَ لَهُ ... وَالْجَهْلُ يَهْدِمُ بَيْتَ العِزِّ وَالشَّرَفِ

٨ – من عظيم دلائل النبوة، قوله ﷺ (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف) تجد ذلك مقرر بين الأرواح، جلي بين النفوس، ظاهر بين الخلائق، تطمئن لأحدهم من الحديث الأول، من النظرة الأولى، دون سابق لقاء أو وصال، والآخر تشذ منه بلا أسباب ولا مقدمات، أنها سرائر الأرواح!.

عنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ «وَمَا أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ» قَالَ حُبَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : «فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ فَأَنَا أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ) .

وفي لفظ (يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ وَلاَ صَدَقَةٍ وَلَكِنِّى أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) .

[خ : ٣٦٨٨] .

عَنْ ابن مسعود قَالَ (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ) .

[خ : ٦١٦٩] .

==========

(**فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ**) وفي رواية (متى تقوم الساعة؟) .

(**قَالَ : وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا**) ما" استفهاميّة؛ أي: أيّ شيء هيّأت للساعة؟.

قال الكرمانيّ رحمهُ اللهُ: سلك النبيّ ﷺ مع السائل أسلوب الحكيم، وهو تلقّي السائل بغير ما يَطْلُب مما يُهِمّه، أو هو أهمّ. انتهى.

(**قَالَ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا إِلاَّ أَنِّيّ أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَه**) ﷺ، وفي الرواية الأخرى (أَنَّهُ قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرٍ، أَحْمَدُ عَلَيْهِ نَفْسِي).

(**قَالَ إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**) أي: مُلْحَقٌ بهم حتى تكون من زمرتهم، قال تعالى (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا).

١ – الحديث دليل على فضل حب الله تعالى، ورسوله ﷺ والصالحين، وأهل الخير الأحياء والأموات، فإنه يكون معهم في الجنّة.

وقد أخرج الطبرانيّ عن عائشة –رضي الله عنها– قالت (جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنك لأحبّ إلي من نفسي، وإنك لأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك، فما أصبر حتى آتيَ، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يَرُدّ عليه النبيّ ﷺ شيئًا، حتى نزل جبريل؛ بهذه الآية (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ).

٢ – **قال النووي**: أن من فضل محبة الله تعالى ورسوله ﷺ امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، والتأدب بالآداب الشرعية.

وقال القاضي عياض رحمهُ اللهُ: فيه أن محبة الله تعالى، ومحبّة رسوله ﷺ الاستقامة على طاعتهما، وترك مخالفتهما، وإذا أحبّهما تأدّب بآداب شريعتهما، ووقف عند حدودهما، وأن حبه لله، ولنبيّه ﷺ ولمن أحبه من الصالحين، ومَيْله بقلبه إليهم إنما ذلك كلّه لله تعالى، وطاعة له، وثمرة صحّة إيمانه، وشَرْح قلبه، وهو من أعظم الدرجات، وأرفع منازل الطاعات، ومن أعمال القلوب التي الأجر عليها أعظم من أجر أعمال الجوارح، وإثابة الله على ذلك أن رُفع إلى منزلة من أحبه فيه، وإن لم يكن له أعمال مثل أعماله، وهو فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. انتهى.

وقال القاري رحمهُ اللهُ: ومن علامة المحبة الصادقة أن يختار أمر المحبوب، ونهيه على مراد غيره، ولذا قالت رابعة العدويّة[من البسيط]:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ.

٣ – قوله (**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**) أي: مُلْحَقٌ بهم حتى تكون من زمرتهم، قال تعالى (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا).

قال الحافظ: وبهذا يندفع إيراد أن منازلهم متفاوتة، فكيف تصحّ المعية؟

فيقال: إن المعية تحصل بمجرد الاجتماع في شيء ما، ولا تلزم في جميع الأشياء، فإذا اتَّفَق أن الجميع دخلوا الجنة صدقت المعيّة، وإن تفاوتت الدرجات.

٤ - قَالَ أَنَسٌ : (**فَمَا فَرِحْنَا بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَرَحًا أَشَدَّ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**) .

قال القرطبي: إنما كان فَرَحُهم بذلك أشدّ؛ لأنَّهم لم يسمعوا أن في أعمال البرّ ما يحصل به ذلك المعنى من القرب من النبيّ ﷺ والكون معه، إلا حبّ الله تعالى ورسوله ﷺ فأَعْظِمْ بأمر يُلحق المقصّر بالمشمّر، والمتأخّر بالمتقدِّم.

٥ - قوله (**قَالَ وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا**).

قال الكرمانيّ رحمهُ اللهُ: سلك النبيّ ﷺ مع السائل أسلوب الحكيم، وهو تلقّي السائل بغير ما يَطْلُب مما يُهِمّه، أو هو أهمّ. انتهى

وقال الطيبيّ رحمهُ اللهُ: سلك مع السائل طريق الأسلوب الحكيم؛ لأنه سأل عن وقت الساعة، وإبّان إرسائها، فقيل له: فيم أنت من ذكراها؟ وإنما يُهمّك أن تهتمّ بأُهبتها، وتعتني بما ينفعك عند إرسائها من العقائد الحقّة، والأعمال الصالحة، فأجاب بقوله: "ما أعددت لها إلا أني أحبّ الله ورسوله".

٦ - لَا يُشْتَرَط فِي الِانْتِفَاع بِمَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ أَنْ يَعْمَل عَمَلهمْ؛ إِذْ لَوْ عَمِلَهُ لَكَانَ مِنْهُمْ وَمِثْلهمْ، وَقَدْ صُرِّحَ فِي الْحَدِيث الَّذِي بَعْد هَذَا بِذَلِكَ، فَقَالَ: أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمَّا يَلْحَق بِهِمْ. قَالَ أَهْل الْعَرَبِيَّة: (لَمَّا) نَفْي لِلْمَاضِي الْمُسْتَمِرّ، فَيَدُلّ عَلَى نَفْيه فِي الْمَاضِي، وَفِي الْحَال. بِخِلَافِ (لَمْ) فَإِنَّهَا تَدُلّ عَلَى الْمَاضِي فَقَطْ، ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَلْزَم مِنْ كَوْنه مَعَهُمْ أَنْ تَكُون مَنْزِلَته وَجَزَاؤُهُ مِثْلهمْ مِنْ كُلّ وَجْه. (قاله النووي)

٧ - دلّ الحديث على أن من أحب عبدًا في الله، فإن الله جامِع بينه وبينه في جنّته، ومُدخِله مَدخَله، وإن قصّر عن عمله، وهذا معنى قوله: "ولم يلحق بهم"؛ يعني في العمل، والمنزلة، وبيان هذا المعنى -والله أعلم- أنه لما كان المحبّ للصالحين إنما أحبهم من أجل طاعتهم لله، وكانت

المحبة عملًا من أعمال القلوب، واعتقادًا لها أثاب الله معتقد ذلك ثواب الصالحين؛ إذ النية هي الأصل، والعمل تابع لها، والله يُؤتي فضله من يشاء. (قاله ابن بطال)

٨ – جاء في الرواية الأخرى (فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ، وَلَا صِيَامٍ، وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، قَالَ: "فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ").

قال القرطبيّ رحمهُ اللهُ: قوله (مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلَاةٍ ...) يعني بذلك: النوافل من الصلاة، والصيام، والصدقة؛ لأن الفرائض لا بدّ له، ولغيره من فعلها، فيكون معناه: أنه لم يأت منها بالكثير الذي يُعتمد عليه، ويُرجى دخول الجنّة بسببه، هذا ظاهره .

ويَحْتَمل أن يكون أراد: أن الذي فَعَله من تلك الأمور، وإن كان كثيرًا، فإنه محتقَر بالنسبة إلى ما عنده من محبّة الله تعالى، ورسوله ﷺ، فإنه ظهر له أن محبّة الله تعالى ورسوله ﷺ أفضل الأعمال، وأعظم القُرَب، فجعلها عُمْدته، واتّخذها عُدّته. والله تعالى أعلم. (المفهم)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ (قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ الْعَمَلَ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ قَالَ : تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ) .

==========

١–معنى الحديث :

قال النووي : قَالَ الْعُلَمَاء مَعْنَاهُ هَذِهِ الْبُشْرَى الْمُعَجَّلَة لَهُ بِالْخَيْرِ، وَهِيَ دَلِيل عَلَى رِضَاء اللَّه تَعَالَى عَنْهُ، وَمَحَبَّته لَهُ، فَيُحَبِّبهُ إِلَى الْخَلْق كَمَا سَبَقَ فِي الْحَدِيث، ثُمَّ يُوضَع لَهُ الْقَبُول فِي الْأَرْض. هَذَا كُلّه إِذَا حَمِدَهُ النَّاس مِنْ غَيْر تَعَرُّض مِنْهُ لِحَمْدِهِمْ، وَإِلَّا فَالتَّعَرُّض مَذْمُوم.

وقال ابن الجوزي رحمه الله : والمعنى: أن الله تعالى إذا تقبل العمل أوقع في القلوب قبول العامل ومدحه ، فيكون ما أوقع في القلوب مبشرا بالقبول ، كما أنه إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه وهم شهداء الله في الأرض .

وقال القاضي عياض –رحمه الله–: (تلك عاجل بشرى المؤمن) أي: عنوان الخير له، ودليلٌ على رضا الله عنه وحُبِّه له، بدليل الحديث المتقدم (ثم يُوْضَعُ له القَبُول في الأرضِ) وهذا كله إذا كان

حَمْدُ الناس له عليه من غير طَلَبِهِ ذلك وتَعَرُّضِهِ له؛ فإنَّ هذا أصلُ الرياءِ وأعظمُ الآفاتِ لإفساد الأعمال، وهلاك العاملين لها، وتَزْيِينِ الشِّرك، وقوله: «تلك عاجل بشرى المؤمن» أي: البشرى المعَجَّلة .

وقال أبو العباس القرطبي –رحمه الله–: قوله (أرأيتَ الرَّجُل يَعْمَلُ العَمَل مِن الخيرِ ويَحْمَدُه الناس عَليه) يعني: الرَّجُل الذي يعمل العملَ الصالحَ خَالصًا، ولا يريد إظهارَه للناس – لأنَّه لو عَمِلَه لِيَحْمَدهُ الناسُ أو يَبَرُّوهُ لكَان مُرائِيًا، ويكون ذلك العملُ باطلًا فاسدًا – وإنما الله تعالى بلطفه ورحمته وكرمه يعامل المخلِصِين في الأعمال الصادِقِين في الأقوالِ والأحوال بأنواعٍ من اللُّطْفِ، فيَقْذِفُ في القلوب محبَّتَهم، ويُطلِق الألسنةَ بالثناء عليهم؛ لينوِّه بذِكْرِهِم في الملأِ الأَعلى؛ ليستغفروا لهم، ويَنْشُر طِيْبَ ذِكْرِهم في الدنيا؛ ليُقتدى بهم، فيعظم أجرهم، وترتفع منازلهم، وليجعل ذلك علامة على استقامة أحوالهم، وبُشْرى بحسن مآلهم، وكثير ثوابهم؛ ولذلك قال: تلك عاجل بشرى المؤمن .

وقال ابن رجب –رحمه الله– : إذا عَمِلَ العَمَلَ لله خالصًا، ثم أَلْقَى الله له الثناءَ الحَسَن في قلوب المؤمنين بذلك، ففَرِحَ بفضل الله ورحمته، واستَبْشَر بذلك، لم يضرّه ذلك .

وقال السيوطي رحمه الله : أي هذه البشرى المعجلة دليل للبشرى المؤخرة إلى الآخرة .

وقال المظهري –رحمه الله–: (تلك عاجلُ بُشرى المؤمنِ) يعني: مَن عمل عملًا صالحًا خالصًا لله، وليس في قلبه الرياء، أعطاه الله ثوابين: ثوابًا في الدنيا، وثوابًا في الآخرة، فثوابُه في الدنيا: أن يُوقِعَ محبَّتَه في قلوبِ الناسِ، ويوقِعَ على ألْسِنَتِهم ذِكْرَه بالخيرِ..... وثوابه في الآخرة: اللقاء، والجنة؛ يعني: لا بأس بمدحِ الناسِ الرجلَ الصالح إذا لم يكن في قلبه رياءٌ وسمعةٌ .

وسئل ابن عثيمين : ما معني الحديث الذي يقول (تلك عاجل بشرى المؤمن) ؟

فأجاب رحمه الله تعالى : المؤمن يبشر في الدنيا بعمله الصالح من عدة وجوه :

أولا : إذا شرح الله صدره إلى العمل الصالح وصار يطمئن إليه ويفرح به كان هذا دليلا على أن الله تعالى كتبه من السعداء ؛ لقول الله تبارك وتعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) فمن بشرى المؤمن أن يجد من نفسه راحة في الأعمال الصالحة ورضا بها وطمأنينة إليها ؛ ولهذا كانت الصلاة قرة عين رسول الله ﷺ .

ومن البشرى للمؤمن : أن يثني الناس عليه خيرا ؛ فإن ثناء الناس عليه بالخير شهادة منهم له على أنه من أهل الخير .

ومنها : أن تُرى له المرائي الحسنة في المنام .

٢-روى البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (لَمْ يَبْقَ مِنْ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ) قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: (الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ).

وروى الترمذي وحسنه عن أبي الدَّرْدَاءِ عن النبي ﷺ في قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فَقَالَ: (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ).

قال السعدي رحمه الله: أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق .

٣-**قال الشيخ فيصل ابن المبارك** -رحمه الله-: في هذا الحديث أنَّ مَن أَخْلَصَ العمل لله تعالى أَطْلَقَ الله الألسِنَةَ بالثناءِ عليه، وأنه مِن جُمْلَةِ أولياءِ الله -عز وجل-، قال الله تعالى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

٤-**قال الشيخ ابن عثيمين** : (تلك عاجل بشرى المؤمن) وهو الثناء عليه؛ لأن الناس إذا أَثْنَوا على الإنسان خيرًا فهم شُهَداء الله في أَرْضِه .

ولهذا لما مَرَّتْ جَنازة مِن عندِ النبيِّ ﷺ وأصحابِه أَثْنَوا عليها خيرًا، قال: «وَجَبَتْ» ثم مرَّت أخرى فأثنوا عليها شرًا، قال: «وَجَبَتْ» فقالوا: يا رسول الله، ما وَجَبَتْ؟ قال: «أما الأول: فوَجَبَتْ له الجنَّة، وأما الثاني: فوَجَبَتْ له النار؛ أنتم شُهداء الله في الأرض»، فهذا معنى قوله: «تِلْكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمن».

والفرق بين هذه وبين الرياء: أن المرائي لا يعمل العمل إلا لأجل الناس؛ ليراه الناس، فيكون في نيَّته شِرك مع الله غيره، وأما هذا: فنيَّته خالصة لله –عز وجل–، ولم يَطْرَأْ على بالِه أن يمدحَه الناسُ أو يذمُّوه، لكن الناس يعلمون، كما قال الشاعر:

ومَهْمَا تَكُن عندَ امرئٍ مِن خَلِيقَةٍ ** وإنْ خَالَهَا تَخْفَى على النَّاسِ تُعْلَمِ

...، فإذا علموا بطاعته مَدَحُوه وأَثْنَوا عليه، فهذا ليس برياءٍ، هذا عاجل بُشرى المؤمنِ؛ حيث إن الناس أثنوا عليه خيرًا، ومَن أَثْنَى الناسُ عليه خيرًا فحريٌّ بأن يكون من أهل الجنة، أما المرائي –والعياذ بالله– فإنه إن صلى يريد من الناس أن يعلموا بذلك، إنْ تَكَلَّم بخيرٍ أراد من الناس أن يَسْمَعُوه؛ ليَمْدَحُوه على هذا . انتهى

٥–**قال ابن هبيرة** –رحمه الله–: في هذا الحديث من الفقه: الدلالة على أنَّ حَمْدَ الناس المؤمنَ على خيرٍ فَعَلَه بشرى من الله تعالى تَعَجَّلها؛ إذ هم شُهودُ الله في أرضه؛ لأن المؤمنين لا يستجيزون أن يمدحوه ويثنوا عليه إلا فيما يكون لله –عز وجل– رِضًا، كما أنهم لا يستجيزون أن يذموا إلا على ما هو غير رِضًا.

٦–حِرْص الصحابة على الإخلاص في العمل، وصفاءِ الأجر من الشوائب.

٧ – الترغيبُ في صنعِ المعروفِ؛ ليَنَالَ صاحبُه الجزاءَ من الله، والحبَّ من الناس.

٨ – أن الله تعالى يحبُّ صانع المعروف، ويحبُّ الشاكر عليه، فحُبُّ الناس للمرء هو بِوَضْعِ الله قبولَه في الأرض

٩–فضل الإخلاص في العمل ، وأنه سبب للقبول والرفعة .

١٠–فيه حثّ على فعل الخير ولو لم يطلب الإنسان من الناس أن يمدحوه؛ لأن ثناءهم إن جاء بعد ذلك فهو من البشارة العاجلة.

١١–النية هي الأساس؛ فالعبرة بأن يكون العمل لله تعالى، لا طلبًا لمدح الناس.